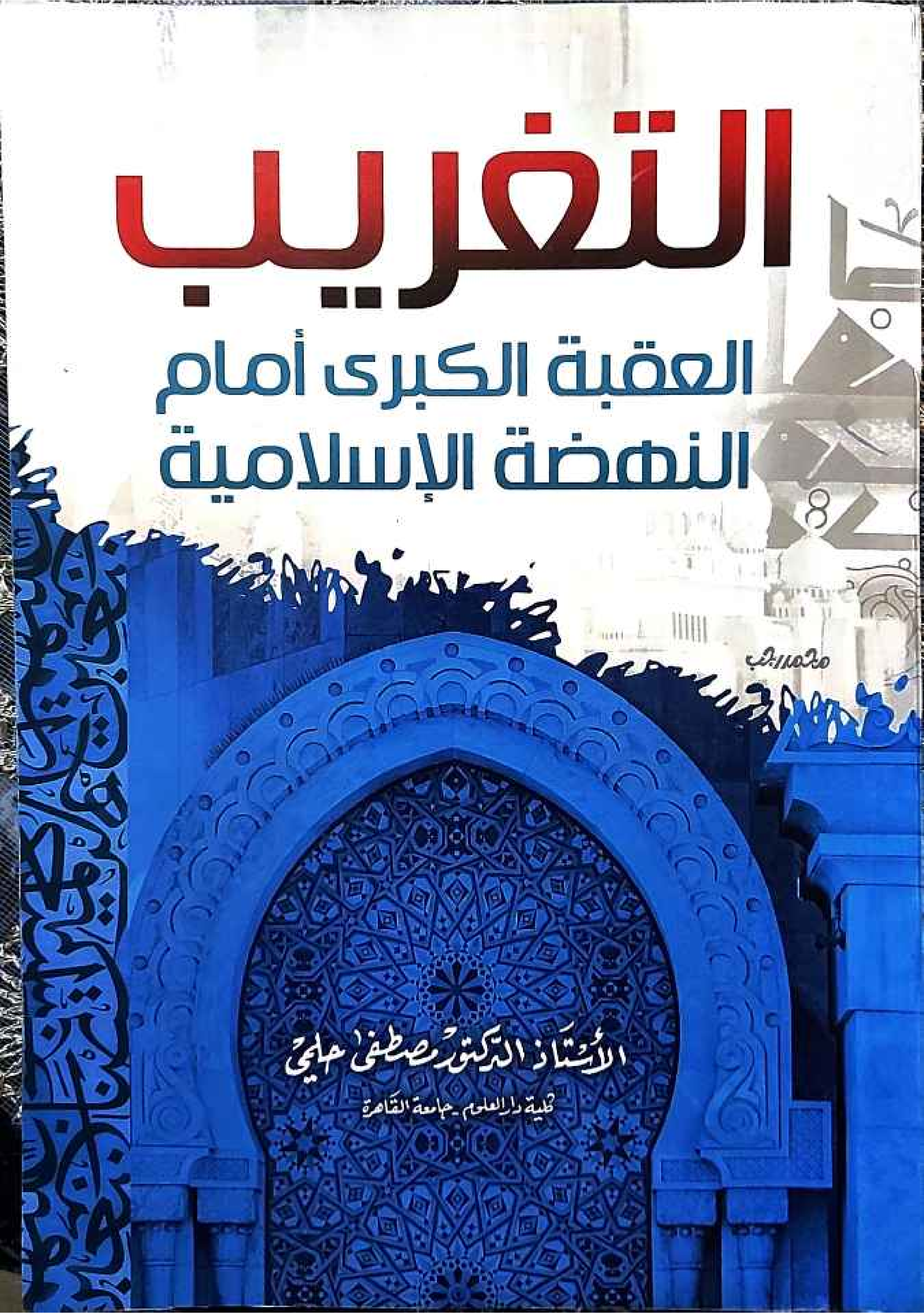

التغريب
العقبة الكبرى أمام
النهضة الإسلامية
الأستاذ الدكتور مصطفى حلمي
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

٢٠٢٢م

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٢٦٤٦٩
الترقيم الدولى: ٩-٠٤٠-٧٢٦-٩٧٧-٩٧٨

الدار العربيــة للكتــاب



العقبة الكبرى أمام النهضة الإسلامية

د. مصطفى حلمي

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد...

فقد ظلت أمتنا الإسلامية هدفًا لحروب وغزوات طوال تاريخها(١)، ثم تعرضت في العصر الحديث لنكبات أشد هولاً مما عانته من قبل، حيث هدم أتاتورك اليهودي(٢) الخلافة العثمانية، وحقق الاستعمار الصهيوني الاستيطاني هدفه باحتلال أرض فلسطين كاملة، وكان التمهيد لذلك دخول دول الاستعمار الأوروبي أثناء الحرب العالمية الأولى بلاد المسلمين عسكريًا، وفرض أفكارها وطريقتها في العيش في سائر بلاد المسلمين، وبالطريق العسكري من شماليّ أفريقيا وحتى إندونيسيا، وعندما دخل الإنجليز والفرنسيون أصبحت القوانين الغربية هي

---

(١) تعرضت لأزمات طاحنة كان بعضها كفيلاً بأن يقضي على أمم وحضارات وأديان، ولكن خرجت أمة الإسلام ظافرة من الأزمات التي مرّت بها.. وأوضح مثال على ذلك خروجها منتصرة من الصراع الرهيب الذي دار بينها وبين عوامل الدمار والتخريب من ناحية وعوامل الكراهية والحقد والتعصب من ناحية أخرى -أي: الخطر الصليبي والخطر المغولي اللذين اجتمعا على بلاد الإسلام في عصر واحد تقريبًا. (د. حسين مؤنس -عالم الإسلام- ص ٨٣ ط دار المعارف ١٩٧٣م).

(٢) وهو من طائفة «يهود الدونمة» المتحولين إلى الإسلام الذين تظاهروا بالدخول في هذا الدين للتآمر عليه، وقد عقدوا مؤتمراً لهم في باريس سنة ١٩٠٢ تحت اسم -الجمعيات المناهضة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني- حضره «جاويد باشا» -اليهودي المتظاهر بالإسلام- والذي كان يترأس «حزب الاتحاد والترقي» المناوئ لحكم الخلافة الإسلامية، والذي قام بعد ذلك بانقلاب عسكري معتمداً على الجيش الذي كان مرابطًا في مدينة سالونيك والذي كان غالبية أفراده من يهود الدونمة، وذلك في سنة ١٩٠٨م (د/ زغلول النجار - الإسلام والغرب في كتابات الغربيين- ص٨٠ نهضة مصر سنة ٢٠٠٧م.

المسيطرة؛ إذ عندما احتل نابليون مصر عام ١٧٩٨م فرض عليها القانون الفرنسي، وبعده جاءت إنجلترا. . وبعد الحرب العالمية الثانية، ظهر الدور الأمريكي، وعملت الولايات المتحدة على فرض طريقتها في العيش على العالم(١). ومن النماذج الصارخة على تحريف المصطلحات وتزوير التاريخ بإطلاق وصول (نابليون بونابرت) إلى مصر عام ١٧٩٨م «بداية عصر التنوير» وإغفال جريمة إعدام ١٣ عالمًا من علماء الأزهر بعد ثورة القاهرة ٢٢ و٢٣ أكتوبر ١٧٩٨م بعملية استئصال التطرف، مثلما قال ذلك المؤرخ الضابط (فيفون دونون) الذي شارك في قمع الثورة وكتب عنها(٢). وفي نفس المعنى كتب الدكتور القديري(٣) ويقول تعليقًا على ذلك (وإني لأشعر بالخجل حين أقرأ هذه الأيام مقالات صادرة في مصر تدعو للاحتفال بذكرى نزول جيش بونابرت في مصر واتخاذ جامع الأزهر زريبة لخيول الدخلاء وإحياء هذا التراث كبداية، لعصر التنوير)!!

ومن المصادر التي نستند إليها لفضح تلك الأكاذيب، كتاب (الحملة الفرنسية: تنوير أم تزوير)؟ فقد أوردت الدكتورة ليلى عنان المؤلفة نص كلام بونابرت الذي شرح فيه أن الهدف الرئيسي من الحملة على مصر كان زعزعة القوة الإنجليزية

---

(١) د/ منير محمد طاهر الشواف (تهافت الدراسات المعاصرة في الدولة والمجتمع) ص ١٩٤ ط دار الشواف الرياض ١٤١٥هـ -١٩٩٥م هذا، وقد فصّل الدكتور أحمد الطيّب القول في وصف أحوال العالم المعاصر، معللاً إياه بنظرية صراع الحضارات ونظرية نهاية التاريخ ونظرية العولمة، وكلها نظريات استعلائية تمهد لميلاد نظام عالمي جديد، وتمكّن لاستعمار حديث لا نعرف قوادمه من خوافيه، مستدلاً بتصريحات لأحد كبار المسئولين في الغرب قال فيها ما معناه (إن أوروبا حديقة غنّاء والعالم من حولها أدغال وأحراش)! (كلمة شيخ الأزهر في ملتقى الشرق والغرب من أجل التعايش الإنساني) ١٤٤٤هـ -٢٠٢٢م بالمنامة- البحرين مجلة الأزهر: جمادى الأولى ١٤٤٤هـ - ديسمبر سنة ٢٠٢٢م ص ٩٨١ .

(٢) د/ ليلى عنان (الحملة الفرنسية-تنوير أم تزوير) كتاب الهلال مارس سنة ١٩٩٨ وكان - شاتوبريان- أشهر أدباء العصر يصف الحملة الفرنسية بأنها حرب صليبية جديدة. . وكان يحث على الحروب لتحرير البلاد المسيحية من الإمبراطورية العثمانية ص ١٦٤ .

(٣) د/ أحمد القديري، مقال بعنوان (نحو مشروع حضاري للإسلام) ص ٢٠/٢١ مجلة (المسلم المعاصر) العدد (٨٥) ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

في أركان العالم الأربعة، من أجل ثورة تغير وجه الشرق كله وتعطي للهند مصيراً آخر . .

ثم علّقت بقولها (ولا نرى في هذا الكلام الصريح أية إشارة إلى المشروع الحضاري الذي طالما سمعنا أنه الهدف الرئيسي من وجود الجيش الفرنسي في مصر) ص ١٩٤ من كتابها بعنوان (الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟) الجزء الأول -كتاب الهلال- العدد ٥٦٧- مارس ١٩٩٨م ومصدرها كتاب «الميموريال» الذي يحكي على لسان «لاسل كاز» الصديق المرافق لنابليون في منفاه كل ما يفعله ويقوله. . وقد ظهر الكتاب سنة ١٨٢٣ أي بعد سنتين من وفاته ص ١٨١ [(١)].

(١) تقول الدكتورة ليلى بسخرية لاذعة (جامع الأزهر زريبة الخيول الدخلاء وإحياء هذا الحدث كبداية لعصر التنوير)!!! ولم تكتف بهذا بل أضافت قولها أيضاً في الجزء الثاني من كتابها عن الحملة الفرنسية (الأسطورة المتداولة فتقول إن الجيش الفرنسي جاء ليعلم الشعب المصري مبادئ الثورة والتنوير -وليحرره من سطوة المماليك-ولكن الحقيقة التي يفضحها لنا «دينون» تثبت عكس ذلك، أن الجيش الفرنسي كان في الواقع -مثلما كان في إيطاليا- جيش مرتزقة لا يهمه إلا السلب والنهب) ص ٣٩ ومن مصادرها كتاب تاريخ مؤلفه «شارل بوناس» أستاذ جامعي، ذكر عدد الجند ٣٥٠٠٠ جندي شعارهم «حرب صليبية من أجل الحضارة» ص ٢٨٠ أما ما يتردد أيضاً بأن تاريخ مصر الحديث بدأ بسنة وصول الفرنسيين إلى مصر سنة ١٧٩٨، وأن الدكتورة ليلى عثمان تذكر اعتراف المؤرخين الفرنسيين المحدثين أنفسهم بخطأ هذه النظرة التي تلقب -بروءية الحقبة الاستعمارية- بل إنها تحمّل الحملة الفرنسية مسئولية احتلال إنجلترا لمصر فتقول (فإن كانت أسطورة الرجل قد انهارت، ألم يحن بعد أن توضّح أيضاً أسطورة الحملة الحضارية على مصر، هزيمة بونابرت الأولى، والتي كانت السبب الأول في استعمار الإنجليز لمصر في ١٨٨٢) ص ٢٥٩ وتعلل ذلك بأنه لفت نظرهم لأهمية موقعها وخطرها على سيادتهم للبحار ص ١٧٥

والجزء الثاني من الكتاب (الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ) كتاب الهلال - العدد ٥٧٤- أكتوبر سنة ١٩٩٨م.

وقد عنينا باستقراء كافة الأدلة التي تبطل الأسطورة التي يذيعها المستغربون حيث يجعلون الباطل حقاً، والجرائم التي ارتكبها بونابرت وجيشه، سبباً للتنوير!!

ومن أروع ما صورت به الحملة قولها في نهاية الكتاب (على القارئ العربي في أرض مصر وأهلها أن يتوخى الحذر بل الريبة أيضاً إذا تناول قراءة تاريخنا بأقلام قوم -لا يرون فينا إلا جنساً أدنى- لا بد من استعماره بحجة تنويره وتحضيره!) (ص ٣٣٨).

وهكذا يفصح تاريخ الاستعمار عن طابع الغزو العسكري والثقافي معًا، ويتضح بصفة خاصة استهدافه تدمير جميع القيم الثقافية والأخلاقية للشعوب المستعمرة، وهو ما يعنينا في هذه الدراسة؛ إذ جعل هدفه إحلال طابعه الحضاري على تلك الشعوب، أي ذلك الطابع المادي القائم على النظرة المادية للإنسان وللوجود، بينما عجز عن أن يمنح المعنى للحياة الإنسانية!

ويصف الرئيس علي بيجوفيتش رحمه الله هذه الحضارة بقوله (إذا اقتصرنا على سلم القيم السائد في هذه الحضارة، فلن نجد قيمة أخلاقية واحدة ممكن أن تسد الطريق أمام غزو الإباحية أو تقاوم انتشار الخمور أو الارتفاع المستمر في جرائم الانحراف، وهو في الحقيقة قنوط العلم في مواجهة الأمراض الاجتماعية التي تتميز بجانب لا أخلاقي واضح . . وهي ثمار الفلسفات الغربية نفسها)(١).

والمفارقة التي تثير التساؤل هو الإصرار على فرض تلك الفلسفات على الشعوب المغلوبة على أمرها بالعالم الثالث بواسطة أعوان الاستعمار وجهاز المخابرات والجهاز الإعلامي العاتي الذي يسيطر عليه الغرب ويوجهه كيف يشاء وفق خطط وأهداف مدروسة ومخططة لكي يحافظ على السيطرة في مجالات الثقافة والاقتصاد والسياسة، بعد جلاء جيوشه ومع اختفاء أصحابها وراء الستار!!(٢).

والمصيبة الكبرى هي وقوع الكثير من الأقطار الإسلامية تحت تأثير الفلسفات الوافدة من الغرب؛ إذ أصبحت موجة تكتسح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه (وهي أعظم موجة واجهها العالم الإسلامي في تاريخه الطويل، وهي تفوق

(١) علي عزت بيجوفيتش (رئيس البوسنة والهرسك) - الإسلام بين الشرق والغرب) ص ١٢١ ترجمة محمد يوسف عدس ط مؤسسة العلم الحديث -بيروت سنة ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م الناشران (مجلة النور الكويتية) ومؤسسة بافاريا (ألمانيا) ١٩٧٤م.

(٢) يقول سيرج لاتوش (إن أروع ما حققه الاستعمار هو (مهزلة) تصفية الاستعمار، لقد انتقل البيض إلى الكواليس، لكنهم لا يزالون مخرجي العرض المسرحي) كتابه «تغريب العالم» تعريب خليل كلفت ط دار العالم الثالث ١٩٩٢م.

كل موجة سابقة عرفها التاريخ الإسلامي سواء في قوتها وفي شمولها وفي تأثيرها في المجتمع الإسلامي)[1].

(وللاستزادة من المعلومات عن دور المخابرات، يُنظر الكتاب المتميز -لعبة الأمم- عالم الاستخبارات الأمريكية في اعترافات أحد رجالها، تأليف مايلز كوبلاند -دراسة وإعداد وتقديم د/ الحسيني الحسيني معدّي ط دار الخلود بالقاهرة بالعتبة سنة ٢٠١٠م).

ولتصوير مدى النفوذ الضّاري للتغريب وتغلغله في مجتمعاتنا وقدرته على إعاقة النهضة الإسلامية نضرب مثالاً بالشجرة، فكما لها جذور وأغصان وثمار، وهي تنبت من بذور غُرست في الأرض، كذلك شجرة التغريب الخبيثة، فقد غُرست بذورها في حياتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية منذ عصر محمد علي - أي منذ نحو قرنين- وما زلنا نعاني من ثمارها المرّة! إن الصراع في ميدان الثقافة يختلف عن صراعات الحرب والسياسة؛ لأن الذي يخوض ميدان الحرب هنا هي الثقافات نفسها.. ولم يشعر الناس بأهمية ذلك الصراع الثقافي إلا في العصر الحديث، كما يذكر الدكتور حسين مؤنس، إذا أدخلت الدول الصراع الثقافي في

---

(١) أبو الحسن الندوي (ردّة ولا أبا بكر لها) ص ١٠/١١ ط دار المختار الإسلامي سنة ١٩٧٤م وبيجوفيتش تمكن من الثقافتين الإسلامية والغربية معًا وموضوع كتابه هو إبراز الإسلام كدين وحضارة معا، بينما سيطرت على العالم ثلاث وجهات نظر وهي:

١- النظرة المادية.

٢- النظرة الدينية كما تراه أوروبا -أي مجرد علاقة شخصية بالله تعالى وتتمثل في عقائد وشعائر يؤديها الفرد- وهما تياران في الفكر الإنساني على طرفي النقيض؛ إذ إن الدين كما هو المفهوم في الغرب لا يؤدي إلى التقدم، والعلم لا يؤدي إلى الإنسانية!! ٣- ويُبرز الإسلام متميزًا عن هاتين النظريتين باعتباره طريقة حياة أكثر من كونه طريقة في التفكير. ويقول: (إن التعليق الوحيد الأصيل على القرآن هو القول بأنه «حياة» وكما نعلم كانت هذه الحياة في نموذجها المتجسّد في حياة النبي محمد ﷺ.. إنه برهن على أن الإسلام وحدة طبيعية: من الحب والقوة، المتسامي والواقعي، الروحي والبشري. هذا المركّب المتفجر حيوية من الدين والسياسة يبث قوة هائلة في حياة الشعوب التي احتضنت الإسلام في لحظة واحدة. يتطابق الإسلام مع جوهر الحياة) (نفس المصدر) ص ٢٩ وص ٣٤ .

منهاجها السياسي[1]. ويعرّف الدكتور محمد علي أبو ريان التغريب بأنه (محاولة لإلغاء القديم -وإهالة التراب عليه والاتجاه عوضًا عن ذلك إلى الحضارة الغربية بكل مقوماتها في حركة محاكاة وتقليد أعمى واندفاع وارتماء في أحضان عالم غريب عنّا في ثقافته وسلوكه). ويَصِف حركة التغريب بقوله (**إنها من أخطر الحركات التي يلوح بريقها في أعين شبابنا وتستحوذ على نفوسهم وأحاسيسهم**)[2].

ويقول الدكتور مراد هوفمان (أدّى استعمار العرب لاعتناق الصفوة حضارة الغرب، ولكن جاءت النتيجة مخيّبة: عادة ما تأخر المسلمون خلف زملائهم الغربيين، لكنهم في الوقت نفسه فقدوا أسس حضارتهم الخاصة.. وأصبحوا في النهاية محبطين وممزقين بين حضارتين)[3].

وهذه الظاهرة المركبة تحتاج إلى دراسة بالرجوع إلى التاريخ مع تشخيص الواقع المعاصر أيضًا، حيث حُوصرت الصحوة الإسلامية بضراوة.. يقول الشيخ جمال حاتم (يوجد تحالف عجيب غير مسبوق من علمانيين وليبراليين واشتراكيين وشيوعيين.. تجمعه كراهية تطبيق الشريعة ومعاداة المشروع الإسلامي..)[4].

أجل، لقد حُوصرت الصحوة الإسلامية حتى كادت تختنق، ولكنها لن تموت.. قال تعالى: **﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** [الأنفال: ٣٠]. وفي التفسير: سرد الإمام السعدي ما قصده المشركون من قتل الرسول ﷺ فإن الله تعالى منعه منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له، وصاروا تحت

(١) د/ حسين مؤنس (الحضارة) ص ٥٧ ط عالم المعرفة - الكويت١٣٩٨هـ -١٩٧٨م.

(٢) د/ محمد علي أبو ريان (الإسلام السياسي في الميزان) ص ١٣١ ط دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ١٩٩٧م.

(٣) د/ مراد هوفمان (الإسلام كبديل) ص ٥٢، ٥١ تعريب عادل المعلم -ط٢ دار الشروق ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

(٤) جمال سعد حاتم (مصر أم الدنيا بين الفتن والإفساد) مجلة (التوحيد) ربيع الآخر سنة ١٤٣٤هـ بتصرف ط مكتبة الصفا بالأزهر ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

حكمه، بعد أن خرج مستخفيًا منهم، خائفًا على نفسه، فسبحان اللطيف بعباده الذي لا يغالبه غالب)[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وفي تفسير البقاعي:

(وَلَا تَهِنُوا) أي في جهاد أعدائكم الذين هم أعداء الله، فالله معكم عليهم، وإن ظهروا يوم أحد نوع ظهور، فسترون إلى من يؤول الأمر (وَلَا تَحْزَنُوا) أي، على ما أصابكم منهم، ولا على غيره مما عساه ينوبكم، والحال أنكم ﴿أَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: في الدارين: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

ومن فضل الله تعالى ورحمته أنه رفع عن الأمة الإسلامية سنّة الاستئصال؛ لأنها الأمة الخاتمة التي يستمر شرعها إلى يوم القيامة، ولكن وجب عليها الاتعاظ والاعتبار بمحل حلّ بالأمم السابقة؛ لأنه قد يصيبها ما أصاب تلك الأمم إن هم وقعوا في مثل ما وقعت فيه[3].

ويتناول هذا الكتاب دراسة قضية (التغريب) بمنهج نقدي، ويحتوي على سبعة فصول، وخاتمة.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به المسلمين.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود: ٨٨].

وصل الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ١٠ ذي القعدة سنة ١٤٤٤هـ

٣٠ مايو سنة ٢٠٢٣م

---

(١) عبد الرحمن ناصر السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص ٢٩٩ ط مكتبة الصفا بالأزهر ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م.

(٢) البقاعي ٥٩/٢ نقلاً عن (القرآن تدبر وعمل) ص٦٧ ط ١٠ مركز المنهاج ربيع ثان ١٤٤٢هـ -الرياض.

(٣) د/ محمد محمد عاشور (السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط) ص ٤٨٢ ط دار السلام ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.

التمهيد ومدخل الدراسة

الغزو الغربي كأداة للتغريب وطمس هويتنا الإسلامية

أغارت علينا في العصر الحديث مع الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي، فلسفات ومذاهب ونظريات استخدمها الغزاة كمعاول هدم للأمة، وأصبحت أكثر خطراً من الغزو العسكري واحتلال الأراضي؛ لأنها احتلت العقول والنفوس، بل قام بالدعوة إليها ونشرها البعض من بني جلدتنا، بغير وعي عن تفرد الحضارة الإسلامية بخصوصيتها المتميزة عن حضارة الغرب، وأن تقليدها سيؤدي إلى طمس هويتنا! ومع انبهارهم بظاهرها التكنولوجي، خفي عليهم معرفة أهدافها(١).

يقول الدكتور عبد الوارث عثمان محذراً من تقليد هذه الحضارة (إن تقليد حضارة أخرى، وخاصة في الهوية، وثوابت السمات والقسمات المميزة لخصوصيتها على النحو الذي يؤدي إلى التبعية، فيقود هو الآخر إلى الذوبان والاضمحلال الحضاري؛ وذلك لأن حياة أي حضارة إنما تكمن في إبداعها، وهذا الإبداع يتنافى تماماً مع التقليد الذي يكتفي بالنماذج المعلبة والخيارات الجاهزة، والأمة الإسلامية عندها من الرصيد التاريخي ما يؤهلها للدفاع عن خصائصها

---

(١) تلك الأهداف التي كشف عنها أحد المستشرقين العسكريين وهو «جورج سبيلمان» في كتابه (نابليون والإسلام). وكانت الفكرة المسيطرة هي أن الحضارة واحدة لا ثاني لها، وهي الحضارة الأوروبية، وإن «التحضّر» هو الوصول إلى النمط الأوحد من الحياة في كل أشكاله من ثقافة وأسلوب حياة، على أن يكون استيعاب تلك الحضارة، بتوجيه من الدول -المتحضرة- وتحت سيطرتها. إنه الاستعمار في أكثر صوره فجاجة كما شكل نظريته الفلسفية مفكرو القرن التاسع عشر ورسالتهم في الحياة، بل واجبهم المقدس، هو -تحضير- الشعوب ولو بالقوة، بل وبالقوة أولاً، فالهدف الحقيقي هو الاستعمار الاستغلالي والحصول على موارد وأسواق بلاد أضعف من أن تدافع عن حريتها. د/ليلى عنان (الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ) -أكتوبر ١٩٩٨ وبكليهما فضحت زيف الأسطورة التي نسجت خيوطها لتصنع ما يسمى تنويراً فرنسياً لمصر!!

ومميزاتها وثوابتها ما دامت متمسكة بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، وتأمل إصلاح نفسها والعالم بهما)(١).

كذلك يؤكد هذا المعنى الإمام أبو الحسن الندوي؛ إذ لا إصلاح أو نهضة لأمتنا إلا باتباع الرسول ﷺ.

فإنه مشعل الثقافة والحضارة؛ لأنه كان غوثًا للأمم، غيثًا للعالم، هناك كانت الشام وكان العراق، وكانت مصر، وكان العالم العربي.. فلولا محمد ﷺ، ولولا رسالته، ولولا ملّته، لما كان العالم العربي، بل ولا كانت الدنيا كما هي الآن حضارة وعقلاً، وديانة وخُلقًا، فمن استغنى عن دين الإسلام من شعوب العالم العربي وحكوماته، وولى وجهه شطر الغرب أو أيام العرب الأولى، أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب ودساتيره، أو أسس حياته على العنصرية أو العروبة التي لا شأن لها بالإسلام، ولم يرض رسول الله ﷺ قائداً ورائداً وإمامًا وقدوة، فليرد على محمد بن عبد الله ﷺ نعمته ويرجع إلى جاهليته الأولى.. فإن هذا التاريخ المجيد، وهذه الحضارة الزاهية، وهذا الأدب الزاخر، وهذه الدول العربية، ليست إلا حسنة من حسنات محمد ﷺ(٢).

ونحن نضيف أنه لمّا كان الإسلام غوثًا للأمم في عصره الأول، فإنه أصبح أيضًا غوثًا للشعوب في عصرنا الحديث. يقول الدكتور عماد الدين خليل (فليس بدعًا من الأمر أن ينتمي عقل كبير كالمفكر الفرنسي المعاصر رجاء جارودي إلى هذا الدين. ويقينًا كان انتماء الرجل ليس حدثًا عاديًا، ولكنها ظاهرة تحمل دلالتها على أن هذا الدين ما جاء للعربي وحده ولا للفارسي وحده، ولا للآسيوي أو الأفريقي وحدهما، ولكنه جاء للإنسان أنّى وحيثما كان هذا الإنسان.. وتحمل دلالتها كذلك على أنه الدين الذي سيظل يتميّز بقدرته الأبدية على الاستجابة

---

(١) د/ عبد الوارث عثمان (أستاذ الفقه المقارن بجامعة الأزهر) مقال بعنوان «مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي) ص ٣٥ مجلة (التوحيد) التي تصدر عن جماعة أنصار السنة -صفر سنة ١٤٤٤هـ.

(٢) أبو الحسن الندوي (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) ص ٢٤١ ط مكتبة الإيمان بالمنصورة ١٩٩٤م.

لمطالب الإنسان في القرن السابع الميلادي أو القرن السبعين! ويظل الجهاد كما يقول رسولنا ﷺ، ماضيًا إلى يوم القيامة. ويظل الإسلام رغم اختلال التكافؤ، بل انعدامه أحيانًا، قديرًا على الانتشار في كل زمن ومكان)(١).

وسيتضح للقراء صحة رأي خبير العلاقات الدولية -مارسيل بوازار- وهو يتحدث عن مشاركة الإسلام العالمية بقوله (إن احتمال قيام نهضة مستقبلية في عالم الإسلام تستمد مقوماتها من طابع الرسالة الإسلامية الإجمالي وأثره الحاسم في وجدان المؤمنين.. ويعيد تأكيده المرّة تلو المرّة على أن نهضة كهذه تظل مشروطة -ببعدها الديني- وبالتالي فإن أية محاولة لبناء نهضة على أساس لا ديني ستؤول إلى الفشل؛ لأنها لا تعدو أن تكون إلا تزيينًا على السطح، وعملاً مصطنعًا لا يحاول أن يمد جذوره في الأرض فيسهل اقتلاعه.. بينما يظل الإسلام وحده بديناميته كفيل بإقامة مجتمعات جديدة)(٢).

هذا، ولم يقتصر الاستعمار على استهداف هويتنا، بل جعل التغريب عقبة أمام نهوضنا، ومن ثمّ فإن وصف التغريب بأنه **العقبة الكبرى أمام النهضة الإسلامية** يعتمد على أدلة تبرهن على ذلك، وهي كالتالي:

- **أولاً**: تصريحات لعلماء غربيين، منهم:

١- العالم الأمريكي (ستودارد).

٢- العالم الفرنسي لاتوش.

٣- العالمة الألمانية هونكه.

- **ثانيًا**: إنه يعبر عن الصراع الفكري بهدف التغيير الاجتماعي.

---

(١) د/ عماد الدين خليل (في التأصيل الإسلامي للتاريخ) ص ١٦١ -١٦٢ ط دار الفرقان -عمّان ١٩٩٨م.

(٢) د/ عماد الدين خليل (قراءة في الفكر الغربي: الإسلام والمستقبل) مجلة المسلم المعاصر- ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

- ثالثًا: يهدف إلى تدمير العقيدة ومسخ الثقافة.

- رابعًا: نص تقرير لجنة مؤتمر (بانرمان).

- بالإضافة إلى التاريخ بمصادره الموثّقة.

أولاً: تصريحات العلماء:

يقول العالم الأميركي (لوثروب ستودارد): إن الدول المسيحية في عدائها وحقدها على الدول الإسلامية تلجأ إلى العدوان المسلح ابتغاء إذلال الدول الإسلامية، كما تعمل دائمًا على القضاء على كل حركة إصلاحية يحاولها المسلمون في بلادهم.. فجميع الدول النصرانية متحدة على دكّ الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. والروح الصليبية لم تبرح كامنة في نفوس النصارى **وأنها ما زالت حيّة في قلوبهم حتى اليوم، كما كانت في قلب بطرس الناسك)**(1). ويقول الدكتور سيد محمود (والواقع أن الحرب العالمية الأولى سنة ١٩٤١م، جاءت لترسخ تقسيم العالم الإسلامي بين الدول الأوروبية -ومن ثم الانتصار المسيحي الأوروبي على العالم الإسلامي)(2).

ويقول سيرج لاتوش (أما وعد الغرب، الوعد بالثروة والرخاء، فيغدو من الناحية الفعلية: الفقر واجتثاث الجذور، والإقصاء، وليس بصفة انتقالية، بل بصفة نهائية، تزداد تأثيراً على الدوام.. وأن نتائج سَيْر عمل الغرب الفعلي في سياق عملية تغريب العالم وبأية وسائل يتحقق هذا الاجتثاث للجذور على مستوى الكرة الأرضية...

ولكنه يستثني اليابان من سيطرة الرجل الأبيض؛ حيث نجحت بتخليص آسيا

---

(١) نقلاً عن / عبد العزيز الشناوي (الدولة العثمانية- دولة إسلامية مفترى عليها) جـ١ ص ٧١ باختصار مكتبة الأنجلو المصرية سنة ٢٠١٠م.

(٢) د/ سيد محمد السيد (تاريخ الدولة العثمانية (النشأة-الازدهار) ص ٣٩٠ مكتبة الآداب -ميدان الأوبرا بالقاهرة ١٤٢٨هـ -٢٠٠٢م.

من أسطورة الرجل الأبيض، ويشكّل نجاحها هذا تحديًا رهيبًا لتفوق العرق الأبيض[1].

و(التغريب) كما عرّفه الدكتور محمد حسين (يقصد به طبع العرب والمسلمين والشرقيين عامة بطابع الحضارة الغربية والثقافة الغربية؛ مما يساعد على إيجاد روابط من الود والتفاهم).

ويضيف شرحًا لعمليات التلاعب بالاصطلاحات (وهذا الذي نسمّيه الاستعباد الغربي (تغريبًا) هو ما يسميه سماسرة ذلك الاستعباد وصنائعه (تطويرًا) وهو ما يعنون به حين يتكلمون عن بناء المجتمع من جديد.. ثم يحذّرنا من الانسياق وراءهم ماضين في الهدم؛ إذ لا يرضيهم إلا أن يأتوا على بنياننا من القواعد بما يتضمّنه من دين وتقاليد وفنون وآداب..)[2].

مع العلم أن التاريخ الصحيح يسجل أن فرنسا هي صاحبة أعتى أساليب التغريب عن طريق عمليات (غسيل المخ) للمبعوثين إليها وإغرائهم بخدمة مصالحها في بلاد المسلمين بعد عودتهم!

وقال الشاعر الهندي السيد أكبر حسين[3] (إن الاستيلاء الأوروبي الروحي والمادي، والحضارة الأوروبية وباء عام، والثقافة الأوروبية سم سائل ينتشر، والمدارس الأوروبية أو أشباه الأوروبية) جراثيم فاشية دابة.. فشت في الهندي والمصري والشرقي، والمغربي والآسيوي والأفريقي).

---

(١) سيرج لاتوش (تغريب العالم) تعريب خليل كلفت ط دار العالم الثالث بالقاهرة سنة ١٩٩٢م وسنعود لتحليل مضمون كتابه في فصل خاص.

(٢) د/ محمد حسين (حصوننا مهددة من داخلها) المكتب الإسلامي -بيروت ص ٣٠٩/ ٣١٣ ط سنة ١٩٧٧م،وسنعود إلى عرض تحليله المفصّل (ص٤٤).

(٣) ١٢٦٣هـ ١٣٤٠هـ ١٨٤٦-١٩٢١م وهو من كبار شعراء الهند لقبته الدولة بلقب (خان بهادر) وهو يساوي لقب (بك) في مصر في عصر الخديوي ولقبه الشعب (لسان العصر) أبو الحسن الندوي (الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف) ص ٧، ١١ ط دار الصحوة القاهرة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

كذلك طبّق قادة الأقطار الإسلامية والقائمون على حكوماتها، وإداراتها سياسة التربية والثقافة والإعلام والمشاريع لقادة الفكر الغربيين وساسة الغرب وعلمائه من المستشرقين، وهكذا بذروا الاضطراب الفكري والتفسخ الخلقي وتقديس المادة والاستهانة بالقيم الخلقية والدينية، والميل الزائد إلى وسائل الترفيه والتسلية في عُزلة عن الشعب والجماهير[1]. كذلك يشخّصون الواقع بأبصارهم دائمًا إلى الغرب، وإلى مفكّريه في كل ما يعتد لهم من أمور جزئية أو كلية زعمًا منهم أن دينهم لا يقدّم لهم المساعدة في حل مشكلاتهم.. ويعلّل الدكتور أبو ريان ذلك بسبب جهلهم **بمبادئ الإسلام وروحه العظيمة**[2].

تحذير الدكتورة هونكه (العالمة الألمانية) من التغريب حرصًا على هويتنا:

وتتضح النتائج المدمرة بسبب «التغريب» على أمتنا مما سجلتّه الدكتورة زيجرد هونكه الألمانية؛ حيث صوّرت الآخذين بأسلوب المستعمرين وطريقهم في العيش والتفكير وعاداتهم وما حققوه من إنجازات مادية ومُثل أخلاقية فقالت (**وهكذا يتأوربون كالأوروبيين، ويتأمركون كالأمركين ويتروسون كالروس!**)[3] -أي أصبحنا نعيش وفق نمط حياتهم تمامًا وتخلّينا عن هويتنا الإسلامية ومقوماتها من عقيدة التوحيد وشريعة العدل والمبادئ الخلقية-إلا من رحم ربك!

ثم أخذت تحذّر من التقليد الأعمى للمدنية الحديثة الغربية؛ لأنه سيُفقد العالم العربي (ونفضّل وصفه بالإسلامي) «**الأصول**» و«**الجذور**» التي ينبغي للعالم العربي أن «يجدها» ويتعهدها حتى يشق طرقه إلى الأمام، أي أنها تشترط ذلك حتى يستطيع المقاومة والاحتفاظ بكيانه الأصيل.. ونحن نضيف بدورنا القول (حتى ينصرنا الله تعالى في تلك الحرب الصليبية الصهيونية، المستميتة الحريصة على

(١) نفسه ص ١٦ .

(٢) د/ محمد علي أبو ريان (الإسلام السياسي في الميزان) ص ١٣٢ ط دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٧م.

(٣) زيجريد هونكه (الله، ليس كذلك) ص ٩٥ دار الشروق -مجلة النور الكويتية ١٤١٦هـ -١٩٩٥م.

إجهاض وخنق أي حركة نهضة إسلامية أو تحرير من قبضة الاستعمار الغربي)[1]، وأخذت تحدد تلك الأصول فيما يلي:

- **أولاً**: اللغة العربية، ففي الجزائر -على سبيل المثال- وعلى مدى مائة وثلاثين عامًا -كادت تُمحى تحت سيطرة الفرنسيين- بينما اللغة العربية هي المفتاح الرئيسي إلى عالم الفكر الذاتي للعرب.

- **ثانيًا**: الدين (أي الإسلام) بصفته المحور الذي يدور حوله وجودهم، في كل ما يتعلق بأمورهم، أي الإسلام النقي من العناصر غير الإسلامية (أي أنها واعية تمامًا لـلفرق بين السنّة والبدعة حسب اصطلاحنا، كذلك فهم الإسلام كدين ونظام حياة شامل).

- **ثالثًا**: عودة الوعي والرجوع إلى الذاتية (أي الماهية والأصل)، ويتطلب ذلك التنقيب عن الماضي والخروج بالعبر والدروس اللازمة للانطلاق للمستقبل (إذ إن المرء لا يستخلص الدروس والعبر من ازدهار الحضارة فقط، بل من دواعي انهيارها كذلك، ليتنكّب الأخطار والمزالق)[2] (أي بعبارة أخرى أخذ العبرة في سنن النصر والهزيمة الإلهية على امتداد تاريخنا كله منذ عصر النبي ﷺ).

وبعد أن انتهينا من عرض العامل الخارجي لتدهور الأمة وطرقة علاجه عند هونكه نعرض بدورنا للعامل الثاني الداخلي المتصل بالسنّة والبدعة، وهو يتفرع إلى أمرين:

- **الأول**: عامة المسلمين حيث تفشى الجهل والأمية بين العامة، وظاهرة الانقسامات المذهبية والتعصب للآراء -والانحراف بعقيدة القضاء والقدر من معناها الصحيح الذي عرفه سلفنا الصالح وعمروا بها الدنيا وفتحوا العالم -إلى الاعتقاد الجبري، مع شيوع البدع وانتشار الخرافات باسم الدين وهو منه براء، كالشرك في العبادة بدعاء غير الله تعالى لأجل التقرب إليه بأولئك (الأولياء) وابتغاء

---

(١) واحداث (الربيع العربي) وتشجيع الثورات المضادة أقوى دليل على ذلك.

(٢) نفسه ص ٩٦.

شفاعتهم عنده، هذا بينما جاءت (آيات الإيمان بالله تعالى تُغذّي التوحيد، وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتألّه في حبه، من التنزيه والتقديس والتسبيح له، وذكر أسمائه الحسنى عز وجل)(١).

- الثاني: بعض الخاصة من المثقفين المقلدين لأهل الغرب -لا في المظهر فحسب- أي في المأكل والمشرب والملبس- بل في طرق التفكير والدراسة والبحث- وهي الآفة العظمى والخطر الأكبر على تراثنا؛ حيث يستخدمون الخلفية الفكرية والفلسفية الغربية في عرض مفاهيم الإسلام. يقول الدكتور عبد العزيز حمودة (ونشير هنا من جديد إلى محاولات البعض أنسنة الدين وتطبيق المبادئ النقدية الوافدة على النصوص المقدسة، وإذا كانت الثقافة الغربية، بتطوراتها الفكرية المتلاحقة عبر مئات السنين، قد قدّمت شرعية ثقافية لهذه المحاولات، فإن واقعنا الثقافي غير مستعد للتعايش مع هذه المحاولات)(٢)، بالإضافة ظهور طائفة أخرى من المثقفين المتأمركين في الصحافة وبعض الفضائيات يبشروننا بالحرية والديمقراطية!(٣).

- ثانيًا: والتغريب هو أبرز ظاهرة للصراع الفكري في بلاد المسلمين؛ إذ يعبّر عن عمليات الغزو الثقافي الأجنبي التجريبي، وقد ارتبطت أفكار المستغربين بالسيطرة الغربية السياسية، التي أثبتت عن طريق -كرومر- وغيره أنها تسعى إلى إحداث التغيير الاجتماعي بعيداً عن الإسلام بل على أنقاضه(٤)، ولكن فات أصحاب الاتجاه التغريبي لولعهم للنقل عن الثقافة الغربية -فاتهم- كما يقول (بن بنى) أن يدركوا أن الأفكار والنظريات حين تنفصل عن إطارها التاريخي والعقلي يتعاظم

---

(١) محمد رشيد رضا (الوحي المحمدي) ص ١٢٨ مكتبة القاهرة ط ٦١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

(٢) د/ عبد العزيز حمودة (المرايا المحدبّة -من البنيوية إلى التفكيك) ص ٦٤ عالم المعرفة -الكويت ذو الحجة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

(٣) كمال شاتيلا (الديمقراطية الاستعمارية) ص ١٣٠ ط لوتس بالقاهرة سنة ٢٠٢٢م ويطلق عليهم المؤلف اسم (مثقفو «المارينز» والتقدم العربي بالمنظور الأمريكي).

(٤) د/ علي القريشي (التغيير الاجتماعي عند مالك بن بني) ص ٩٢ ط الزهراء للإعلام العربي ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.

خطر نقلها ومحاولة تطبيقها في بيئة غير بيئتها).. كما أنهم بقراءاتهم لحياة أوروبا لم يعنوا بتاريخ حضارتها، وكيف تكونت، وكيف أنها في طريق التحلل **نتيجة ما تشتمل عليه من ألوان التناقض، وضروب التعارض مع القوانين الإنسانية**[(١)].

كذلك صرّحت الدكتورة يمنى الخولي -أستاذة الفلسفة بجامعة القاهرة- بأننا بحاجة إلى إعادة الثقة بأنفسنا والاعتزاز بذاتنا الحضارية.. أي الحضارة الإسلامية المتجوهرة حول أرومتها العربية تتواصل فيها اللغة العربية ذاتها وعروض شعرها، ثنائية عالم الغيب والشهادة...

وعندما قيل لها إن البعض يرى أن الذات بتراثها أعاقت نهضة على غرار نهضة الغرب العلمانية، حتى ينادوا بالقطيعة المعرفية.. علّقت على ذلك بقولها (الغريب أن التغريبيين رافعي لواء العلمانية هم المتطرفون حقًا، الأكثر إمعانًا في التمسك بطرفهم الأقصى، وتفريده ورفض البدائل، وهم الأكثر إصرارًا على إقصاء الآخر، يبلغ هذا التطرف ذروة تجليه حين يرفعون «القطيعة المعرفية» توصيفًا لمسار ثقافتنا المأمول **وذلكم هو المستحيل، سواء بحكم الآليات النظرية لثقافتنا أو بحكم واقعها المعين**[(٢)].

ويتميز مالك بن نبي بأنه حرص على تأكيد أن ثمة طريقًا ثالثًا للنهضة غير الطريقين الرأسمالي والاشتراكي.. والإيمان بأن الإسلام قوة روحية محركة للتغيير والدعوة إلى استعادة هذا الدفع واستحضار مناخات البناء الإسلامي الأول كطريق لعودة المسلمين اليوم إلى حلبة الحضارة[(٣)].

---

(١) نفسه ص ١٥٨/١٥٩ وقياسًا على ما فعله كرومر في مصر، ذكر بن نبي أن سياسة التعليم الفرنسي كانت تقوم على اختيار الصفوة، والحرص على أن تتشرّب الثقافة الفرنسية لتكون امتدادًا للمستعمر!

(٢) (في حديثها مع محرر الأهرام) بتاريخ ٣ مارس سنة ٢٠٢٣م.

وأرجعت فكرة القطيعة المعرفية إلى ما جاستون الفرنسي (١٨٨٢- ١٩٥٢م).

(٣) نفسه ص ٢٨٧ ويصف الدكتور علي القريشي هذا المنهج (بالسلفية). وأنه كان رائدًا لقضية (أسلمة العلوم الاجتماعية) ص ٩/ ١٠ وأنه كان من طلائع المفكرين حيث عاش هموم أمته، وأسهم فكريًا في بحث معضلاتها، وقدّم بذلك جهدًا تنويريًا رائدًا ص١١ .

- **ثالثًا**: لقد اعتمد الاستعمار الجديد على سلاح الغزو الفكري الذي يستهدف تدمير العقيدة، ومسخ الثقافة، وتفكيك الشخصية الإسلامية، وإفراغها من محتواها، وتحويلها إلى أداة لخدمة المصالح الأساسية للمراكز الإمبريالية في الغرب وبخاصّة أمريكا(١).

يقول الشيخ محمد الغزالي (.. **والاستعمار الثقافي** ملحّ في محو شرائعنا وشراعنا، يعينه كتّاب مرتدون، أو مبغضون لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ)(٢).

ويرى الإمام أبو الحسن الندوي أن الغزو الثقافي والسياسي أحدث في العهد الأخير ردّة اكتسحت عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه، وهي أعظم ردّة في تاريخ الإسلام، منذ عهد الرسول ﷺ إلى يومنا هذا)(٣).

واستطاع الاستعمار بغزوه الفكري العاتي أن يُحدث انشطارًا بين المسلمين، فهناك طرف يمثّل (الإسلاميون)، بينما طرفها الآخر هم (المثقفون)(٤).

يقول وولتر أرمبرست (أنكر الكثير من أصدقائي المصريين من أمثال فريد مدرس الرياضيات ونبيل طالب الطب أن صفوة المثقفين المصريين يعيشون في سياق عالمي؛ حيث يمثل إتقان اللغات الأجنبية دلالة مهمة على التثقيف والوعي والعلم، لم يكن إنكارهم هذا مدفوعًا بكراهيتهم لدراسة اللغات الأجنبية، بل كان نبيل بالذات يدافع عن ضرورة تملك ممتهني الطب لبعض الكفاءة في اللغات الأجنبية لتستطيع مصر اللحاق بآخر التطورات في علام الطب. ومع ذلك فإن التحدّث باللغات الأجنبية، وخاصة الإنجليزية، التي تمثل اللغة الأجنبية الأولى في نظام

---

(١) د/ عماد الدين خليل (في التأصيل الإسلامي للتاريخ) ص ٢٠٩ دار الفرقان -عمان الأردن ١٩٩٧م.

(٢) محمد الغزالي (مشكلات في طريق الصحوة الإسلامية) ص ١١ ط٢ دار الشروق ١٤٠٣هـ -سنة ١٩٨٣م.

(٣) أبو الحسن الندوي (ردّة ولا أبا بكر لها) ص ١ ط المختار الإسلامي سنة ١٩٧٤م.

(٤) محمد قدوس (الإسلاميون خارج النخبة. أمة بين ثقافتين وجمهور يبحث عن جماعة) ص ١٠٤ مجلة - المنار الجديد- رمضان سنة ١٤١٨هـ -يناير سنة ١٩٩٨م.

التعليم المصري، بالنسبة لهم عملاً يدل على الغطرسة أكثر من أي شيء آخر. فقد قال فريد إن الإنجليزية للعلم فقط وليس لأي شيء آخر. فقد كان تصورهما هو أن المصريين الذين يتحدثون الإنجليزية قد يمثلون صفوة اقتصادية أو اجتماعية ولكنهم لا يمثلون صفوة ثقافية على الإطلاق)[١].

ويصف الدكتور عبد العزيز حمودة المنهج التغريبي في بلادنا العربية والإسلامية -من حيث طرق التفكير والدراسة والبحث- يصفه بأنه **الآفة العظمى والخطر الأكبر على تراثنا الإسلامي**[٢].

وفي نص آخر يصوِّر هذا المسلك بأنه انبهار بالعقل الغربي. . والدعوة إلى القطيعة مع الماضي، وتعمّد الغموض والإبهام والمراوغة. . إلى جانب التباهي بعمق المعرفة، ثم الانتماء الأكيد إلى نخبة اختارت عن وعي عدم مخاطبة الجماهير أو القارئ العادي)[٣].

ويقول أستاذنا الدكتور محمد علي أبو ريان -رحمه الله تعالى- (فدعاة التغريب الذين يتصدرون لتيارات الثقافة الإسلامية ولشعوب الإسلام بصفة عامة والدين، يريدون منها أن تلحق بركاب الغرب[٤]، إنما يقصدون من وراء ذلك أن يتخلّوا

---

(١) وولتر أرمبرست (الثقافة الجماهيرية، والحداثة في مصر) ص ١٧٣/ ١٧٤ ترجمة محمد الشرقاوي -الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠١٢م.

(٢) د/ عبد العزيز حمودة (المرايا المحدّبة -من البنيوية إلى التفكيك) ص ٦٤ عالم المعرفة بالكويت ذو الحجة ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

(٣) د/ عبد العزيز حمودة (المرايا المقعرة) ص ٩٨ عالم المعرفة بالكويت جمادى الأولى سنة ١٤٢٢هـ - اغسطس سنة ٢٠٠١م.

(٤) وكان من آثار عدوى التغريب فئات ثلاث:

١- إلحادية ترى بناء حياتها مرتبطًا باللادينية.

٢- إباحية ترى في الإسلام حاجزًا دون إباحيتها ولا تريد قيودًا على انطلاقها.

٣- تتوهم أنّها بثقافتها فوق مستوى الدين، لأن الدين أصبح من مخلفات القرون الوسطى (حسب التصوّر الكنسي) أ - محمد عبد الله السمان (أين نحن من الإسلام؟) ص ٧٨ سلسلة الثقافة الإسلامية (٣٦) المحرم ١٣٨١هـ - يوليو سنة ١٩٦٢م.

عن عقائدهم تمامًا وعن تقاليدهم، وأفكارهم المستمدة من الدين والتراث.. ويريدون أن ينسلخ المسلمون من حضارتهم ومن ذاتيتهم)[1].

رابعًا: تنفيذ قرار مؤتمر (بانرمان):

أصبح الهدف الثابت للاستعمار الغربي هو **إجهاض أية حركة نهضة في بلاد المسلمين**، ووضع العراقيل في طريق الصحوة الإسلامية حتى يومنا هذا!

فقد اجتمع مؤتمر (بانرمان) لبحث تجنّب الحضارة الأوروبية ما حدث لإمبراطوريات العالم.. ومما ورد بتقرير لجنته أن الخطر الذي يهدد الاستعمار الأوروبي إنّما يكمن في منطقة البحر الأبيض المتوسط ووصف الأمة التي تعيش فيها **(بأنها أمة تتوفر فيها كل مقومات التجمع والترابط والالتئام، أي وحدة الثقافة، ووحدة اللغة، ووحدة الدين، ووحدة الآمال)**[2].

هذا، ولم يضيّع ساسة الغرب ومستشرقوه الوقت بل شمروا عن سواعد الجد، وأخذوا عن طريق التغريب تمزيق كيان الأمة سياسيًا وجغرافيًا، ثم انتهوا إلى التمزيق الثقافي وهو الأدهى والأمرّ، وكان الشيخ محمود شاكر سباقًا في التحذير من تمزيق (الثقافة المتكاملة للأمة الإسلامية)[3]، وهو أحد الثمار المرة للتغريب!! وعلى مراحل، أجمعت دول أوروبا على غزو العالم الإسلامي، ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقعت أحداث دامية في العالم الإسلامي في وسط آسيا غزا الروس طشقند وسمرقند سنة ١٨٦٨ وأخضعوا إمارة بخارى.. وجاءت الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨) بأهوالها وأخطارها وأزماتها الحربية والسياسية فتنوسيت أصوات المستغيثين بالدولة العثمانية. وفي إفريقيا بسطت فرنسا حمايتها على تونس سنة ١٨٨١ واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ وفي سنة

---

(١) د/ محمد علي أبو ريان (الإسلام السياسي في الميزان) ص ١٦٢ ط دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٧م.

(٢) عبد الفتاح عبد المقصود (صليبية إلى الأبد) ص ٤١ الدار القومية بالقاهرة العدد ٤٨٩ سبتمبر سنة ١٩٩١م.

(٣) محمود شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) كتاب الهلال العدد ٤٨٩ سبتمبر ١٩٩١م.

١٨٩١ أعلنت ألمانيا حمايتها على دار السلام. واستفاضت الأنباء عن الأساليب الوحشية التي تعامل بها الروس والدول البلقانية المسلمين من رعاياها، واختلطت هذه الأنباء بقصص أخرى على شاكلتها من الاضطهاد الذي يتعرض له المسلمون في بلاد القرم والهند والجزائر وتونس(١)، وما زالت روح التعصّب والكراهية عند دول الغرب ضد الإسلام والمسلمين حتى عصرنا هذا، وظهرت بصورة بشعة جداً بالجرائم التي ارتكبها الصرب(٢).

ثم ظل الاستعمار حريصًا بالتخطيط المدروس لإضعاف العالم الإسلامي، وإبعاده عن مقوماته الإسلامية ومنع أية محاولة لجمع شمل المسلمين مرة أخرى.

وهذا ما تنطق به الوثائق السرية الاستعمارية منها، فقد جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطانية (أورمبي غو) لرئيس حكومته بتاريخ ٩/ ١/ ١٩٣٨ ما يلي:

إن الحرب علّمتنا أن الموجة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية وحدها، بل فرنسا أيضًا، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة.

ولسعادتنا فإن كمال أتاتورك، لم يضع تركيا في مسار قومي علماني فقط، بل أدخل إصلاحات بعيدة الأثر، أدّت بالفعل إلى نقض معالم تركيا الإسلامية(٣).

ولا بد إذن أن نستعيد في الذاكرة حتى نستكمل رؤيتنا الصحيحة لواقعنا المعاصر، نستعيد تاريخ الحملات الصليبية الثمانية التي تعاقبت على الشرق الإسلامي، وكانت تمثل سلسلة طويلة في صراع الإسلام والباطل بحيث يمكن

(١) د/ عبد العزيز الشناوي (الدولة العثمانية -دولة إسلامية مفترى عليها) جـ٣ ص ٤٣/ ٤٤ باختصار مكتبة الأنجلو المصرية سنة ٢٠٠٤م.

(٢) وظهر أثناءها خيانات جنود الأمم المتحدة الذين كانوا بمدينة «جورازادا» حيث تركوا العصابات الصربية المجرمة تدفن أكثر من ثمانية آلاف مدني مسلم أحياءً وتردم عليه التراب بالجرافات تحت مرأى ومسمع جنود الأمم المتحدة الهولنديين المسيحيين المكلفين بأمر المدينة! وقد استقالت الحكومة الهولندية مؤخراً بعد نشر أخبار هذه الجرائم التي فضحت إنسانية الغرب.
د/ زغلول النجار (الإسلام والغرب في كتابات الغربيين) ص ١٢٣ ط ٥ نهضة مصر أكتوبر سنة ٢٠٠٧م.

(٣) د/ محمود حمدي زقزوق (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الفكري) ص ١٢٨/ ١٢٩،

القول بأن **(الغزو الصليبي ليس أمراً طارئاً، ولا ظاهرة غريبة أو استثنائية وإنما هو القاعدة وغيره الاستثناء)**[1].

ويتضح مما سبق أن الغزو الصليبي والاستعمار الغربي وجهان لعملة واحدة، ولكن إمعانًا في خداع العالم الإسلامي، روّجت أجهزة الإعلام الجهنمية التابعة للغرب، روّجت **أسطورة تصفية الاستعمار**؛ حيث استُجد ما أُطلق عليه اسم **(الاستعمار الجديد)**، ويتمثّل في تنصيب أنظمة طيّعة له، تنوب عنه في تنفيذ أغراضه، دون الاضطرار للنزول بالجيوش لاحتلال المستعمرات كدأب الاستعمار القديم![2].

ويقول اللواء أحمد عبد الوهاب **(التغريب حرب صليبية مستعرة الأوار، مجهودها الرئيسي موجّه إلى تنصير العالم وخاصة العالم الإسلامي**، وما يستتبع ذلك من عواقب خطيرة، أبسطها طمس الهوية وخلق مسخ من البشر بعد تدمير كيانها العقائدي والفكري، وتبديل نظم حياتها وأنماط سلوكها)[3].

وترى الدكتورة زينب عبد العزيز أن **التغريب إنما هو توطئة وتمهيد للتنصير**، مستندة إلى أن من الوقائع المسلّم بها في جميع المراجع التاريخية الموضوعية، أن عملية التنصير قد حلّت محل الحروب الصليبية بعد فشلها في القضاء على الإسلام -تلك الحروب التي بدأت تحت شعار (الحج المسلح) إلى الأراضي المقدسة لحمايتها، ثم سرعان بعد ما كشف وجهها الآخر: السياسي الاقتصادي- الاستعماري[4].

---

(١) جاسم مهلهل الياسين (الدولة الإسلامية بين الواجب والممكن) ص ٣٤٢ ط شروق - المنصورة ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧.

(٢) جاسم مهلهل الياسين (الدولة الإسلامية بين الواجب والممكن) ص ٣٤٢ ط شروق -المنصورة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

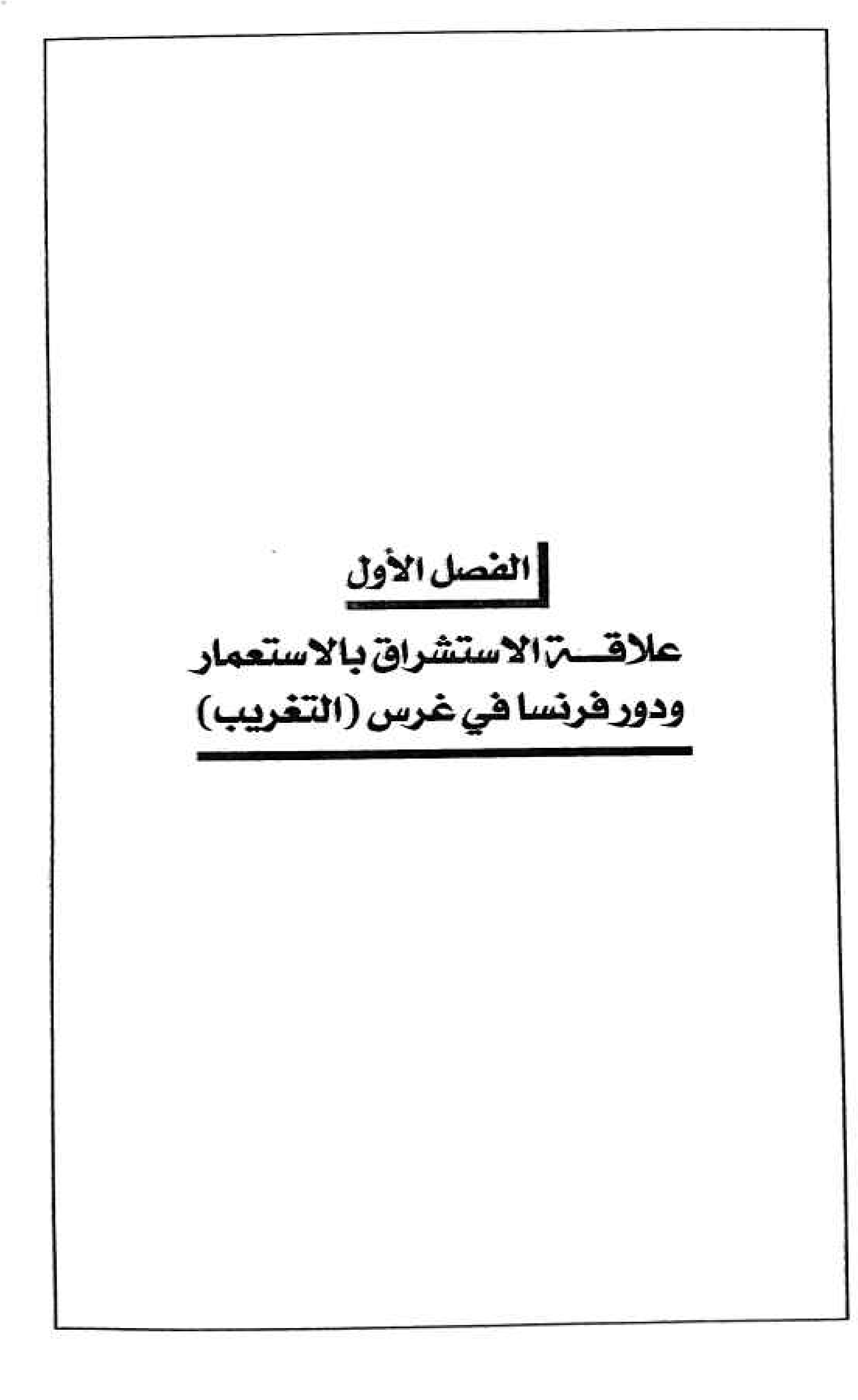
(٣) لواء أحمد عبد الوهاب (التغريب طوفان من الغرب) ص ١٤ مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة ١٤١١هـ- ١٩٩٠م

(٤)د/ زينب عبد العزيز -أستاذ الحضارة بجامعة المنوفية -كتاب (تنصير العالم -مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس (الثاني) ص ٩٦ ط دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

والتبشير يقوم فعلاً بدور الشريك الكامل للإمبريالية الغربية واقتلاع الحضارات- تعد الأداة التي تتم بها عملية التغريب -فالإمبريالية هي ذلك الوجه القبيح الغاشم لتغريب العالم على حد قول شـرج لاتوش في كتابة المعنون «تغريب العالم» الذي يوضح فيـه كيف انتصبت فـرق المبشرين إلى جـانب التجار والعـسكريين لتكتسح العالم الثالث، وساهموا في أسطورة سيطرة الغرب لتبدأ أمركة العالم.

وكيف أن عملية التغريب هذه لم تكتف بأن تكون عـملية تنصيرية- وأن أغلبية مشـاريع التنمية في العـالم الثالث تتم بشكل مبـاشر أو غيـر مباشر تحت عـلامة الصليب.. ولقد تغيـرت مسميات مهمـة التبشير على مر العـصور وفقًا للظروف السياسية والاجتماعية.. وفي مطلع القرن العشرين أصبحت تحت عنوان (المعايشة) -واللجوء إلى (الحوار) لتـتم عملية التنصير بأقل قدر من المقـاومة.. أو على حد قول أوليفـييه كليمون (إن هذا الحـوار - التبشير عـبارة عن عملية تغليف مـذهبية عصرية لحياة قديمة كانوا يفرضونها قهرًا على الشعوب فيما مضى)[1].

(١) نفسه ص ٩٧ .



الفصل الأول

علاقة الاستشراق بالاستعمار ودور فرنسا في غرس (التغريب)

يكاد يتفق أغلب الدارسين أن هـناك علاقة بين الاستـشراق والاستعـمار، وأن الأول كان طليـعة للثـاني؛ لأنه مهّد له الـطريق بدراسة عقـائد العرب وعـاداتها وتاريخهـا وبيان مكان القوة والضعف فـيها. وقد قـدّم لنا المهندس إبراهيم خليل أحمد، الدليل على ذلك بكتابه **(الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية)**.

ويستدل على ذلك بأن نابليون قبل غزوه لمصر أعدّ العدة حيث تجمعت بين يديه مصادر علمية وتاريخية هائلة، وكـان أكثر النفوذ عليه هو (راينال) بكتابه التاريخي الفلسفي، حيث ذكر في إحدى فـقراته رأي الإسكندر الذي نقل عاصمة ملكه إلى مصر على أن يجـعلها مركزًا تجاريًا عـالميًا لتجارة الأمم.. بالإضافـة إلى مؤلفات رفيق نابليـون الحميم (فولني) الذي قدّم له مـشروع امتلاك مـصر.. وعند دخول مصر اصطحب معه بعثة علمية لدراسة البيئة المصرية وأحوال البلاد ووضع التقارير اللازمة لتمكين الاستعمار الفرنسي من توطيد دعائم احتلاله للبلاد[1].

ويقرّر الدكتـور زقزوق أن الحركة الاستشـراقية حركة فكرية هائلة، ومـا تنتجه يخصّنـا ويخصّ عقيـدتنا ولغتنا وتراثـنا وتاريخنا وذاتيتنا، وكـثيـر من الدراسات الاستشراقية تهدف بطريق مباشـر أو غير مباشر في طمس معالم هويتنا والتشكيك في عقائدنا وتراثنا[2]، ونرى أن من أسلحة تلك المعـركة هو التغريب، ولفـرنسا

---

(١) إبراهيم خليل أحمـد (الاستشراق والتـبشير وصلتـهما بالإمبـريالية العالميـــة) ص ٣٤ ط مكتـبة الوعي العربي ١٩٧٣م.

وقد علّق على ذلك بـقوله (إن كتّـاب الغرب من المقدرة والكفـاية والجدّية بما يجعـلهم جديرين بتوجيـه السّاسـة والرؤساء إلى ترسّم سياساتهم والعمـل بها) ص ٨٦، أي أن المـتشـرقين كانوا بمثابة جـواسيـس لدولهم!

(٢) د/ محمـد حمدي زقزوق (الاستـشراق والخلفية الفكرية للصـراع الحضاري) ص ص ١٦٠- ١٧٠ هدية مجلة (الأزهر) شهر جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ وقد عرض لدور الاستشراق في التحذير من خطورة القرآن الكريم على العالم الغـربي، وأن المسلمين إذا عرفوا كتـابهم حق المعرفة وطبقـوه تطبيقًا تامًـا، فلن تقوم للاستعمار القديم والجديد قائمة في بلاد المسلمين. =

نصيب الأسد في استخدامه عن طريق البعثات التي تفد إليها وفق المشروع المسمّى بمشروع «نابليون» كما سنرى.

ويتضح من تاريخ فرنسا الاستعماري أن صبغته الاستعمارية أكثر ضراوة من غيره من صنوف الاستعمار، وهي لا تخفي كراهيتها للإسلام والمسلمين علنًا بدليل الصور المسيئة للرسول ﷺ والإصرار على استمرارها.

ويعلّل الأستاذ إبراهيم خليل أحمد قيام المبشرين والمستعمرين بالسخرية برسول الله ﷺ وطعنهم في القرآن الكريم، يعلّله بقوله (ليخففوا عن أنفسهم آلام هزائمهم أمام المسلمين في الحروب الصليبية، وقد بلغ من حقدهم في عداوتهم للإسلام قيام كنيسة روماني سنة ١٥٣٠م بإحراق نسخة من القرآن الكريم في مدينة البندقية.. وكان المستشرقون يمهدون لأعمالهم بمقدمة وتذييلات لتفنيد القرآن الكريم.. **والقرآن بإعجازه كالجبل الراسخ لا يعبأ بترّهاتهم ولا تنال من حقائقه أكاذيبهم**)(١).

ويعنينا بيان صحة هذا التعليل؛ لأن صاحبه له خبرة بحكم واقع الحياة التي عاشها قبل إسلامه، كذلك يجعلنا أكثر فهمًا للتصريحات المعادية الأخيرة للرئيس الفرنسي الذي يتجاهل عمداً التاريخ الاستعماري المتّسم بعار الوحشية واللاإنسانية؛ إذ كان ضحاياه ملايين المسلمين في الجزائر وتونس والمغرب وسوريا ولبنان(٢) الذين تعرّضوا للإبادة!!

= ثم علق قائلاً (ومن هنا نعرف سبب هلع الغرب وفزعه الذي لا حد له عندما يشعر بوجود تيار إسلامي في أي مكان من العالم الإسلامي، أو ما يعرف الآن بالصحوة الإسلامية، التي تعني -لو احسن ترشيدها- عودة هذا القرآن الخطير الذي يزرع العزة في قلوب أبنائه، ويرفض أن يكونوا أذلاء لأعدائهم، وهذا يعني أيضًا انطلاق المارد من سجنه ليثبت وجوده مرة أخرى، ويشارك بفاعلية في تقرير مصير العالم، الأمر الذي يرى فيه الغرب تهديداً لمصالحه في الشرق الإسلامي) ص ١٢٥ .

(١) إبراهيم خليل أحمد (الاستشراق والتبشير..) ص ١٦٧/١٦٨ مصدر سابق.

(٢) د/ حامد ربيع (قراءة في فكر علماء الإستراتيجية -كيف تفكر إسرائيل؟) ص ٧٩ ط دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

وكذلك الإصرار على الدفاع عن الصور المسيئة للرسول ﷺ، والتضييق على المسلمين وإغلاق بعض مساجدهم بفرنسا عداءً وحقداً وبلا مبرّر؛ إذ يتضح التمييز العنصري الفج بالموازنة مع تعاملهم مع اليهود؛ حيث قدّمت (جارودي) للمحاكمة طبقًا لقانون (جايو-فابيوني) بتهمة معاداة السامية بسبب كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) عام ١٩٩٨م!

هذا الموقف المزري دفع بالدكتور حامد ربيع -رحمه الله تعالى- أن يعلّق عليه قائلاً (يُقدّم «جارودي» للمحاكمة أين؟ في فرنسا التي يتشدّق فيها كل مثقف بأنها أم الديمقراطية، وبها حرية الكلمة، ولكن ليس هناك من عجب، حيث نقرأ في مذكرات «شارل ديجول» وهو يقول (لم أكن أعرف أن فرنسا أصبحت يهودية؟!)[(١)].

من حجج الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب (الدكتور حامد ربيع نموذجًا):

وعن التأريخ للثورة الفرنسية وما نجم عنها من أوضاع في أوروبا يبدأ الدكتور حامد ربيع -عالم السياسة المخضرم- بشرح الثورة الفكرية للإسلام الذي مكّن المجتمع العربي رغم فطرته وبدائيته أن يصبح قدرة خلاّقة قادرة على أن تزلزل جميع الإمبراطوريات المحيطة به، بل وإذا بأهل تلك الإمبراطورية يقبلون طواعية على الدخول في تعاليم الدعوة الجديدة، **لتحقق أكبر معجزة في تاريخ الإنسانية**. ثم بعثت الثورة الفكرية الإسلامية، والتي حملتها الحركة العربية قرابة اثني عشر قرنًا من التطور، مجموعة من التقلبات لم تكن إلا تعبيراً عن فشل الإنسانية في فهمها لحقيقة الوظيفة الحضارية، ثم تبعت ذلك الثورة الفرنسية، ويعترف عمالقة الفكر الأوربي بأن هذه الثورة الفرنسية **قدّمت باليمين وأخذت باليسار**، إنها باسم حضارة عصر النهضة وتقديس العقل والحرية، خلقت مجموعة جديدة من الأصنام، فأعادت عبادة الدولة وأطلقت مفاهيم الانتماء إلى الحضارة اليونانية، وانتهت بأن

(١) د/ حامد ربيع (قراءة في فكر علماء الاستراتيجية -كيف تفكر إسرائيل؟ ص ٧٩ ط دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

تعمّق فلسفة التعصب العنصري باسم -الحرية والإخاء والمساواة- فالحرية حق الأوروبي والمساواة داخل المجتمع القومي، وما عدا ذلك لا موضع له في قيم الممارسة السياسية. . **إن المفاهيم الإسلامية تطرقت إلى الغرب من خلال مسالك** متعددة، بعضها مباشر وبعض غير مباشر، القديس (توما الأكويني)، تعلّم على يد (ألبرتوس الكبير) الذي درس في صقلية ونقل إلى الفيلسوف الإيطالي فلسفة كل من ابن سينا وابن رشد.

وظلت جامعة باريس تدرس كتب ابن سينا وابن رشد حتى أصاب البابا الكاثوليكي نوع من الهلع فأصدر قراراً بمنعه تدريس الفلاسفة المسلمين في جامعة باريس، فكانت نتيجة ذلك هجرة جماعية للأساتذة والطلبة إلى جامعة تولوز على حدود إسبانيا حتى يستطيع هؤلاء العلماء أن يظلوا على تعاملهم مع تلك النصوص الإسلامية. ويقول الدكتور حامد ربيع (**إن حضارة أمّتي هي التي علمت العالم الأوروبي معنى الوظيفة الحضارية**. ولكن مأساة المجتمع الأوروبي الحقيقية هي أنه في تعامله مع تراث آبائي لم يعرف كيف يستقبل تعاليم أمتي. . العقل الأوروبي أعجب بالعقل العربي وجرّده من إطاره الديني وطوّر إمكانية قبول ذلك القسط العقلي بدون قيمه ومثالياته[1]. . إن الثورة الوحيدة التي عرفتها الإنسانية كدفعة حقيقية نحو الارتقاء الفكري، هي الدعوة الإسلامية). . **إن قصة العظمة الإنسانية يجب أن نعيد كتابتها من منطلقات جديدة..)**[2].

---

(١) أي استبعد عقيدة الإسلام وشريعته ومبادئه الخلقية الراقية وعلى رأسها (العدل).

(٢) د/ حامد ربيع (قراءة في فكر علماء الإستراتيجية)ص ٥٤، ٥٦ باختصار ط دار الوفاء بالمنصورة. ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م .

وهو يعبّر كنموذج عن حضارة الإسلام. ويضيف نموذجاً آخر يعبّر عنه الدكتور مراد هوفمان؛ إذ سرد حديث الرسول ﷺ عن ضرورة الاستئذان للدخول ثم قال (وهذا مثل واحد فقط من الأمثلة العديدة الدالة على كيفية تحول سنّة نبي الإسلام ﷺ إلى اسلوب حياة أمة بأسرها. وكنت كلما توغلت في دراسة مجموعة الأحاديث الصحيحة -وخاصة تلك التي جمعها البخاري ومسلم- تفتحت عيناي على حقائق سوسيولوجية جديدة، واكتشفت ما للإسلام من رصيد ثقافي) -كتابه (يوميات ألماني مسلم) ص ٦٣/ ٦٤ ترجمة د/ عباس العماري ط مركز الأهرام ١٤١٤هـ-١٩٨٣م.

= إن سجلها الاستعماري بالجزائر -كمثال- حافل بالمجازر في أبشع الصور بضراوته ووحشيته كما رواه شهود العيان الصادقون مثل د/ مراد هوفمان الذي روى لنا وقائع يشيب لها الولدان، ولولا ثقتنا بصدقه وأمانته في النقل لما صدقنا تلك الجرائم المروعة والفظائع التي تلحق بفرنسا العار الأبدي، ودعنا من التعامل مع الجزائريين بالتعالي والعنصرية، البغيضة وهي نفسها التي عامل بها الألمان الشعب الفرنسي عندما اجتاحوا بلادهم في ساعات بعد هزيمة ساحقة حيث أذلهم جيش هتلر وأذاقهم العذاب الأليم!! وانهارت فرنسا في يوم وليلة!

وفيما يلي نص شهادة الدكتور مراد هوفمان:

كتب في مذكراته تحت عنوان (وجدت الحل) الجزائر في ٢٨ مايو سنة ١٩٦٢م: عندما كنت أعمل ملحقًا بالقنصلية الألمانية العامة في العاصمة الجزائرية شهدت مشاهد مروعة للجريمة والرعب خلال الشهور التسعة الماضية. إذ لا تكاد تمر ليلة واحدة بدون انفجارات قنابل البلاستيك التي كان يصل عددها في بعض الليالي إلى مائة انفجار أو أكثر.

ومر شهر بعد الآخر، وقد سقط في العاصمة الجزائرية وحدها نحو ألف شخص بالرصاص الذي كان يطلق معظمه من مسافات قريبة للغاية، كانت جبهة التحرير الوطني تقاتل فرنسا من أجل تحقيق استقلال الجزائر،

وكان المستوطنون الفرنسيون والإسبان في الجزائر المستعمرة -والذين يطلق عليهم اسم «الأقلام السوداء» - يحاربون هم أيضًا الجزائريين حيث كانوا يحاولون الإبقاء على البلاد تحت السيادة الفرنسية بأي ثمن، وكان جيشهم السري -المعروف باسم «منظمة الجيش السري»- هو الذي يتولى إرسال شاحنات البنزين المشتعلة إلى الأحياء الجزائرية واصطياد الرجال الجزائريين كما لو كانوا أرانب.

ومن شقتي في حي «البيار» استطعت أن أشاهد بقايا (أطلال) إحدى القرى الجبلية بعد أن هاجمتها القوات الفرنسية بقنابل النابالم، وعندما توجهت إلى مستشفى «مصطفى» للبحث عن مرضى ألمان، رأيت ضحايا جددًا يتدفقون عليه بمعدل واحد كل عشرين دقيقة، وكانت الإصابة واحدة بالنسبة للجميع، طلقة رصاص في الرأس، وفي معظم الأحيان من الخلف.

والآن وبعد أن عقدت الهدنة واحترمتها كل من فرنسا وجبهة التحرير الوطني الجزائرية بعد أن تحدد تاريخ استقلال الجزائر، فإن منظمة الجيش السري والتي ضمت في صفوفها العديد من الفارين من الفيالق الألمانية تبذل جهدًا محمومًا من خلال تصديها لأعمال الرعب لدفع الجزائريين للرد عليها، ومن ثم خرق الهدنة مع فرنسا، وتأجيل موعد الاستقلال، ربما لأجل غير مسمى. وتنفيذًا لهذه الخطة الجهنمية بدأ الكوماندوز التابعون لمنظمة الجيش السري عمليات تصفية الشباب الجزائري المثقف في الجامعات، وكذلك قتل النساء الجزائريات الذاهبات للسوق، واللائي كان من المحظور المساس بهن حتى ذلك الحين.

وفي اليوم التالي عندما عاد أطفال جيراننا وقد جحظت عيونهم رعبًا من الفظائع التي شاهدوها ترتكب مع الجزائريين، خففت أمهم من روعهم بقولها.. إنهم ليسوا سوى عرب!!!.

وطوال هذه الفترة التي ظللت فيها مسلحًا دائمًا بمسدس جاهز للإطلاق (خوفًا على نفسه) ويقول: ..بحثت مرارًا عن ذلك السر (الذي مكّن هؤلاء الجزائريين الملتزمين من احتمال كل هذا الاحتقار، وسوء المعاملة والعقاب.. وأخيرًا وجدت مفتاح هذا السر وأنا أعود لقراءة الآية ١٥٣ من سورة البقرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

-د/ مراد هوفمان (يوميات ألماني مسلم) ص ٣١/ ٣٢ مصدر سابق.

دور فرنسا في التغريب:

كان نابليون يقرّب اثنين من المستشرقين، أحدهما (فانتور) الذي شارك في الحملة الفرنسية، والثاني (جومار) شديد الاهتمام بكل ما يخص مصر، فلما رأى نجاح «القناصل» في إغراء محمد علي بإرسال البعثات إلى أوروبا، أسرع يحث «الاستشراق» الفرنسي وقناصله في مصر على إغراء محمد علي بإرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا، ليجعلها تحت إشرافه، ولينفذ مشروع «نابليون» الذي بينّه لخليفته «كليبر» في رسالته إليه.. ولكن «جومار» طوّر هذا المشروع تطويراً كبيراً بعد خمسة وعشرين سنة من رحيل الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١م ليكون حزبًا لفرنسا في مصر أخطر من حزب نابليون السابق اقتراحه؛ إذ كانت خطة «جومار» هو إيفاد بعثات إلى فرنسا من الشباب الغض يبقون في فرنسا سنوات تطول أو تقصر وهم أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزبًا لفرنسا، وعلى مرّ الأيام يكبرون ويتولّون المناصب صغيرها وكبيرها، ويكون أثرهم أشد تأثيراً في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر. هكذا طوّر جومار مشروع نابليون الذي لم يستطع «كليبر» أن يحققه وهلك دونه[1].

وكان هؤلاء الشبّان صغاراً، ليس في عقولهم ولا قلوبهم إلا القليل الذي لا يغني عن «الثقافة المتكاملة» التي عاشت فيها أمتهم قرونًا متطاولة، إنهم يعودون بعد سنوات قلائل ويتولون مناصب. وهنا يبدي الشيخ شاكر تعجّبه الشديد فيقول (وهذا شيء غريب جداً أن يكون هؤلاء الشبان قد حازوا في سنوات قلائل من العلوم والفنون التي شابت تواصي العلماء في سبيلها، ما يؤهلهم للتدريس والصناعات وجلائل الأمور. شيء غريب جداً!! وهم قبل سفرهم لم يحصّلوا من هذه العلوم والفنون الجديدة، شيئًا يُذكر، أليست هذه الدعوى غريبة كل الغرابة؟!)[2].

(١) محمود محمد شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص ١٤٠/١٤١ مكتبة الخانجي بالقاهرة ط٢ ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

(٢) نفسه ص ١٤١/١٤٢ .

وكان من أولئك الشباب (رفاعة رافع الطهطاوي)، الذي عُين واعظًا وإمامًا في أحد ألوية جيش محمد علي. . بلغ الثالثة والعشرين من عمره، ولا يمكن أن يكون قد بلغ مبلغًا له شأن يذكر في «الثقافة المتكاملة». أي **«الجامعة من علوم الدين وعلوم الحضارة»** التي عاشت فيها أمته ثلاثة عشر قرنًا في حضارة متكاملة متراحبة مترامية الأطراف، متباينة الدّرجات، متنوّعة العلوم، **قد بلغت في العظمة والجلالة مبلغًا لم تدركه قبلها أمة من الأمم**.

وتلقّفه «المسو جومار» بعد أن عرف بخبرته وحنكته وتجربته وبصره النافذ أنه صيد ثمين، حيث رآه مقبلاً بأقصى عزيمته على تعلّم اللغة الفرنسية معجبًا بها وبأهلها كل الإعجاب، فأخذه وأسلمه لطائفة من «المستشرقين» يصاحبونه ويوجهونه، وعلى رأسهم دهاقين «الاستشراق» الكبار ودهاته، وهو المستشرق المشهور البارون -**سلفستر دي ساسي**-. . فاستغلّوه أبرع استغلال، وصبوا في أذنيه، وطرحوا في قلبه معاني وأفكارًا قد بيّتوها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمرتها حين تنمو في دخيلة نفسه ومنها دعوته لاستعمال العامية بدل العربية الفصحى[(١)].

الاستشراق هو صاحب فكرة (مدرسة الألسن) المنسوبة للطهطاوي:

وقصة إنشاء «مدرسة الألسن» سنة ١٨٣٦هـ (أي بعد عودته بخمس سنوات) ليست من فكر رفاعة الطهطاوي ولا من بنات عبقريته، ولكنها ثمرة من ثمار «الاستشراق» ودهاته **(الذين احتضنوه وربّوه وغذوه ونشأوه مدة إقامته في باريز)**[(٢)].

وقد حرص الشيخ شاكر على الإقرار بما قام به رفاعة خلال السّت سنوات في باريس من سنة ١٢٤١-١٢٤٦هـ (١٨٢٦-١٨٣١م)؛ حيث قضى ثلاث سنوات

---

(١) مثال ذلك ما ضمّه كتابه (أنوار الجليل في أخبار مصر وتوفيق بن إسماعيل) من الدعوة إلى استعمال العامية (التي يقع بها التفاهم في المعاملات السائرة، ولا مانع أن تكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها، وأصول على حسب الإمكان تربطها، ليتعارفوا أهل الإقليم؛ حيث نفعها بالنسبة لهم عميم، ونصنف فيها كتب المنافع العمومية، والمصالح البلدية)!

(٢) نفسه ص ١٤٤ .

منهـا في تعلّم اللغـة الفرنسـية كـما قـال هو بلسـانه، وفي الثلاث الأخـر درس التاريخ، والجغرافيا والفلسفة، والآداب الفرنسـية، وقرأ مؤلفات فولتير وجان جاك روسّو، ومنتسكيو، وقرأ بعض الكتب في المعادن، وفنّ العسكرية، والرياضيات.

ولكنه في الوقت نفسه بحث جدوى تلك الدراسـة وقال (فحدّثني بربك كيف تكون دراسة هذه المتنوعات في ثلاث سنوات، إلا أن يكون ذلك كلّه خطفًا كحسو الطائر، وأن يكون ما ألّفـه الرفاعي سطوًا مجردًا على كتب كُـتبت في هذه العلوم المختلفة المتـباينة، والله أعلم ما فيهـا من الزلل والخطأ وسوء الفهم. **ولكن رفاعة الطهطاوي على ذلك كله إمـام جـاء يُخرج مـصر وأهلهـا من الظلمـات إلى النور!! يا للعجب!)** وهذا ما يتوهّمه المتغرّبون ويرددونه الواحد تلو الآخر بلا دراية أو دراسة وفق منهج علمي كما فعل الشيخ شاكر! ويستطرد قائلاً:

(ولكن هذا الرجل الطيب يُحـمّل من العبقـرية في إنشاء «مدرسـة الألسن» ما حُمّل محمد علي، **الجاهل الذي لم يتعلم قط**، من العبقرية في الاهتداء إلى إرسال **«البعثـات العلمية»** إلى أوربة وفرنسا خاصة وقـد أخذت الطابع الفرنسي في عرض البرامج التـعليميـة ونشطت عمليات التـرجمة من الفرنسـية إلى العربيـة في شتى المجالات وكادت تعمم.. إنها حقًا كما وصفها محمد زارع (مؤامرة التغريب)(١).

وحقيقة الأمر أن محمد علي استعان بخبراء من فرنسا في تنظيم الجيش وإنشاء الطرق والكباري وشق التـرع وغيرها من المشروعـات كي يسهل عليه التمـركز في البلاد.. وباعتماده على الخبراء الفرنسيين أصبح لفرنسا نفوذًا قويًا في مصر وكأنها تابعة لها.

ومما يدعّم هذا الاستنتـاج قول وزير الخارجيـة الفرنسـية (نحن مبتهـجون لأننا نشهد مولد ونمو دولة خليقة بالتعـاون، ولها ما لنا من اهتمامات بازدهارها بمنطقة

---

(١) جورج كـيرك (موجز تاريخ الشـرق الأوسط) نقلاً عن محـمد زارع (القطعان المستأنسة) ص ١١٤ دار النصر للطباعة الإسلامية ١٩٩٢م -شبرا بالقاهرة تحت عنوان (محمد علي.. ومؤامرة التغريب).

البحر المتوسط. وسنكون دائمًا على استعداد لأن نقدم للباشا في المستقبل من دلائل الصداقة والمودة ما لقيه في الماضي من الحكومة الفرنسية)[١].

ولكن اتضح - وفق معلومات كتاب حديث عن محمد علي- اتضح أن هذا الباشا كان الأسبق في انجذابه لفرنسا، كما دأب على السير على خطى نابليون![٢].

مخاطر الحضارة الغربية على المسلمين:

لم يتنبه المثقفون المتغربون ببلادنا إلى التأثير الخبيث المستشري لحضارة التكنولوجيا الغربية، وانتشار عدواها.

وهذا ما عرفه عن تجربة الدكتور مراد هوفمان بحكم معايشته للمجتمعات الأوروبية وآثارها على العقيدة الدينية والأخلاق، وبعد إسلامه حرص على الامتثال لشعائره، وأبدى استنكاره لبعض المسلمين هناك ووصفهم بـ (المحدثين)، حيث قال أحدهم (حقًا، إني لا أمارس الشعائر الإسلامية، ولكني مؤمن بالله من أعماق قلبي. إن إيماني الطبيعي هنا أفضل من الصلاة خمس مرات يوميًا)!! فأقام عليه الحجة بقوله (إن الإسلام التسليم لله تعالى ?يعني أيضًا ضمنًا الالتزام بصراطه، وتعليماته وقوانينه)[٣]. وكان حريصًا دائمًا على الاحتفاظ بسجادة الصلاة في حقيبته، ومن الأدلة على استيعابه الكامل للإسلام قوله: (ينبغي على المسلم أن يعي حقيقة أن الله (سبحانه وتعالى) هو خالق كل شيء ومدبّر كل شيء، ومع ذلك عليه ألا يتردّد في أن يكون حلقة في رابطة السببية إلى إيمان جاره. ويجب عليه دائمًا أن يصلي صلاة مودّع، وفي الوقت نفسه عليه أن يتدبّر ويعمل كأنه سيعيش خمسين عامًا أخرى!)[٤].

---

(١) جورج كيرك (موجز تاريخ الشرق الأوسط) نقلاً عن محمد زارع (القطعان المستأنسة) ص ١١٤ .

(٢) جيلبرت سينويه (الفرعون الأخير محمد علي) ص ١٠ -ترجمة عبد السلام المودي ط منشورات الجمل - بغداد وبيروت سنة ٢٠١٢م والمؤلف فرنسي الجنسية.

(٣) د/ مراد هوفمان (يوميات ألماني مسلم) ص ٨١ ترجمة د/ عباس العماري مركز الأهرام ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

(٤) نفسه ص ١٦٨ .

وبدراسة مقارنة، وبحكم ثقافته ودراساته المتشعّبة (الماجستير من جامعة هارفارد، والدكتوراه من جامعة ميونيخ)، استطاع أن يصدر حكمه على طبيعة الحضارة الغربية ومقارنتها بحضارة الإسلام وشريعته التي تحرّم شرب الكحول، وقد التزم بذلك عقب إسلامه، وصرّح بقوله (وبالنسبة لي فإن هذه الظاهرة (أي منع التدخين والاتخام بالطعام)، برمّتها تمثل دليلاً جديدًا على أن **نمط الحياة الإسلامي متفق مع طبيعة الإنسان كما أرادها الله تعالى**، وأن الإسلام هو الحل الأمثل لمشكلات اليوم الصحية)(١).

ووفق المنهج المقارن-فضلاً عن تجربته الشخصية عقب إسلامه- استنبط هذا الحكم الصائب. أي أن للمجتمع الصناعي الغربي تأثيرًا سامًا على جميع الأديان، بما في ذلك دينه هو نفسه، من خلال نشره لقيم مؤسسة على فروض مادية محضة. إن الفكر النفعي، وتحقيق أقصى ربح، وعبادة زيادة الإنتاج بشكل مستمر، وأسطورة التقدم اللانهائي، وغطرسة علماء العلوم الطبيعية الذي تحولوا إلى فلاسفة،واستشراء مذهب اللاأدرية وتحييد القيم الأخلاقية لدى المتعلمين، كل ذلك يحدد التوجه الغربي الكامل نحو إضفاء طابع عقلاني على كل مظاهر الحياة **مما يشكّل عدوانًا على الأديان**. . إن المجتمع التكنوقراطي الذي يعيش فيه الغرب، بعبادته للفرد وتأسيس أخلاقياته على مبدأ (دعه يعمل، دعه يمر)، مبدأ يوجه في الحقيقة التدمير الشامل للأسس الأخلاقية التي ينمو عليها هذا المجتمع ذاته، أي القيم وأنماط السلوك المتجذرّة في إيمان أجدادنا بالله تعالى(٢).

وعلى صفحات أخرى من كتابه يعرض لنتائج الكحول والنيكوتين ولحم الخنزير على الغربيين، **ويخص بالذكر الخمر ودورها في انحطاط الصحة العامة.. والمخاطر الأمنية في العمل والطريق، وتبديد الموارد الاقتصادية**. . وبالرغم من أن معظم الساسة يدركون النتائج الخطيرة لها على المجتمع، ولكنهم يفتقرون إلى العزم الضروري اللازم لمحاربة **أفيون الشعوب**.

---

(١) نفسه ص ١٦٨ .

(٢) نفسه ص ٨٠ وهكذا وصف الخمر بأنها (أفيون الشعوب).

وبلفتة بارعة إلى النمـوذج المضاد، يبدي إعجابه باستـجابة الصحابة رضي الله عنهم لتحريم الخـمر، رغم أن ذلك كان حملاً جسيـمًا يناقض الشائع لديهم- إلا أنهم أراقوا فورًا ما لديهم من نبيذ البلح على الأرض في المدينة عند سماعهم لآية التحريم بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، في تفسير الإمام السعدي قال (فإن الفلاح، لا يتم إلا بترك ما حرّم الله،... وأنها تصد القلب، وتبعد البدن عن ذكر الله وعن الصلاة اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته)[١].

(١) تفسير السعدي ص ٢٢١ / ٢٢٢ باختصار ط مكتبة الصفا بالأزهر ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

الفصل الثاني

دور الغزو الإعلامي في تغيير الثقافات وتغريب العالم

يقول سيرج لاتوش في كتابه (تغريب العالم)[1]: يتحقق آخر صورة من صور الغزو الثقافي في مجال عرض الغزو الإعلامي الواسع في إفريقيا؛ إذ إن البث المباشر باللغات الأجنبية هو من أخطر الأسلحة لتوجيه الرأي العام، وهو يوظف الكلمات والصور في صناعة العقل والفكر على مختلف مستويات الحياة في هذه المجتمعات، وهو مؤثر فعال في تغيير الثقافات واللغات وأساليب التواصل بين المواطنين، ومنظومة القيم والسلوك التي تحكم حياة البشر خاصة **الأجيال الجديدة من الطفولة والشباب**.

وتوجد دراسات متخصصة في مجالات الإعلام والاتصال والثقافة تتحدث عن هذه الجوانب، وهي صادرة عن منظمات إقليمية ودولية عديدة، بالإضافة إلى مؤلفات وكتابات باللغة العربية وغيرها من اللغات الأخرى.

خلاصة القول في العصر الحاضر: **الحرب أولها كلام وآخرها كلام وصور**.

ويراها بهذه الصورة أشد فتكًا من غيرها من الحروب، بل إن الحرب الكيميائية وحرب الجراثيم وحرب النجوم لا تعادلها في خطورة جرائمها: فباسم الفن والبث التليفزيوني الحامل للقاذورات والسموم في قنوات متخصصة من عري فاضح، وزنى علني، وشذوذ جنسي، وجرائم قتل واغتصاب، كلها تريد دفع شبابنا دفعًا للتقليد الأعمى والغرق في المياه الآسنة للاتصالات الجنسية المحرّمة، فيصبح عبدًا للشهوات، مبددًا للقوى، فلا ينهض لعمل منتج، ولا يثور لكرامة، ولا يتحرك لصد معتدٍ أثيم.

ويُلاحظ أن روافد أو خطط الغزو الثقافي في الوقت الحاضر تصب في بئر واحد هو التغريب، فما هو؟ وما هي آخر تطوراته؟

---

(١) ينظر تحليل مضمونه ص رقم ٥٢ وما بعدها.

التغريب:

التغـريب كما يعرفـه الدكتور مـحمد حسين رحـمه الله تعالى (يُقـصد به طبع العرب والمسلمين والشرقيين عامة بطابع الحضارة الغربية والثقافة الغربية؛ مما يساعد على إيجاد روابط من الود والتفاهم).

ويضيف شرحًا لعمليات التلاعب بالاصطلاحـات (وهذا الذي نسمّيه الاستعباد الغربي (تغريبًا) هو ما يسمـيه سماسرة ذلك الاستعـباد وصنائعه (تطويرًا) وهو ما يعنونه حين يتكلمون عن بناء المجتمع من جـديد، ثم يحذرنا من الانسياق وراءهم ماضين في الهدم (لا يرضيهم إلا أن يأتوا على بنيـاننا من القواعد، بما يتضمنه من دين وتقاليد وفنون وآداب ولكنهم سوف يعجزون عن البناء **سيهدمون مـجتمعنا ثم يتركـونه وسط أنقـاض نظامه القـديم في فوضى لا سكن فـيهـا ولا قرار**. وبوادر هذه الفوضى وأعراضها ظاهرة لكل ذي عينين؛ لأن المجتمعات لا تبنى في يوم وليلة، ولكنها في مئـات السنين، ولا تبنى في صحف منتشرة أو قاعات مـغلقة، ولكنها عملية مـعقدة أشد التعقـيد تتفاعل فيهـا قوى المجتمع كله، ويستمـر هذا التفاعل أجيالاً تتمخض عن هذه القواعد وهذه الأشكال، بما تتضمنه من التقاليد والقوانين وأساليب الذوق والتفكير[1].

ولشرح آخـر مراحل التغـريب والقفزات الهـائلة التي قفزهـا حتى وصلنا إلى واقعنا الحاضـر؛ فإن ذلك يتطلب عرضًا مـوجزًا لكتاب (**تغريب العـالم**)[2] الذي يصور لنا آخر مراحل الغزو الثقافي، محدداً وظائف أجهزته، وجنسياتها وأهدافها في تشكيل رغـبات وحاجـات المستهلكين وأشكال سلوكـهم وعقليـاتهم.. يقول مؤلفه:

(ينطلق فـيض ثقافي بمعنى فـريد من بلدان المركز ويجـتاح الكرة الأرضـية.. تتدفق صور، كلمات، قيم أخلاقية، قواعد قـانونية، اصطلاحات سياسية، معايير

(١) د/ محمد حسين (حصوننا مهددة من داخلها) ص ٢٢٨ .

(٢) تغريب العالم، سيرج لاتوش، تعريب خليل كلفت. ط دار العالم الثالث بالقاهرة ١٩٩٢م.

كفاءة، من الوحدات المبدعة على بلـدان العالم الثالث من خلال وسائل الإعلام. صحف، إذاعـات، تليفزيونات أفلام، كـتب، أسطوانات، فيديو، دش) ويتـركز الجانب الأكـبر من الإنتـاج العالمي للعـلامات في الشـمال، أو يصنع في مـعامل يسيطر عليها حسب معاييره ومواصفاته.

ولنلاحظ اعتراف المؤلف للحيوية الطاغية للمجتمعات العالمية المتطورة التي تحقق كل إبداع ثقافي لدى الأسرى السلبيين للرسائل.

تحليل مضمون كتاب (تغريب العالم):

(**تغريب العالم**): صدر حديثًا كتاب بهذا العنوان وسنعرض الأفكار التي عالجها الكتاب؛ لأنه يتضـمن آخر التطورات التي تفتقت عنهـا أذهان المخططين للتغريب منذ الحروب الصليبية كهدف رئيسي لها.

إنه يرى أن أروع مـا حققه الاسـتـعمار هو مـهـزلة تصفيـة الاسـتعمار، لقـد انتقل البيض إلى الكواليس، لكنهم لا يزالون مخرجي العرض المسرحي.. أي ما زالت بلادنا تخضع لاستعمار خفي!

ويقصد أحيانًا بالتغريب (الاستـعمار) وسيادة الرجل الأبيض؛ فإن الهدف من الاستعمار ظل ثابتًا، أي التبشير وغزو الأسواق والتزود بالمواد الأولية والبحث عن أراضٍ جديدة والحاجة إلى الأيدي العاملة.

ويستثني المؤلف اليابان من سـيطرة الرجل الأبيض فيقول (**يشكل النجاح الأكيد لليـابان، الذي خلّص آسـيـا من أسطورة الرجل الأبـيض، تحديًـا رهيبًـا لتـفـوق العـرق الأبيض**)[1].

والكتاب بمحتواه ربما يكون أحد أدوات الحرب النفسية؛ إذ يعرض لخطط سحق القوى التي تقاوم حضـارة الرجل الأبيض؛ ولهذا يهدف إلى بث اليأس في قلوب

(١) وكنّا الأسبق في هذا التحدي خلال عصر الخلافة العثمانية الذي امتد نحو ستة قرون!

سكان العالم الثالث -ونحن منهم- بإقناعنا بأن العالم تغرّب ولا فائدة من المقاومة.

ولكنه في الوقت نفسه يلقي الضوء على الطريق إلى مستقبل أفضل؛ حيث ينقل عن غيره من الباحثين حركات نهوض الحضارات المضطهدة ضد حضارة الرجل الأبيض، ويرى أن الصراع سيكون طويلاً ومرعبًا.

وباستخدام عناصر الإمبريالية الثلاثة: (العسكريون، التجار، المستشرقون) وضع الغرب يده على الكرة الأرضية نهائيًا؛ ففي سنة ١٨٠٠ ميلادية كانت أوروبا تسيطر نظريًا على ٥٥٪ من الكرة الأرضية وتستغل فعليًا ٣٥٪ من مساحتها، تحققت الأحلام التي صاحبت تاريخ الغرب **(يحلم نابليون بأن يحذو حذو الإسكندر فيزحف على مصر، وباستيلائه على مدينة الجزائر يستأنف شارل العاشر الحرب الصليبية).**

أي كأنه استأنف مهمة شارل العاشر.

ويحدثنا عن آخر ما وصلت إليه مراحل الغزو الثقافي فيقول تحديداً:

(ينطلق فيض ثقافي بمعنى فريد من بلدان المركز ويجتاح الكرة الأرضية).

وسوق المعلومات شبه احتكار لأربع وكالات: أسوشيتد برس ويونايتد برس (الولايات المتحدة) رويتر (بريطانيا) فرانس برس (فرنسا). ويتدفق ٦٥٪ من المعلومات العالمية من الولايات المتحدة.

وهذا الفيض من المعلومات لا يمكنه إلا أن (يشكّل) رغبات وحاجات المستهلكين، أشكال سلوكهم، عقلياتهم، مناهج تعليمهم، أنماط حياتهم).

وتحت عنوان **(تحت راية الصليب)** يتساءل المؤلف: هل يمكننا أن نستوعب الغرب في كيان ديني؟ ويجيب: في كثير من الأحيان يقترن الغرب بنعت المسيحي وأن الهداية بالسيف والإيمان أساس التوسع الغربي (ولكنه يقرر الواقع فيرى أن حالات

دخول الإسلام أكثر عدداً بكثير في الوقت الحاضر من حالات التنصير وتبدو أكثر صلابة).

كذلك فإن العالم المسيحي الغربي الكاثوليكي دعّم حقًا توسعة الموجة الأولى وحتى الثانية من الاستعمار.

وبعد مقارنات بين اتجاهي التبشير البروتستانتي والتبشير الكاثوليكي يقرر أن **الظاهرة التبشيرية حقيقة أكيدة من حقائق الغرب.**

ويقول مؤلف الكتاب بمناسبة النشاط الإحساني والعقلاني إنه ليس سوى مظهر، ومظهر جذاب للغرب، ثم يعلن رأيه بصراحة (لكنني أعتقد أن الغرب يُمثل في ذلك أيضًا، وحتى في الوقت الحاضر، ينشأ الجانب الأكبر من مشروعات التنمية كقاعدة في العالم الثالث، على نحو مباشر، **تحت راية الصليب.**

ويشرح **(الخصوصية الغربية)**؛ إذ يرى أن الغرب ليس مجرد كيان ديني، أو أخلاقي، أو عرقي، أو حتى اقتصادي، إن الغرب كوحدة تركيبية من هذه التجليات المتباينة كيان (ثقافي) وظاهرة حضارية.

ويرى ضرورة الاتفاق على معنى الألفاظ، ومنها لفظ(Cultre ثقافة، حضارة... إلخ).

وينتقل بنا إلى تفاصيل كثيرة، ويعرّفنا باصطلاحات وتعريفات عن أنواع الثقافة، ثم يأتي إلى أهم ما يثير الفزع والرعب من هذه الحضارة عندما نراه يشرح بصراحة لا لبس فيها أنه **(بمحو ثقافة شعوب العالم الثالث ويحولها التغريب على هذا النحو إلى جماهير أمّية. وتغدو تلك الثقافة إجراءً من أجل مستهلكين سلبيين غرباء على ثقافتهم الخاصة).**

ولعل الطريقة السحرية في محو ثقافة العالم الثالث تكمن في عملية التنمية؛ إذ ربما لأول مرة يعرف أن الثقافة في هذه الحالة ليست بُعداً من أبعاد التنمية، بل إن

التنميـة هي التي تغدو بالعكس بُعـدًا من أبعاد (**الثقـافة الغـربية الوحـيدة**). **أي أن** التنمية بالإصلاح الاقتصادي تصبح ضرورية للتبعية الثقافية.

ويوافق المؤلف على تعريف الحضارة بأنها:

(الطريقـة التي نولد بهـا، ونحيـا، ونحب، ونتـزوج، ونفـكر، ونؤمن، ونضحك، ونتغذى، ونلبس، ونبني منازلنا، وننظم حقولنا، ويتصرف بعضنا إزاء بعضنا الآخر).

وعن نظرة الغرب لـلحياة الدنيـا، يحدد المؤلف أولوية هذه الحـياة (والواقع أن الغرب، عندمـا تفك سحـر العالم، **يجعل من الحياة الدنيوية القـيمـة الأولى** بلا منازع، وعندمـا لا يعود المرء يجد الخلود أمامـه، تغدو الحياة نضـالاً قلقًـا ضد الزمن).

وقرّر المؤلف أننا -معشر المسلمين- **الأسبق في التمدين؛ إذ كـانت بغداد والقاهرة مدنًا ضخمة** عندما لم تكن لندن وباريس سوى بلدتين ونيويورك غابة عذراء.

ويرى أن أروع نجاحات التغـريب في انتشار أدوات السلطة، مستدلاً على ذلك بما لاحظه كاستور ياديسي بفطنة ثاقـبة عن تقنيات السلطة، أي تقنيات **الخبل الجماعي** (هناك مكبـر صوت في جمـيع القرى يبث خطاب الزعـيم، هناك تليفـزيون يقدم نفس الأخـبار... إلخ. وتنتـشر هذه التـقنيات بسـرعة النار في الـهشيـم، وقد اجتاحت الأرض بأسرها:

وسرعان ما انتشر ذلك في كل مكان، **إن أي أونباشي في أي بلد من بلدان العالم الثالث** يحسن اسـتخدام سيـارات الجيب، والرشاشـات، والبشر، والتليـفزيون، والخطب وكلمات (الاشتراكية) والديمقراطية والثورة وكل هذا، **قمنا نحن بمنحه لهم وتلقينه إياهم بسخاء بالغ**).

أي أنها مجـرد شعارات ولافتات خـادعة قد تخفي الواقع المخـالف لها تمامًا،

وربما لا يسمح الغرب إلا في نطاق ضيق (المكون الآخر من مكونات المجتمع الغربي، أي قيم التحرر، الديمقراطية، البحث الحر، الاستقصاء الحر) . . . إلخ .

ويرى أن الطريق المختصر لنشر الحضارة وتحويلها إلى العالمية هو استخدام الشرطة والجيش فيقول (وإذا كان للحضارة أن تختزل إلى الشرطة والجيش، فإن العالمية متحققة إذن منذ الآن) .

ويستخدم المؤلف ألفاظ: التقدم والتنوير والتحديث كمرادفات، ويعرف الحداثة بأنها (مشروع شامل يفسح للاقتصاد مجالاً واسعًا، في حين أن التنمية ليست فقط سياسة اقتصادية، بل هي أيضًا إصلاح للمجتمع بأسره) .

وفي سباق التنمية بين بلدان العالم الثالث يعزز من جديد السعي الإلزامي وراء لحاق مستحيل (بالغرب) في سياق محاكاة معممة .

ويقول: (أما وعد الغرب، الوعد بالثروة والرخاء، فيغدو من الناحية الفعلية: الفقر واجتثاث الجذور، والإقصاء وليس هذا بصفة انتقالية، بل بصفة نهائية تزداد تأكيداً على الدوام) .

ويمضي فيقرر أن نتائج سير عمل الغرب الفعلي في سباق عملية تغريب العالم وبأية وسائل يتحقق هذا الاجتثاث للجذور على مستوى الكرة الأرضية .

ويصبح ما هو مطروح على سكان العالم الثالث عند إحلال هويتهم الثقافية المفقودة يتمثل في هوية قومية مجردة وإنشاء زائف إلى جماعة عالمية .

ويغدو إنسان (الجنوب) مُغربًا بحكم تطلعاته وإحالته وكثافة ضغط المدينة وأنماط استهلاك المركز على حياته اليومية .

وتحت عنوان (محور الحدود الإقليمية) والتحول القومي الثقافي يبدأ بمقدمة يسجل فيها السذاجة البالغة لنص الميثاق الذي يعلن أن الشركات المتعددة الجنسية لا يجوز لها أن تتدخل في الشئون الداخلية للبلدان التي تعمل فيها .

وشرح سذاجة هذه المقولة يقتضي تسجيل حقيقة هذه الشركات عبر القومية التي تخضع لمنطق الربح أكثر من السعي وراء السلطة، ولكنها في الواقع تزعزع بلا

تعمد السلطات القائمة وتخلق على نحو خبيث علاقات ولاء جديدة لحسابها الخاص.. وتم إحلال أجهزة إدارية محل المؤسسات السياسية وبذلك تفرغ الدولة من جوهرها.

وفيما يتعلق بالثقافة فإن الأمر يبدو أكثر تعقيداً؛ إذ تتجلي دفعة واحدة (إمبريالية) ثقافة غربية وبالأخص أنجلو سكسونية، كذلك تُصنع ثقافة باستخدام وسائل إعلام (صحف، كتب، أسطوانات، كاسيتات، إذاعات، أفلام، تليفزيون) يشبه احتكار لبلدان الشمال، وتجري عملية غزو ثقافي للجنوب من جانب الشمال، وداخل الشمال من الولايات المتحدة نحو البلدان الأخرى (ومنها فرنسا).

ونحو ما يسميه المؤلف (العوامل المباشرة) التي تتجاوز (النزعة القومية)، تشكل التدفقات الإعلامية بواسطة الأقمار الصناعية للاتصالات البعيدة وتقنية معالجة المعلومات بالكمبيوتر - تشكّل رغبات وحاجات وأشكال سلوك وعقليات ونظم تعليم وأنماط حياة المتقبلين، وينتج عنها فقدان الهوية الثقافية المؤكدة، كما يسهم في زعزعة الهوية القومية سياسيًا واقتصاديًا، وحتى ما يتبقى من الإبداعية (القومية) يجد نفسه في حالة تبعية إزاء ثقافة أجنبية.

ويصف أحوال هذا الواقع بقوله (بفضل أروع وسائل النشر الممكنة، يجري اليوم نشر ثقافة يمكن القول عنها في أفضل الأحوال إنها غياب للثقافة وتم إنتاجها عشوائيًا).

وبعد الانتهاء من عرض موضوع التغريب بتفصيلاته يأتي المؤلف في نهاية المطاف فيلقي بهواجسه؛ إذ يخشى على حضارة الغرب من الانهيار؛ لأنه يرى في نجاحها المتواصل في أعمال التغريب دليل على بقائها كقطب أوحد، أما إذا اعترضتها مقاومة (الآخر) من دول العالم الثالث فإن هذا يشكل عنده الخطر ببدء تدهور هذه الحضارة.

وتتضح مخاوفه بالذات مما سماه بحركات الهوية الأصولية الإسلامية مثالها الراهن الأكثر نموذجية، فهو يكتب (والحقيقة أن حركات الهوية التي تعبر عنها الأصولية الإسلامية، مأخوذة ككل، مثالها الراهن الأكثر نموذجية أكثر تعقيدًا).

ذلك أن الصعود المذهل لهذا التيار لا ينبغي أن يخفي ظواهر أخرى من نفس الطراز، مثل التطرف البرهماني في الهند أو مختلف مطالب الهوية مثل صعود النزعة الإقليمية (حتى في البلدان العجوزة في أوروبا، وجميع هذه الحركات أحدثها إخفاق التحديث، وتنتج عن تشويهات ناشئة عن هذا الإخفاق. ذلك أن الجماهير العربية التي يؤثر فيها الإخوان المسلمون والحركات الشيعية في الوقت الراهن، **كانت ناصرية أو بعثية منذ عشرين سنة، أي أنها عقدت آمالها آنذاك على التحديث وآمنت بتواليف ممكنة بين التراث العربي والحداثة. ويسمح بعضها الراهن بتقدير مدى فداحة خيبة أملها)**.

ولكنه تجاهل التاريخ الصحيح للأمة الإسلامية بإنكاره أن المجتمعات العربية لم تجعل من الدين في يوم من الأيام مبدأها الوحيد لتحقيق الهوية الاجتماعية.

وبالرغم من إطلاقه اسم العصر الذهبي للإمبراطوريات العربية الكبرى ولكنه يصفه بالفساد والهرطقة والزندقة.

ويُزوِّر التاريخ بقوله (ولم تكن الشريعة الإسلامية في يوم من الأيام القانون المدني)، منكراً أنها ظلت حاكمة لنحو ثلاثة عشر قرناً.

وبإشفاقه على عملية التغريب بسبب العائق الديني -وهو الإسلام- وما يسميه (الرابطة الدينية المجردة، ويخص بالذكر الممارسات الدينية الشعبية كالمرابطين)، ثم يضع العالمية الغربية في مواجهة مع عالمية عنيفة وارتدادية تمامًا، وينبه إلى أن معاداة الغرب لدى هذا التيار معلنة أكثر مما هي عميقة، ولكنه يعترف بأنه يؤدي وظيفة تدميرية على التغريب ويكتب: (ويمكننا أن نقرأ هذه الأعراض لسقوط

---

(١) ويكشف لنا الدكتور زغلول النجار عن غرض آخر أكثر خبثًا من (تغريب المسلمين) ألا وهو (تنصير مسلمي العالم) فيقول (والأصل في النشاط الكنسي الراهن محاولة تنصير مسلمي العالم، وقد عقدت في الغرب عشرات المؤتمرات من أجل ذلك، ومن أشهرها مؤتمر كلورادو سنة ١٩٧٨ الذي جُمع فيه ألف مليون دولار من أجل تنصير مسلمي العالم، وأسس خلاله معهد للقيام بهذه المهمة القذرة اسمه (معهد صموئيل زويمر) من أجل تنصير مسلمي العالم في كاليفورنيا). كتابه بعنوان (الإسلام والغرب في كتابات الغربيين) ص ٢٤٩ ط٥ نهضة مصر أكتوبر سنة ٢٠٠٧م.

التغريب، على نحو سلبي تمامًا، على أنها الدليل على الإخفاق الكلي للحضارة؛ **لأنه لا يمكن أن تكون هناك حضارة أخرى سوى الغرب**)[1]، وبذلك الإصرار الواضح، يؤكد تصميم الاستعمار على هذا الهدف، وقد مرّ بنا أيضًا تصريح وزير المستعمرات البريطانية الذي حرّض فيه على الاستمرار في محاربة الموجة الإسلامية ووصفها (**بالخطر الأعظم**)! وهو ما يفسّر لنا إجهاض الغرب لأية محاولة لإعادة الوحدة إلى الأمة الإسلامية الممتدة من عهد النبوة إلى عصر الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م.

هذا، وقد تمكّن الاستعمار الثقافي من تزييف التاريخ في أذهان الجيل المعاصر، وحشوها بكل ما هو منفّر من الخلافة العثمانية حتى لا تقوم لها قائمة من جديد، بينما يسجّل لها التاريخ الصحيح الكثير من المآثر، منها:

١- الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية.

٢- استمرار الفتوحات الإسلامية داخل الغرب ذاته وفي أوروبا الشرقية وقوة جيش الدولة وعظمة قوادها وشجاعة محاربيها، وقدراتها الإدارية والتنظيمية لهذه الرقعة الفسيحة من المترامية الأطراف.

٣- الاستمرار في تحدي الغرب الصليبي والوقوف أمام أطماع الاستعمار.

٤- الحفاظ على فلسطين قلب الأمة الإسلامية ورفض بيعها أو استيطان الصهيونية فيها.

٥- الحفاظ على أطراف العالم الإسلامي في إندونيسيا والملايو والفلبين والهند وإفريقيا، وربطه بعاصمة الخلافة إستانبول قبل أن تتآكل الأطراف بعد القضاء على المركز.

٦- الحفاظ على التراث الإسلامي تدوينًا وتسجيلاً وفهرسة وتبويبًا، حتى أصبحت دولة الخلافة بعد انهيارها -مع الهند- مركزًا للإشعاع الحضاري الإسلامي[1].

---

(١) محمد زارع (القطعان المستأنسة) ص ٨٣ دار النصر للطباعة الإسلامية ١٩٩٢م.

وكان لأتاتورك الدور البارز -بعد محمد علي باشا- في غرس الأسفين التغريبي في قلب الأمة الإسلامية، حيث وضع تركيا في مسار علماني بتغيير قانون الميراث والزواج وإلغاء التعليم الديني واللغة العربية، مع نشر موجة الفساد وإباحة شرب الخمر(١).. ثم سرت عدوى حركة أتاتورك في الدول العربية والإسلامية سريان النار في الهشيم(٢).

ونكتفي بدليل واحد يكشف عن مدى عداء أتاتورك للإسلام وشريعته، وخلافته العريقة، ألا وهو إلغاء منصب شيخ الإسلام.

وقد استمد الدكتور عبد العزيز الشناوي مادته العلمية في إيضاح مدى الدور الذي كان يؤديه شيخ الإسلام في إستانبول، استمدها من كتاب باحث إنجليزي أصدره عام ١٦٨٦م وقد منحته الحكومة الإنجليزية لقب سير Sir حيث أفرد هذا الباحث حيزًا كبيرًا من كتابه للحديث عن شيخ الإسلام في الدولة العثمانية وعلو شأنه واتساع اختصاصاته واهتمام السلطان العثماني باسترضائه وتنفيذ ما يشير به شيخ الإسلام على السلطان.. فقال: إن شيخ الإسلام كان هو الرئيس الفعلي للخلافة الإسلامية، وهو يتمتع باحترام وتقدير عميقين من لدن جميع العثمانيين. والسلطان دون سواه هو الذي يقوم بتعيينه، ويختاره رجلاً ضليعًا في علوم الشريعة وأصول الدين، معروفًا بفضائله، مشهورًا باستقامة سلوكه. وإذا أصدر شيخ الإسلام رأيًا أو بيانًا فلا يستطيع السلطان بأي حال أن يعترض على ما جاء في ثنايا هذا الرأي أو ما تضمنه هذا البيان.

---

(١) د/ فهمي الشناوي (مصرع الخلافة العثمانية) ص ١١١ ط المختار الإسلامي ١٩٩٥م.

(٢) جان لاكوتير (عبد الناصر) ط دار النهار للنشر -بيروت ١٩٧١م. يقول جان لاكوتير الكاتب الفرنسي (أتاتورك الملحد بنى دولته أنقاض دولة رجال الدين) ص ٢٤٣ ويذكر أن عبد الناصر أصبح يميل - إن لم يكن علمانية الكمالية (مصطفى كمال)-إلى نصف العلمانية البورقيبية ص ١٢٩ .. وعندما سئل هل يستطيع أن يحقق ما حققه بورقيبة في حقل العلمانية، أجاب ناصر (كم أود لو أستطيع ان انجز ما أنجزه بورقيبة، لكن لا تنسى أن العقبات التي واجهها هو في تونس هي أخف من التي تعترض طريقي هنا في مصر، قلب الإسلام، ومركز الأزهر) ص ٢٤٣.

ومع ذلك فقد كان حريصًا على إسكات الصوت الإسلامي بجميع السبل، فقد أوقف مجلة (الهدي النبوي) التي كانت تصدرها جماعة دعوة الحق الإسلامية منذ عام ١٣٥٦هـ.

والسلطان يطلب دائمًا رأي شيخ الإسلام سواء عند إعلان الحرب أو عقد الصلح أو عند مواجهة جميع المسائل الأخرى ذات الخطر على الإمبراطورية.. مع حرص السلطان الدائم على استصدار الفتاوى التي يقرّر فيها شيخ الإسلام أنها متماشية مع مبادئ الشريعة(١).

وعند اتساع دائرة التغريب يقول الدكتور محمد علي أبو ريان (وتحقق لدعاة التغريب هدفهم في اندثار (معالم الشخصية الإسلامية، وأصبحنا نعاني من هذا الأمر البغيض الذي هو أبشع أنواع الاستعمار الحديث)(٢).

ولكنه يذكر أيضًا أن الحركة الإسلامية انبعثت ووقفت بقوة وصلابة لتحمي شبابنا ومجتمعنا الإسلامي من الشرور التي يصدرها إلينا دهاقنة الغرب.. وعلى هذا الدرب سار زعماء حركة الإحياء من المسلمين المعاصرين أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ومحمد إقبال وغيرهم(٣).

وهكذا أصبحت المعركة سجالاً بين الطرفين(٤).

هل تغربت مجتمعاتنا وتخلت عن هويتها؟!

يرد هذا السؤال على الذهن عقب استيعاب مضمون كتاب (تغريب العالم).. لقد نبّه أذهاننا على حقائق كانت خافية علينا؛ إذ ترك الاستعمار الغربي في بلادنا خلفاء له لإتمام مشروعه الرامي لخلق التبعية الشاملة له بعد سحب جيوشه

(١) د/ عبد العزيز الشناوي (الدولة العثمانية -دولة إسلامية مفترى عليها) ص ٣٢٥/٣٢٦ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ٢٠١٠م.

(٢) د/ محمد علي أبو ريان (الإسلام في مواجهة تيارات الفكر الغربي المعاصر) ط دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٨٥م.

(٣) نفسه صفحة (هـ)

(٤) وظهرت هذه المعركة على أشدها أثناء فترة الانتخابات بتركيا في شهر مايو سنة ٢٠٢٣م بين حزبي العدالة والشعب الذي صرّح رئيسه علنًا بأن هدفه وخطته اتباع الغرب والسير على طريقه !ومما يلفت الانتباه أن تلك الانتخابات كان لها صدًى واسعًا في أرجاء البلاد العربية والإسلامية؛ إذ كشف التيار التغريبي عن وجهه من خلال بعض القنوات الفضائية!

وعساكره، وبعد تربية أجيال بمفاهيم وعادات غربية، وتمكين أتباعه من الأجهزة ذات الأثر الأكبر في المجتمعات كالتعليم والإعلام ودور الصحافة والإذاعة المسموعة والمرئية.. وهكذا انتشرت ظاهرة التغريب في بلادنا ثقافيًا واجتماعيًا في السلوك وارتداء الملابس كما شملت أيضًا الاحتفالات كأعياد الميلاد والزواج وغيرها!

ولكن الأدهى والأمرّ، ما لفت انتباه الإمام الندوي (**فقد مضى علينا قرن كامل وأوروبا تغتصب شبابنا وعقولنا وتنبت في عقولنا الشك والنفاق وعدم الثقة بالحقائق الإيمانية والغيبية والإيمان بالفلسفات الجديدة الاقتصادية والسياسية**) وله الحق؛ حيث ذكر مؤلف كتاب (تغريب العالم) أن الغرب يجعل من الحياة الدنيوية القيمة الأولى بلا منازع[1].

هذا، وقد وصف الأستاذ إبراهيم بيدون المجتمع المغربي في الواقع والصبغة العلمانية التي طغت عليه، وهو يصلح كنموذج لسائر مجتمعاتنا في بلادنا العربية والإسلامية مع بعض الاختلافات طبقًا لمدى نفوذ التيار التغريبي بها قوةً أو ضعفًا، ولكن قد عمّت البلوى، ولله المشتكى[2].

ويشاركه في الرأي الدكتور عبد الصبور شاهين[3]؛ إذ يقرر أن الثورة الاشتراكية في الوطن العربي كانت سببًا في التوسع الكبير في إنشاء الملاهي والمسارح ودور السينما، كما شهدت إسرافًا كبيرًا في إنشاء معاهد الرقص، والموسيقى والتمثيل للصغار والكبار، وطفت على سطح المجتمع نماذج من الفنانين والفنانات، صاروا محور الأخبار الصحفية، وجنّدت وسائل الإعلام لتضخيم وجودهم وتتبع

(١) إبراهيم بيدون (الإكراه على علمنة المجتمع المغربي وقيمه الإسلامية) ص ٨٧ مجلة (البيان) جمادى الأولى سنة ١٤٣٣هـ -أبريل سنة ٢٠١٢م.

(٢) إبراهيم بيدون (الإكراه على علمنة المجتمع المغربي وقيمه الإسلامية) ص ٨٧ مجلة (البيان) جمادى الأولى سنة ١٤٣٣هـ -أبريل سنة ٢٠١٢م.

(٣) مقدمة كتاب (دستور الأخلاق في القرآن) ص ٣٩ للدكتور محمد عبد الله دراز ط رؤية للنشر والتوزيع عابدين سنة ٢٠١٧م.

أخبار زواجهم وطلاقهم وسكرهم وعربدتهم، وهم الذين قادوا الشباب إلى التقليد الأعمى وإلى التحلّل في السلوك فكانت جماعات (الخنافس) في المدارس والمصانع من الظواهر الناشئة عن الصراع الأخلاقي، ومن الثمرات التي أهدتها الفنون المبتذلة إلى الحياة الإسلامية في الوطن العربي. (مقدمة كتاب (دستور الأخلاق في القرآن)، للدكتور محمد عبد الله دراز.

والأهم من ذلك كله هو نسيان تحذير الرسول ﷺ من تقليد غيرنا من الأمم، وقد كتب الإمام الآجري (٣٦٠هـ) يقول (علامة من أراد الله عز وجل به خيراً: سلوك طريق المسلمين الأولين، أي اتباع كتاب الله عز وجل وسنن رسول الله ﷺ وسنن أصحابه رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان رحمة الله تعالى عليهم، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد إلى آخر ما كان من العلماء، مثل الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل والقسم بن سلام، ومن كان على مثل طريقهم ومجانبة لكل مذهب لا يذهب إلى هؤلاء)[١]، ثم ذكر خوف النبي ﷺ على أمته وتحذيره إياهم من سنن من قبلهم من الأمم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ -لتأخذن أمتي مأخذ الأمم والقرون قبلها شبراً بشبر وذراعًا بذراع. قيل: يا رسول الله كما فعلت فارس والروم؟ قال رسول الله ﷺ: ومن الناس إلا أولئك[٢].

وقد علّق الإمام الآجري على هذا الحديث، واصفًا أحوال المسلمين في عصره (ت ٣٦٠هـ) فقال (ومن تصفح أمر الأمة من عالم عاقل علم أن أكثرهم والعام منهم تجري أمورهم على سنن أهل الكتابين كما قال النبي ﷺ، أو على سنن كسرى وقيصر، أو على سنن الجاهلية، وذلك مثل السلطنة، وأحكامهم في العمال، والأمراء وغيرهم، وأمور المصائب والأفراح والمساكن واللباس والحلية، والأكل والشرب والولائم، والمراكب والخدام والمجالس والمجالسة، والبيع

(١) الأجري (كتاب الشريعة) ص ٧٢ تحقيق: محمد حامد الفقي ط دار الكتب العلمية -بيروت ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٢) نفسه ص ١٨ .

والشراء، والمكاسب من جهات كثيرة، وأشياء لما ذكرت يطول شرحها، تجري بينهم على خلاف السّنة والكتاب، وإنما تجري بينهم على سنن من قبلهم كما قال النبي ﷺ، والله المستعان)[1].

وما كان من الشيخ حامد الفقي إلا أن علّق بدوره فقال (إذا كان هذا في زمان أبي بكر الآجري المتوفي ٣٦٠ من الهجرة، فكيف لو رأى الناس اليوم، وما تابعوا فيه من تضليل اليهود والنصارى والوثنيين وكل ملحد زنديق في فسوقهم وتمردهم على الله وكتبه ورسله وسننه وآياته، وما جرّ عليهم ذلك التقليد الأعمى من الانحلال والذلّة والصغار، وذهاب ريحهم وضياع كل ما خلّفه لهم آباؤهم من أسباب القوة والسلطان.. يجرون في شئون حياتهم ذيولاً للفرنجة أعدائهم، فلا ينالون منهم إلا كل ظلم وبغي واستعباد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[2].

كذلك يقول الأستاذ إبراهيم بيدون (وتعددت البرامج والسياسات الترفيهية[3].. وهي في أغلبها تنفلت من أحكام (الحلال والحرام) في الشريعة فتعم المحرّمات، ويقل الحريصون على الالتزام بالحلال واصطبغت الاحتفالات بعقود الزواج بالصبغة الغربية، وبعد الانفتاح الإعلامي الكبير الذي شهده العالم والقيم وتطبيع السلوك وتراجع العلماء عن القيام بواجبهم، أو اختفاء أصواتهم أمام الضجيج الإعلامي الحريص على بث المسلسلات الأجنبية ومتابعة النشاط الكروي بالأندية المحلية والأجنبية..

وفصل الخطاب أنه إذا أجرينا إحصاءً لمعرفة المتدينين الذين يمارسون فرائض

(١) نفسه ص ٢٠.

(٢) نفسه ص ٢٠.

(٣) إبراهيم بيدون (الإكراه على علمنة المجتمع المغربي وقيمه الإسلامية) ص ٨٧ مجلة (البيان) جمادى الأولى سنة ١٤٣٣هـ -ابريل سنة ٢٠١٢م.

وهو إن كان موضوعه المجتمع المغربي فإن ما أورده بالمقال من مظاهر التغريب والعلمنة يعبّر عن نموذج مما يسري على بلادنا العربية والإسلامية بصفة عامة.

الإسلام، وكذلك نسبة المحجبات من النساء والفتيات.. أو عدد مرتادي المساجد بالنسبة للمترددين على الملاهي، فيتضح أن ظاهرة الانفلات غالبة وكما يُقال إن قطع مسافة مائة ميل تبدأ بخطوة، فإننا جميعًا -كأفراد وعائلات- نستطيع اتخاذ الخطوة الأولى بتغيير بدع (التغريب) عن أنفسنا وأسرنا، ونستبدل بها آداب الإسلام وعقيدته وقيمه، وأولها الحرص على عقيدة التوحيد والاستمساك بكتاب الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي لا حجة لنا بالتذرع بالاستعمار وأذنابه مهما كانت، فلا سلطان لأحد على إرادتنا ومسئوليتنا عن أعمالنا، بل وطبقًا لحديث رسول الله ﷺ الصحيح: «كلكم راعٍ ومسئول عن رعيته...» فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته (البخاري).

وعلى الرغم من تكاثر أهل الشر وتعاضدهم على إظهار الباطل ونصرة أصحابه فإن الله تعالى غالب إن استمسكنا بدينه ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١][(١)].

يقول الدكتور عمر الأشقر(واليوم وقد مرّ على انهيار الخلافة قرن، ننظر إلى ما أصاب المسلمين في هذا القرن من المآسي والبلايا فنألم، ولكننا نرى من خلال الإسلام والمآسي روحًا بدأت تسري في الأمة الإسلامية تهدف إلى إعادة مجد الإسلام وعزه من جديد).

وبعد أن أشاد بجهود العلماء والمصلحين.. قرر أن أفضل الرواد هم الذين نبهوا إلى أن الخطوة الأولى في إقامة صرح الأمة الإسلامية من جديد تتحقق بإقامة تجمع يؤمن بهذه القضية، يسعى في سبيل تحقيقها باذلاً في ذلك النفس والمال.. ومع أننا ما زلنا في فترة مخاض.. فالأمر يحتاج إلى تكاتف جهود العاملين للإسلام؛ لأنه أدعى للنجاح والفلاح.. إن الأمة الإسلامية بحاجة إلى من يجددّ لها أمر دينها، أي الذين أحاطوا علمًا بالإسلام وعرفوا سنن الله تعالى

(١) د/ زغلول النجار (الإسلام والغرب في كتابات الغربيين) ص ١٦٢ ط ٥ نهضة مصر سنة ٢٠٠٧م.

في الحياة والأحياء.. وهؤلاء يقيلون الأمة من عثرتها ويواجهون كيد الأعداء (وعندما يأذن الله تعالى يشرق على المسلمين فجرٌ جديدٌ يمنّ الله فيه على المستضعفين، فيجعلهم أئمة.. وذلك إن شاء الله آت..)[1]. ومع مشاركتنا للدكتور الأشقر بروح التفاؤل، ولكن لا ينبغي إغفال واقع بلادنا العربية والإسلامية، فمنذ نحو قرنين فتح محمد علي باب التغريب على مصراعيه، وصحبه الهجوم الاستعماري العسكري، ثم قام أتاتورك اليهودي بهدم الخلافة العثمانية فكسر حاجز المقاومة الذي دافع عن الأمة ضد هجمات أعدائها!

وتوالى سقوط البلاد العربية والإسلامية تباعًا تحت نير الاستعمار[2] وانتهى الأمر بالنكبة الكبرى المتمثلة بالاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين ووقوع المسجد الأقصى في أسر اليهود.. وكان ذلك -كما مرّ بنا سابقًا- سبب فرحة وزير المستعمرات البريطانية وأمنيته ألا تعود الخلافة مرة أخرى وتحذيره الشديد من خطورة الموجة الإسلامية[3]!

---

(١) د/عمر سليمان الأشقر (كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها من جديد) ص ٨٤/٩١ باختصار ط ٣ دار النفائس الأردن ١٩٩٤م.

(٢) باستثناء الجزيرة العربية؛ إذ بقي النفوذ الاستعماري الإنجليزي مختفيًا وراء الستار أولاً ثم أعقبه الولايات المتحدة الأمريكية.. ويقول الدكتور ضياء الدين الريس (وحلت أمريكا محل إنجلترا في معاضدة الحركة الصهيونية وأصبحت أمريكا العامل المؤثر في سياسة الشرق الأوسط، وأكبر خطر يهدد أمن وحياة الشعوب العربية والإسلامية.. فهي تقف بتأييدها للصهيونية ضد العرب موقف العدو الأول للعروبة والإسلام معًا) ص ٢٩٣ . كتابه (الشرق الأوسط في التاريخ الحديث) ط٢ مكتبة الشباب بالمنيرة سنة ١٩٦٥م.

(٣) راجع صفحة ٢٤ .

الفصل الثالث

قصور المستغربين عن متابعة واقع حضارة العصر المتردّية

يتضح لنا أنه بسبب هذا القصور غاب عنهم ظاهرتان: الأولى تحوّل أقطاب التغريب في مصر إلى الفكر الإسلامي، الثانية بداية انحطاط حضارة الغرب وأزمة العالم المعاصر.

أولاً: تحول أقطاب التغريب الخمسة في مصر إلى الفكر الإسلامي:

إن التيار التغريبي ما زال مصراً على آرائه غير مبالٍ بأعاصير التغيير حوله التي تقتلع تلك الأفكار من جذورها، وأعني بذلك تحوّل أقطاب التغريب في مصر، كما عبّر عنه الدكتور محمد عمارة (من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام)[(١)]

١- وفي مقدمتهم الدكتور طه حسين -وهو موضوع كتابنا القادم بإذن الله وهو تحت الطبع -ومعه ملخص كتابه (مرآة الإسلام) وسنعرضه بعون الله تعالى بصورة كاملة- ولكن نختار هنا أحد مواقفه حيث طالب بالنص في الدستور على عدم السماح لقوانين البلاد بأن تعدل عن نص القرآن الكريم.. وطالب أن يكون الالتزام بالإسلام -من منطلق احترام الدين- التزامًا كاملاً بالإسلام وليس التزامًا ببعض الكتاب وتحللاً من بعضه الآخر[(٢)].

٢- والدكتور زكي نجيب محمود أيضًا الذي رأى في الإسلام وحده المعنى المفتقد في حضارة الغرب قائلاً (إنك تحيا بأمر الله وتعمل بطاعة الله، وسيكون يوم

---

(١) د/ محمد عمارة (من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام) هدية مجلة الأزهر ذو القعدة ١٤٣٥هـ- سبتمبر ٢٠١٤م وفي النهاية قال (وبعد عام من نشر طه حسين لكتابه الفذ (مرآة الإسلام) -١٩٦٠ الذي حمل الكثير والكثير من مراجعاته الفكرية -جاء كتاب (الشيخان) ١٩٦٠ عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.. والذي ختم مشروعه الفكري.. أعلن فيه تأكيداً لما جاء في مرآة الإسلام -إن الإسلام قد أقام «أمة» سياسية، مصدر السياسة فيها الإسلام وأقام «دولة» قانونها القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة وأن القضاء كان سلطة مستقلة من سلطات هذه الدولة الإسلامية، قانونها القرآن والسنّة والاجتهاد) ص ١٨٢/ ١٨٣ .

(٢) د/ محمد عمارة (الإسلام والسياسة -الرد على شبهات العلمانيين ص ١٥٩ من سلسلة مجمع البحوث الإسلامية)١٤١٣هـ-١٩٩٢ .

الحساب موعداً لإقامة العدل فيما قدمت يداك، وبهذا تنتفي دواعي القلق والاغتراب وغير ذلك من الحصاد المر الذي تغص به حلوق المعاصرين)(١).

٣- وكذلك الدكتور **عبد الرحمن بدوي** الذي صرح وهو على فراش المرض قبل وفاته (لا أستطيع أن أعبّر عما بداخلي من إحساس بالندم الشديد؛ لأنني عاديت الإسلام والتراث العربي لأكثر من نصف قرن، أشعر الآن أنني بحاجة إلى من يغسلني بالماء الصافي الرقراق؛ لكي أعود من جديد مسلمًا حقًا. إنني تبت إلى الله وندمت على ما فعلت، وأنوي إن شاء الله -بعد شفائي- أن أكون جنديًا للفكر الإسلامي **وللدفاع عن الحضارة التي شادها الآباء والأجداد، والتي سطعت على المشارق والمغارب لقرون وقرون**.

كما صرّح أيضًا بأنه تبرأ من كتاباته السابقة عن الوجودية.. قائلاً (أنا في الفترة الحالية أعيش مرحلة القرب من الله تعالى، والتخلي عن كل ما كتبت من قبل من تصادم مع العقيدة والشريعة، ومع الأدب الملتزم بالحق والخير والجمال، فأنا الآن.. هضمت تراثنا الإسلامي قراءة وتذوقًا وشرحًا وبدا لي أنه لم يتأت لأمة من الأمم مثل هذا الكم الزاخر النفيس من العلم والأدب والفكر والفلسفة لأمة الضاد!! كما أني قرأت الآداب والفلسفات الغربية في لغاتها الأم، مثل الإنجليزية والفرنسية واللاتينية والألمانية والإيطالية، وأستطيع أن أقول إن العقل الأوروبي لم ينتج شيئًا يستحق الإشادة والحفاوة مثلما فعل العقل العربي!! وتبيّن لي -في النهاية- الغي من الرشاد، والحق من الضلال)(٢).

٤-ويقول الدكتور **محمد حسين هيكل** -الذي أذهل معاصريه بكتابه (حياة محمد ﷺ)- (ولقد خيّل إلي زمنًا، كما لا يزال يخيّل لأصحابي، -ويعني بذلك

---

(١) د/زكي نجيب محمود (قيم من التراث) ص١٣٢ مكتبة الأسرة ١٩٩٩ (دار الشروق). ولنا كتاب بعنوان (يقظة أقطاب التغريب بمصر) تحت الطبع بإذن الله وهم: طه حسين وعبد الرحمن بدوي. زكي نجيب محمود، ومحمد حسين هيكل، وعلي عبد الرازق.

(٢) مقدمة كتاب (دفاع عن القرآن ضد منتقديه) تأليف/عبد الرحمن بدوي ترجمة كمال جاد الله ص ١٥/١٦ بقلم الدكتور محمد عمارة الكتاب هدية مجلة الأزهر (رجب ١٤٣٦هـ/ مايو سنة ٢٠١٥م).

المستغربين- أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض.. لكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله.. وروّأت (من التروي) فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتزّ وتربو. ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين والفكرة الإسلامية المبنية على التوحيد في الإيمان بالله تعالى تنزع في ظلال حرية الفكر إلى وحدة إنسانية، وحدة أساسها الإخاء والمحبة.. فالمؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابون بنور الله تعالى بينهم، وهم لذلك أمة واحدة تحيتها السلام وغايتها السلام.. **وهذه الفكرة الإسلامية تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات وتصوير الأمم وحدات متنافسة بحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه.** ولقد تأثرنا معشر أمم الشرق بهذه الفكرة القومية واندفعنا ننفخ فيها روح القوة نحسب أننا نستطيع أن نقف بها وحدها في وجه الغرب الذي طغى علينا وأذلنا.. لذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا المذل.. **إن الأمة التي لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل، وأن الأمة التي لا ماضي لها لا مستقبل لها**[1].

وفي نهاية الكتاب صرّح بأن سبب تأليفه هو رغبته في الدعوة للعودة لسيرة السلف فنثب وثبتهم هدًى لإخواننا بني الإنسان! لذلك وقف حيث وقف النبي ﷺ منزل الوحي، ففي تعاليمه ﷺ خير ما يهدي الإنسانية سبيل الحق والخير والجمال، وما ينهض بها من دَرَك أمسكتها المادية فيه عن السمو إلى مراقي الروح[2].

---

(١) د/ محمد حسين هيكل (في منزل الوحي) ص ٢٢/ ٢٤ باختصار -دار المعارف سنة ٢٠٠٢م والكتاب يقع في ٦٤٠ صفحة من القطع الكبير.

(٢) نفسه ص ٦٤٠.

هذا، وقد عُرف الدكتور هيكل بـاشتغاله بالسياسة، ولكن كتابه (حـياة محمد ﷺ) يسفر عن عالم وأديب مسلم غيور على دينه؛ إذ قام بالدفاع عن الرسول ﷺ للرد على الأباطيل الكاذبة من المستشرقين ومن تأثر بهم من بنـي جلدتنا الغارقين في التيـار التغريبي. ويتـضمن كتابه أيـضًا آراءه الجديرة بالتنويه لاتصـالها بالنظم التشريعية والأخلاقية في الإسلام(١).

وربما يغيب عن القراء أنه تابع لمدرسـة الإمام محمد عبـده، وسرد بعض أقواله من كتبه، وكان وثيق الصلة بالشيخ المراغي -أحد كبار تلاميذ الإمام محمد عبده- وقد كتب له مقدمة الكتاب.

وتعتبـر آراؤه في مجملها نـادرة حيث أعلنها في الثلاثينيـات من القرن الماضي وكانت موجة التغريب هي السائدة، ومن ثم لقى انتقادات من الاتجاه التغريبي وقام بالرد عليها باعتزازه بدينه وأمته الإسلامية وماضيها المشرّف، وقد لقى كتابه ترحيبًا من الإسلاميين حـيث وصف الأستاذ عبـد المنعم شميس الكتاب بـأنه (أهم كتاب صدر عن السيرة النبوية -عبر كل العـصور.. وأنه أعظم كتاب علمي عصري في السيرة النبوية الشـريفة. وقد كان الدكتور هيكل -كـما تحدث عنه الإمام المراغي- يملك الثقـافتين العـربية والأوروبية مما مـكنه من استيـعاب الموضـوع الخطير الذي

---

(١) وجاءت خاتمة الكتاب في مبحثين:

١- الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن الكريم.

٢- المستشرقون والحضارة الإسلامية.

يصفه الدكتور البيومي بقوله (.. بعد إخفاق الفرعونية.. أخذ يبحث من جديد عن أقوم العمل لبعث الأمة العربية، فوجد ضالته المنشودة في تاريخ العرب ومجد الإسلام، فاتجه بخالص جهده إلى الدراسات الإسلاميـة، مبتدئًا بسـيرة رسول الله ﷺ، ومعـقبًا بسير الأعـلام من أمثال أبي بكر الصـديق وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان) ص ٤٩٦. كذلك يصفه بأنه كان زعيمًا من زعماء الأدب في عصره، وكان اسمه يسـير مسير الشمس في الشرق العربي قبل أن يتجه إلى دراسة التاريخ الإسلامي) ص ٤٩١.

د/ محمد رجب البيومي (النهضة الإسلاميـة في سير أعلامها المعاصرين) الجزء الأول دار القلم- دمشق/ الدار الشامية - بيروت ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

تصدّى للكتابة فيه، كما امتاز الدكتور هيكل بالعقلية القانونية التي تملك خصائص التحقيق والتدقيق والقدرة على إصدار الأحكام الصائبة(١).

ويجدر التنويه أيضًا بمصادره الموثقة المعتمدة بالتراث الإسلامي ذات الصلة بتفسير القرآن الكريم وسيرة الرسول ﷺ(٢).

الدكتور محمد حسين هيكل شاهد على شذوذ المنهج التغريبي:

يتساءل في تشخيصه لأزمة المثقفين المتغربين قائلاً: (كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق، وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟! لا مفر إذن من أن نلتمس في تاريخنا وثقافتنا، وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية، نحيي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا) ويعني بذلك الماضي الحياة الإسلامية الأولى في عاصمة الإسلام (المدينة المنورة) عندما أقام الرسول ﷺ بها، وعقد بين أهلها من الأوس والخزرج واليهود الوثيقة وجعل سياسته ﷺ فيها سياسة لا يتطرق إليها الضعف، وإن لم تشبها شوائب العدوان على الغير، وسياسة القوة عنده كانت مقدمة حياة الجهاد الذي اندفع المسلمون من يومئذ إلى أن بدأت نُذر الانحلال أيام الدولة العباسية.

وكانت أخلاقيات المسلمين أيام الرسول ﷺ كما يصورها الدكتور هيكل تتسم بالقوة والإيثار، حيث تنازل كثيرون منهم عن مالهم لله وفي سبيل الله.. وليس يسمو أحد إلى ما يسمو إليه المجاهد المؤثر من أمثال الحياة العليا فإذا بلغ المؤثر من

---

(١) عبد المنعم شميس مقال بعنوان (السيرة النبوية الشريفة بأقلام المعاصرين) ص ٨/٩ مجلة (أضواء الإسلام) تصدر عن دار العروبة (٥٨ شارع ٢٦ يوليو / القاهرة) ربيع أول سنة ١٤٠٦هـ.

(٢) بلغت نحو الثلاثين: منها (تفسير الفاتحة ومشكلات القرآن) (والإسلام والنصرانية) للإمام محمد عبده و(الوحي المحمدي) للشيخ رشيد رضا، وسيرة ابن هشام.. وزاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن القيم.. بالإضافة إلى المراجع الأجنبية (تبلغ ١٣ مرجعًا).

كتاب حياة محمد ﷺ) ص ٧، ٨، ٩ ويقع في ٦٢٨ صفحة من القطع الكبير ط مكتبة الأسرة بمصر عام ٢٠٠٠م الطبعة الأولى عام ١٩٣٥م -بمقدمة الشيخ محمد مصطفى المراغي.

إيثاره أن نسي نفسه في إخوانه في الله لم تغلبه قوة في الأرض حيًا، فإن مات بقي من ذكر جهاده ما يكفل لمثله الأعلى النصر لا محالة. . ويضرب الدكتور هيكل مثلاً للإيثار بما فعله الخليفة الرابع عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي اشترى بئر رومة بعشرين ألف درهم لتكون خالصة للمسلمين(١). . . ويمضي قائلاً (فلما نسي المسلمون ما لله من المثل الأعلى، وعكفوا على أنعم الحياة وتوهموها الغاية من الحياة، بدأت نذر الانحلال يدب دبيبها فيهم وتسري جراثيمها إليهم). . ثم انحدرت أحوال المسلمين وأصبحوا أسوأ عنوان لدين هو دين الكمال، والمثل الأعلى. . وإن يرد المسلمون خروجًا من هذا الهوان فليعيدوا سيرة السلف الأولين في القوة على الحياة، والإيثار على النفس، وفي البر والتقوى، وليذكروا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]

وقوله -جل شأنه- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

ثم يعقّب الدكتور هيكل على ذلك بقوله (إنهم إن فعلوا فآثروا على أنفسهم، وذكروا الجهاد في سبيله، وتحابوا بنور الله بينهم، واتخذوا من مثل السلف الصالح أسوتهم، غفر الله لهم، وغيّر ما بهم، وأنزلهم مكان العزة، ورفع عنهم مقته، تلك السنة في الكون، فمن تدبرها فاز في الآخرة والأولى، ورفعه الله مكانًا عليًا)(٢).

وما أحوجنا في أحوالنا الراهنة للعمل بتلك السنة الإلهية.

---

(١) (في منزل الوحي) ص ٥٨٨ .

(٢) نفسه ص ٥٨٩ .

وكان متوقعًا - بدعوته هذه وسط تيار تغريبي عارم- أن يُتهم بالرجعيّة؛ لذلك قال ردًا عليهم (فليغمزني من شاء بالرجعيّة، وليتهمني من شاء بمخالفة الإجماع، وليقدر هذا المجهود من شاء بما يشاء، فإنما أبتغي الجزاء من الله يوم تُجزى كل نفس بما كسبت، ولا يعرف حميمٌ حميمًا).

واستمر يستنهض الهمم، ويحث الكتّاب على المزيد من العناية بهذه البلاد الإسلامية ودراسة حاضرها وماضيها دراسة علمية دقيقة، ودعوة المفكرين والساسة أولي العزم ليعملوا على إصلاح هذه البلاد، وليتخذوا من مكة (أم القرى) مقرًا لعصبة أمم إسلامية..

أمّا عن المقارنة مع الحضارة المعاصرة، فإنه يذكر أن الناس اليوم في الغرب والشرق يحاولون حل أزماتهم دون أن يتجّه أحد منهم ودون أن يتنبّه **المسلمون أنفسهم إلى أن الإسلام كفيل بحلّها!**

ويقول (لست أطمع في أن أصوّر هنا الحضارة الإسلامية ونظامها، فهذا التصوير يقتضي بثًا مستفيضًا ويستغرق كتابًا في حجم هذا الكتاب).

وفي موضع آخر يقرّر أن الحضارة الإسلامية تقوم على أساس هو النقيض من أساس الحضارة الغربية(1).

٥- كما تبرأ الشيخ علي عبد الرازق في نهاية حياته من مضمون كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، وبخاصة وصف الشريعة الإسلامية بأنها روحية محضة.

وقد ورد ذلك في مقال له بالعدد الأخير من مجلة (رسالة الإسلام) المؤرخ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠هـ أبريل سنة ١٩٥١م للرد على مقال للأستاذ أحمد أمين بمقال بعنوان (الاجتهاد في نظر الإسلام)، نسب إليه فيه أنه قال (إن رسالة الإسلام روحانية فقط).

---

(١) كتابه (حياة محمد ﷺ) ص ٥١٨/ ٥١٩ باختصار مكتبة الأسرة بمصر سنة ٢٠٠٠م.

مع العلم بأنه خصّص في خاتمة الكتاب بحثًا عن الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن من ص ٥١٦ إلى ص ٥٤٦ .

وفي رده قال بالحرف الواحد (إنني لم أقل ذلك مطلقًا لا في هذا الكتاب (بقصد «الإسلام وأصول الحكم» ولا في غيره، ولا قلت شيئًا يشبه ذلك الرأي أو يدانيه، ثم كان من لدد في الخصومة، وتماد في الحق وفي الباطل، ومصابرة في الهجوم وفي اندفاع إلى أن قامت هدنة طال أمدها، والله وحده يعلم هل تمت الرواية أم لم تتم فصولها)[1].

ثم فسّر الواقعة بأن هناك خطأ في التعبير جرى به لسانه في المحل الذي كان فيه مع أحمد أمين، وقال مستطردًا (وما أرى كيف تسرّبت كلمة روحانية الإسلام إلى لساني يومئذ، ولم أرد معناها، ولم يكن يخطر لي ببال، بل لعله الشيطان ألقى في حديثي بتلك الكلمة ليعيدها جذعة تلك الملحمة التي كانت حول كتاب «الإسلام وأصول الحكم» والتي أشرت إليها آنفًا، وللشيطان أحيانًا كلمات يلقِ على ألسنة بعض الناس)[2].

وكان مما صرّح به للأستاذ أحمد أمين أن رسالة الإسلام روحانية ومادية بدليل ما ورد في القرآن الكريم من نظام البيع والشراء والإجارة والمعاملات المالية ومسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ونحو ذلك. والذي يحل مشكلاتنا هو فتح باب الاجتهاد...[3].

وقد علّل الشيخ علي عبد الرازق الالتباس الذي حدث إلى الاختلاف في الأسماء، فقال (ولعلنا لو حققنا النظر فيما يظنه الأستاذ الكبير خلافًا بيننا في المقدمات لا في النتائج، لوجدنا أكثرها يرجع إلى اختلاف في الأسماء وفي تحديد ما تحمل من معان، ولعلنا لو استطعنا أن نحدّد الكلمات التي يقوم الخلاف حول معانيها ومدلولاتها مثل كلمات روحانية الإسلام، الاجتهاد المطلق إلخ.. لوجدنا بعون الله الاتفاق تامًا بيننا في المقدمات والنتائج وفي المبادئ والغايات)[4].

---

(١) لواء أحمد عبد الوهاب (الإسلام في الفكر الغربي -دين ودولة وحضارة) ص ١١٨/ ١١٩ مكتبة التراث الإسلامي سنة ١١١٩م.

(٢) (٣) (٤) نفسه ص ١١٩ .

هذا وقد تراجع عن موقفه السابق، طبقًا لما نشرته صحيفة -السياسة- في ٩/١/ ١٩٢٥ تحت عنوان «حديث جديد مع الشيخ علي عبد الرازق» قال فيه (**إن الإسلام دين تشريعي، وأنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده، وأن الله تعالى خاطبهم جميعًا بذلك، ويجب على المسلمين إقامة حكومة منهم تقوم بذلك، وفق مقتضيات الزمن، وحيث تكون المصلحة**)(١).

ولقد حرص طوال حياته على البعد أن عن أفكار كتابه.. وعن إعادة نشره.. بل لقد حرص على ذلك أبناؤه من بعده، حتى أنهم أقاموا دعوى قضائية على من أعاد نشر الكتاب في بداية سبعينيات هذا القرن، استمرت منظورة أمام القضاء المصري لأكثر من خمسة عشر عامًا!!(٢).

ثانيًا: أزمة العالم المعاصر وبداية الانحطاط:

كذلك نوجه عناية المستغربين الذين ما زالوا مفتونين بحضارة العصر، نوجّه عنايتهم إلى كتاب الفيلسوف الفرنسي (رينيه جينو) الذي عرض فيه للأزمة التي تعاني منها، ونكتفي بعرض رأيه في الواقع الحالي؛ إذ يقول: إن ما يواجهنا الآن، أن العالم بحالته ينقسم إلى حضارات تمسكت بروح العقيدة والتراث، وهي الحضارات الشرقية، وحضارة معادية لروح العقيدة والتراث النقلي من جانب آخر، وهي الحضارة الغربية الحديثة. فالشرق الأقصى تمثله الحضارة الصينية أساسًا، والشرق الأوسط تمثله الحضارة الهندوكية، والشرق الأدنى تمثله الحضارة الإسلامية(٣).

ويشير ضمنًا إلى الإسلام إذ يقول: لا بد أولاً من الإعجاب بحيوية تراث ديني

---

(١) د/ محمد عمارة (الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين) ص ١٣٧ ط مجمع البحوث الإسلامية ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

(٢) نفسه ص ١٣٦.

(٣) رينيه جينو (أزمة العالم المعاصر) ص ٦٧/ ٦٨ ترجمة سامي عبد المجيد ط دار النهار بالقاهرة سنة ١٩٩٦م.

ما زال يقاوم رغم انطوائه في حالة كمون كل الجهود التي تبذل منذ قرون للقضاء عليه قضاءً مبرمًا!)[1].

ويقول رينيه جينو (إن الغربيين رغم تقديرهم الشديد لذاتهم ولحضارتهم إلا أنهم يقرون تمامًا بأن سيطرتهم على بقية العالم أبعد ما تكون من السيطرة النهائية، بل إنهم تحت رحمة الأحداث التي لا يمكنهم التنبؤ بها وبالتالي لا يمكنهم منع حدوثها).. ويعلل تضخم الشعور بالذات القائم على الزيف والمغالطة، ناجم عن الإحساس بالنقص الحضاري المتزن، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية الضحلة الجذور، ويصف الغرب بأنه نسي أنه لم يكن له أي وجود تاريخي في الفترة التي كانت فيها الحضارات الشرقية قد وصلت إلى قمة ازدهارها، كذلك يبدو الغرب بادعاءاته في نظر الشرقيين كطفل فخور بحصوله سريعًا بضعة معلومات بدائية، متصورًا أنه امتلك المعرفة بأسرها ويريد تعليمها لناس متقدمين في السن ملؤهم الحكمة والتجارب!)[2].

ويستتبع ذلك عرض خاص لكل من:

١- النموذج الأوروبي.

٢- النموذج الأمريكي.

١: النموذج الأوروبي:

كان الكاتب الإنجليزي الشهير -ألدوس هكسلي- بكتابه الصادر عام ١٩٣٢ مدفوعًا بشعور نحو الخوف والتشاؤم من المستقبل الذي يهدد العالم؛ إذ لم نفعل شيئًا لتجنب هذا المستقبل المظلم الذي يخيفه.

ويتلخص رأيه في أن (التقدم العلمي والتكنولوجي يسمح بطبيعته بتركيز السلطة والقوة في أيدي قلة تقوم بفرض آرائها على الآخرين، والأدوات التي تستخدمها

(١) نفسه ص ١٥٤.

(٢) د/ زينب عبد العزيز (تنصير العالم) ص ١١٦ ط دار الوفاء بالمنصورة ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

في فرض هذه الإرادة لا تقتصر على أدوات القهر المادي المعروفة في مختلف عصور التاريخ -من أسلحة وسجون وأدوات التعذيب الجماعي بمختلف صورها- بل أصبحت في العصر الحديث تشمل صوراً جديدة للقهر المعنوي، عن طريق ما أصبحت تسمح به وسائل الإعلام والاتصال الحديثة من تأثير في **عقول الناس وميولهم وغسل أدمغتهم وبث ما يريد المسكون بالسلطة نشره من أفكار ومعتقدات ومعلومات)**[1].

ويحذّرنا الدكتور عبد الوهاب المسيري -وقد درس حضارة الغرب بدراية وإحاطة شاملة- يحذّرنا من الاستمرار في طريق التغريب؛ إذ اكتشف أن أزمة الحضارة الغربية الحديثة بدأت تتضح منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريبًا، وأصبحت الأزمات جزءاً من بنيته منذ منتصف الستينيات، فهي النقطة الزمنية التي اكتملت فيها معظم ملامح النموذج الحضاري المعرفي الغربي، وتحققت معظم الحلقات المتتالية الغربية الحديثة، ولم تعد مجرد أيديولوجية يتم التبشير بها، أو مجموعة من الأفكار يتم الدعوة إليها، وإنما أصبحت بناءً حضاريًا ماديًا متماسكًا ظهرت نتائجه الإيجابية العاجلة المقصودة، كما تبدت نتائجه السلبية غير المباشرة الآجلة وغير المقصودة ثم بدأت معالم أزمة الحضارة الغربية الحديثة تتضح منذ منتصف القرن التاسع عشر؛ إذ فقدت الكثير من إحساسها بمكانتها الخاصة في التاريخ ومركزيتها وعالميتها، وهذا أمر طبيعي ومتوقع مع تصاعد أزمات هذه الحضارة ابتداءً من حربين عالميتين، وانتهاءً بمشكلاتها المتنوعة الكثيرة، **مثل تآكل مؤسسة الأسرة، وانتشار الإيدز والمخدرات. وتراكم أسلحة الدمار الكوني، والأزمة البيئية، واغتراب الإنسان الغربي عن ذاته وعن بيئته، وهي كلها أمور كان لا يتحدث**

(١) د/ جلال أمين (خرافة التقدم والتأخر -العرب والحضارة الغربية في القرن الواحد والعشرين) ص ١٤١/ ١٤٢ ط دار الشروق ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

=ويقرر أن الحضارة الغربية أصابها الضعف وهي تمر بمرحلة بها كل سمات الشيخوخة، بل بدأ أصحاب هذه الحضارة في فقد الثقة بحضارتهم (ص ١٦٨-١٦٩).

وفي كتابه (عصر التشهير بالعرب والمسلمين) يقول (إن نهضتنا يجب أن تعتمد على قيمنا الخاصة) ص ١٠٩ دار الشروق ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

عنها إلا الشعراء في شعرهم، والروائيون في رواياتهم، والعلماء في مؤسساتهم العلمية الرصينة التي لا يقرؤها سوى غيرهم من العلماء، ولكنها مع نهاية الستينيات أصبحت أخباراً يومية تتناقلها الصحف والإذاعات والمجلات[١].

ومما يثير الدهشة استمرار آثار التغريب بالرغم من انهيار الاتحاد السوفيتي بعقيدته (الماركسية) إلا أنها ما زالت ممتدة بآثارها تحت شعارات أخرى مثل (اتجاه اليسار)، ولا تنكر الاحتفاظ بأصلها المادي الإلحادي المسيطر على عقول بعض المثقفين المستغربين في بلادنا الذين يستترون وراء هذا الاتجاه!

كذلك الوجودية أصبحت هزيلة نوعًا ما بعد موت مؤسّسها -سارتر- وأتباعه ولكن ما زال البعض يتعلّق بأذيالها وينفث سمومها بدعوى الحرية الفردية من خلال كتابات أدبية وروايات سينمائية ومسلسلات تليفزيونية، وأعمال مسرحية، وليس بمستبعد أيضًا أنها تختفي وراء التحلل الأخلاقي وإشاعة الفواحش مثل إباحة الشذوذ.

ويرى أستاذنا الدكتور محمد علي أبو ريان -رحمه الله- أن التيار الماركسي أخذ ينحسر اليوم ويثوب أصحابه إلى رشدهم بعد أن تأكد لديهم ضحالة المذهب ومعارضته للطبيعة الإنسانية..

كذلك فإنه يشجب أيضًا فكرة «اليسار الإسلامي» التي هي من قبيل التمويه على الفكر الإسلامي الخالص، ويستتر وراءها كثيرون من المفكرين الذين يُشك في أمر انتمائهم إلى الفكر الإسلامي الصحيح[٢].

٢. النموذج الأمريكي:

ويجب التعرف أيضًا على الوجه الآخر لما يُعرف (بالحلم الأمريكي) المراد تصديره للعالم؛ إذ يتضح من مشروع (إيزنهاور) للشرق الأوسط باعتباره منطقة

---

(١) د/ عبد الوهاب المسيري (العالم من منظور غربي) ص ١١٥ دار الشروق مصر ط ٢ سنة ٢٠١٧م.

(٢) د/ محمد علي أبو ريان (أسلمة المعرفة-العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية) ص ٨٩ ط دار المعرفة الجامعية -الشاطبي- إسكندرية سنة ١٩٩٧م.

يجب أن تخضع لمصالح الاقتصاد الأمريكي، والتي يجب أن تضم على الأقل، نصف الكرة الغربي، والشرق الأوسط والإمبراطورية البريطانية القديمة.

ولا يملك الحزبان: الجمهوري والديمقراطي أي مشاريع إنسانية ما عدا مشروع تحقيق زيادة الاستهلاك والإنتاج في بلدهم فقط على حساب الجميع دون مواربة.

ويقوم التليفزيون والإعلام السريع بدور حاسم في تكوين الرأي العام وتصدير الثقافة الجاهزة التي تغزو العالم كله، مدمّرة ثقافاته الخاصة[١].

ثم دخل العالم في مرحلة جديدة من الاستعمار لا يشبه أشكال الاستعمار الأوروبي، إنما استعمار مركز وشامل على المستوى العالمي تحت الهيمنة الأمريكية، وهو ما يدعوه جورج بوش «النظام العالمي الجديد»، أي التوسع وتعزيز للعلاقات الاستعمارية وتعني، تبعية عسكرية وسياسية وجمركية من طرف واحد لتكون في مصلحة المسيطر فقط[٢].

ويقول الفيلسوف الفرنسي جارودي (نعتقد أن الواجب الأول للمثقفين، هو إزاحة القناع عن **اللغة الكاذبة**، للكراسات المدرسية، ووسائل الإعلام التي تخدم الغرب؛ كي تحقق سيادته بواسطة أيديولوجية خداعة تحت اسم «الحداثة». ليس هناك مسلّمة واحدة من هذه المسلّمات يزعم أنها عصرية إلا كاذبة، وفي المقدمة منها **مسلّمات الديمقراطية، والدفاع عن حقوق الإنسان، والحرّية**)[٣].

ولإزاحة القناع عن هذه (اللغة الكاذبة) في سياستها الخارجية، يتعين علينا قراءة بعض المصادر المؤكدة لتخطيط الولايات المتحدة للسيطرة على العالم. قال غراي في مجلة الأسطول عام ١٩٩٠:

(١) روجيه جارودي (الولايات المتحدة طليعة الانحطاط) ص ٧٨ ترجمة مروان حموي ط دار الكاتب - دمشق ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

(٢) نفسه ص ١٠٩.

(٣) نفسه ص ١٠٩.

(يجب ضمـان وصولنا إلى الأسواق الاقتـصادية في العالم كله، دون عـقبات وكذلك المصادر الضرورية لتـأمين احتياجاتنا الصناعيـة. لذلك يتوجب علينا إيجاد قدرة موثوقة للتدخل المسلح، مع قوى غزو فعلية قادرة على تنفيذ ملف واسع من المهمات، بدءاً من الرد على العـصيان في الحرب النفسيـة، مروراً بنشر قوات من جميع الأصناف. وعلينا أن نحتـرس أيضًا من التطوير التكنولوجي السريع للسلاح الذي يمكن أن تصل إليه القوى الإقليمية الجديدة في العالم الثالث. إذن، علينا أن نطوّر قدرات عـسكرية موجهة مـستثمـرين تطبيقـات الإلكترونات وعلم المورثات والبيـولوجيا الحـيوية. تريد أمتـنا أن تؤكد مصـداقيتـها خلال القـرن المقبل)... و(المؤرخ ريتشارد إيمرمـان يرى أن القوة والأمن الأمريكيين، اعتـمدا على الوصول إلى أسـواق العالم ومـوارده الأولية، وبشكل خـاص العالم الثـالث الذي توجب السيطرة عليه بشكل دقيق)[1].

وبعد استعراض جارودي لتـاريخ الولايات المتحدة، منذ عمليات النهب الأولى وعمليات إبادة السكان الأصليين، وانتهاءً بعمليات السلب الأخيرة. قال (نجد من الضروري أن نـضع كشف حسـاب لما اتفق عليـه «بالديمقراطيـة الأمريكية» لـنبدد الأوهام والأكاذيب حـول طبيـعة الحرية التي تمنحـها أمـريكا لنفسهـا عبـر العالم كله)[2].

أمّا إذا أردنا التعـرّف على واقع المجتمع الأمريكي، فإن خـير وسيلة لذلك هي استخدام لغة الأرقام، وهي يقينًا لا تكذب في التعبير عن الواقع بدقة.

تقول الإحصـاءات إنه وقعت خمسة مـلايين جريمة سنة ١٩٦٥، وكانت الزيادة في الجرائم الخطرة أسرع ١٤ مرة من الزيـادة السكانية (١٨٧٪ مقابل ١٣٪)، وفي المجتمع نفسه تحدث جريمة كل ١٢ ثانية، وجريمة قتل كل ساعة، وجريمة اغتصاب للعرض كل ٢٥ دقيقة، وجريمة سرقة كل خمس دقائق، وسرقة سيارة كل دقيقة.

---

(١) نفسه ص ٦٧.

(٢) نفسه ص ٧٢ وقد استغرق هذا التاريخ الصفحات من رقم ٦٨ إلى رقم ٧٢.

إن ازدياد نسبة الجرائم أمر يبعث على الفزع، ففي (الولايات المتحدة سنة ١٩٥١ كان هناك ١٣,٣ جرائم قتل بين كل ١٠٠ ألف من السكان، ارتفع الرقم سنة ١٩٦٠ إلى خمس جرائم قتل، وبلغ سنة ١٩٦٧ تسع جرائم قتل)[١].

وفي كتاب (الاستعداد للقرن الحادي والعشرين) لمؤلفه المؤرخ الأمريكي البريطاني الأصل بول كيندي. يشير إلى أن ٣٧ مليون أمريكي لا يتوافر لهم التأمين الصحي، وإلى تزايد أعداد الفقراء، واختلال توزيع الثروة، وانتشار المخدرات، وتفشي الجريمة والعنف، وتدهور التعليم، وابتذال الثقافة الأمريكية بمعنى تعظيم الاستهلاك وثقافة موسيقى البوب والرسوم المتحركة والضوضاء والاستمتاع والبعد عن التفكير الجدّي[٢].

ويقول بول كيندي (إن تفكك العقيدة الأمريكية، أي دخول المجتمع الأمريكي في حرب ثقافية عرقية جنسية، يشي بتحول الحلم الأمريكي إلى كابوس أمريكي وينذر بأفول القرن الأمريكي)[٣].

ويصل عالم السياسة الأمريكي صمويل هانتنجتون إلى أن مصير الاتحاد السوفيتي يقدم مثالاً معقولاً للأمريكيين، فالاتحاد السوفيتي وأمريكا متشابهان في أنهما ليستا دولتين قوميتين بالمعنى التقليدي، وأن العقيدة هي التي صنعت الدولتين. فإذا تفككت العقيدة الأمريكية، وسادت الانفصالية الثقافية، وتفكك الإجماع على الحرية الديمقراطية فستنضم أمريكا إلى الاتحاد السوفيتي على تل نفايات التاريخ[٤].. كما يقرر فوكوياما أن النموذج الأمريكي يتآكل منذ فترة وأن نقطة الضعف الأكبر تتمثل في الانقسام الداخلي[٥].

---

(١) علي بيجوفيتش (الإسلام بين الشرق والغرب) ص ١١٧ وهذه البيانات مستقاة من **Yearly report**.

(٢) رضا هلال (تفكيك أمريكا) ص ١٠٧ ط٣ دار مصر المحروسة-القاهرة سنة ٢٠٠٣م.

(٣) رضا هلال (تفكيك أمريكا) ص ١٠٧ ط٣ دار مصر المحروسة-بالقاهرة سنة ٢٠٠٣م.

(٤) كمال شاتيلا (الديمقراطية الاستعمارية -انهيار الإمبراطورية الأمريكية) ص ١٨٢ ط لوتس بالقاهرة ٢٠٢٢م.

(٥) نفسه ص ٢١٤ .

هذا، ومع تعاملنا مع النموذجين السابقين لا بدّ لنا من الوعي اليقظ بأمرين:

الأول: سمات القهر والتدمير والاستعمار، عبّر عنها موريس تويرز الفرنسي بقوله: إن الناس في الجزائر وإفريقيا ليسوا شعوبًا بل إنهم لا يزالون في دور التكوين، أي أن سيطرة الاستعمار الفرنسي عليهم ذات هدف، ولا بد لهؤلاء الناس من أن يعيشوا فترة في أحضان الاستعمار وأن يتربوا على يديه من أجل أن يصيروا شعوبًا متحضرة. وهو نفس ما قاله الرئيس الأمريكي روزفلت عندما زار مصر[(١)].

الثاني: أن الصراع بين قيم الإسلام وقيم الغرب، قائم ومستمر، ما بقي الصراع بين «قيم الحق» وما يمكن أن نسميه تجاوزًا «بقيم الباطل»...

يقول الدكتور رفعت سيد أحمد: إن قضية رواية (آيات شيطانية) ساهمت من حيث لا تدري في استدعاء جوهر الصراع الكامن بين الغرب والإسلام منذ الحروب الصليبية حتى يومنا هذا، إنها أهالت التراب -من حيث لا تدري- على كل التحليلات الخائبة لبعض العلمانيين طيلة قرنين من الزمان... لقد كشف (سلمان رشدي) من حيث لا يدري أيضًا، عن أن العداء للإسلام يتجاوز الغرب كل المصالح والمفاهيم والقيم التي يتاجر بها.. وأن العداء للإسلام مسألة متجذرة وتاريخية ليس سهلاً إلغاؤها أيًا كانت السياسات المستخدمة للإلغاء؛ إذ إن الذين قاوموا هذا الغرب الاستعماري، وتصدّوا له ببسالة، وهددوا مصالحه طوال الحقب التاريخية الماضية (تحديداً منذ ١٠٩٥م العام الذي بدأت فيه الحروب الصليبية) كان هو الإسلام: رجالاً وقيمًا وروحًا دافعة للنضال بجميع أشكاله[(٢)].

هذا مع بعض الاستثناءات النادرة؛ فإن ظاهرة العداء للعرب والمسلمين في

---

(١) د/ رفعت سيد أحمد (آيات شيطانية -جدلية الصراع بين الإسلام والغرب) ص ٤٤ ط٣ الدار الشرقية ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

(٢) نفسه ص ٧/٦ .

الإعلام الأمريكي، فقد انتقده بعض المثقفين الأمريكيين ووصفوه بأنه عمل سياسي لضمان انحياز الرأي العام الأمريكي إلى إسرائيل وضد العرب[١].

وأخيرًا، لا يفوتنا تحليل هزيمة الولايات المتحدة في أفغانستان وقد كانت بدورها حربًا صليبية، وقد علق عليها زعيم الجمهوريين بمجلس الشيوخ الأمريكي ميتش ماكونيل يوم ١٧/ ٨/ ٢٠٢٢م بأن قرارات الرئيس بايدن بالانسحاب تدفع لنتيجة أسوأ من السقوط المهين لأمريكا نهاية حرب فيتنام عام ١٩٧٥[٢].

وقال جميس دوبنز -الذي شغل منصب الممثل الخاص لإدارة أوباما في أفغانستان وباكستان-: (إن الإخفاق كان شاملاً بحيث تنعدم جدوى البحث عن كبش فداء واحد، ولأن الحرب نفسها، وليس فقط الطريقة المخزية التي انتهت بها، تستحق وصف «الكارثة» فهناك تساؤل أكبر، كيف أهدرت واشنطن عشرين عامًا و٢٠٣١ تريليون دولار وحياة ما يقرب من ٢٥٠٠ أمريكي في حربها في أفغانستان، انتهاءً بما أطلق عليه «مارك بيلي» رئيس هيئة الأركان المشتركة «الهزيمة الإستراتيجية»[٣].

ونرى أن هذه التعبيرات تفصح عن هروب من الاعتراف بقضية جوهرية تتصل بالنظر وتحليل انحدار المجتمع الأمريكي نفسه كما اتضح لنا من الإحصائيات السابقة، وأن تلك الهزيمة -وسابقتها في العراق أيضًا-[٤] هي انعكاس ومرآة واضحة الدلالة على ما أصاب المجتمع الأمريكي نفسه بالداخل من معالم الانحطاط والتفسّخ.. ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إنه من المستحيل أن يُفرز هذا المجتمع الموبوء رجالاً مقاتلين من طراز (**إمارة طالبان الإسلامية**) التي صمد رجالها -تحت راية الجهاد الإسلامي- بشجاعة منقطعة النظير بالرغم من التضحيات

---

(١) نفسه ص ٢٠٥.

(٢) عبد المجيد الشوادفي (الهزيمة ومعالم الإفلاس) جريدة الأهرام في ٢٠٢١/١١/١٢م.

(٣) تحليل إخباري بقلم فايزة المصري بعنوان (ذكر الخروج من أفغانستان) جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٢٢/٨/١٩م.

(٤) ومن الضروري أن نتذكر أن بوش اعلنها (حربًا صليبية).

بالأرواح والأموال والممتلكات عشرين عامًا كاملة، وأرغمت أمريكا على الانسحاب مهزومة مدحورة، وصمدت أمام الولايات المتحدة بجيشها الجرّار برًا وجوًا وأسلحتها الفتاكة، ولا نستبعد تجربتها لأسلحة محرّمة دوليًا[1].

ولعل هذا الواقع (التجريبي) إن صحّ التعبير الماثل أمام أعين العالم أجمع، يجعل المستغربين في بلادنا يكفّون عن محاولة اللحاق **(بالحلم الأمريكي)**.

تعليل العودة إلى الدين في الغرب[2]:

ولئن كانت آراء الفيلسوف جينو -التي عرضناها سابقًا- ذات صبغة فلسفية غالبة، ولا تُقنع إلا الخاصّة، وكذلك كلا النموذجين الأوروبي والأمريكي عن بيان المخرج للأزمات، فإننا نرى الدكتور مراد هوفمان يعرض بمنهج تحليلي للأزمات التي تحوم حول العالم الغربي، برصد واقعه من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وينتهي إلى تعليل عودة أوروبا إلى الدين. وفيما يلي موجز لدراسته:

بدءًا بالقرن العشرين قرن العلم والتكنولوجيا عَبَدَ الناسُ أصنامًا جديدة: **القوة، المال، الجمال، الشعبية، الجنس**. ومع التسليم بأن ذلك العلم لا يقدم إجابة للتساؤل عن معنى الحياة أو بدايتها أو نهايتها[3].

وعلى إثرها حدثت انحرافات، فمن الفردية إلى النرجسية ومن الأُخوّة إلى الاجتماع على الحفلات الموسيقية الصاخبة ومن التحرّر إلى الفسق ومن التنافس إلى جنون الاستهلاك، ومن العشق إلى رياضة جنسية، ومن المرونة إلى كراهية التقليد أو باختصار، كما قال مارسيل بوسو سنة ١٩٨٤ (مثل تلك الانحرافات لا فكاك منها عندما يُساء فهم العقل والحرية والحب)[4].

---

(١) يُنظر الملحق رقم ٢ بالكتاب.

(٢) يقول د/ مراد هوفمان (إن وصف الحكومات الغربية بالعلمانية خداع واضح فإنها في الواقع جمهوريات ديمقراطية مسيحية وذلك بالقانون- ما عدا فرنسا..) والحال مشابه في أمريكا. كتاب (الإسلام عام ٢٠٠٠ ط دار الشروق).

(٣) د/ مراد هوفمان (الإسلام كبديل) ص ٢٠ تعريب عادل المعلم ط ٢ دار الشروق ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

(٤) نفسه ص ٢١.

وأصبحت تلك الخلفية وراء العودة إلى الدين من خلال طوائف عديدة، تقوم على تأملات ذاتية وغير موضوعية؛ مما جعل الكنيسة تعيد استثمار جاذبيتها الصوفية[1].

أما عن العالم الإسلامي، فقد لاحظ هوفمان أنه في ستينيات وسبعينيات هذا القرن، على عكس ما يتوقع المرء مرّ العالم الإسلامي بنقطة تحول كبيرة... وبدأ بعث الإسلام بحركات التحرر التي أدت إلى الاستقلال السياسي، وكانت الجزائر آخر الدول الإسلامية حصولاً على الاستقلال (١٩٦٢)، باستثناء فلسطين.

وفي البداية، فكّرت تلك الدول الناشئة وأبطالها: محمد علي جناح، جمال عبد الناصر، أحمد بن بلا، هواري بومدين-أن تحتذي النموذج الغربي، الليبرالية، القومية، الاشتراكية، بل وحتى الشيوعية من النموذج الشرقي.. وتشابه هذا الاقتداء بالغرب بما فعله أتاتورك في تركيا وأفكار المسلمين المستغربين مثل محمد علي أركون في فرنسا وبسام طيبي في ألمانيا.

ولكن تلك التجارب فشلت لأسباب عديدة، في مقابل ذلك ظهرت الاتجاهات الإسلامية في بداية السبعينيات، وبدأ فوراً محاربتها بلا هوادة، حيث وُصفت بالأصولية والتعصّب السّلفي.

ويقول الدكتور مراد هوفمان (أصبح من المسلّم به اليوم أن عودة الإسلام تعني عودة المقدّس (الله عز وجل وما أوحى به إلى محمد ﷺ) في شئون الحياة العامة.. ويعني هذا رفضًا أساسيًا للحداثة الأوروبية)[2].

ثالثا: تعليل نكسات المشروع التغريبي:

في تعليل صحيح لموقف أصحاب الشعارات الزائفة مثل (الثورة والثورية والتقدمية والإصلاحات والتأميمات) يرى الدكتور رفعت سيد أحمد أن أصحاب تلك الشعارات لم يفهموا أبدًا الاستقلال غير ممكن إلا إذا قُضي على سمة

(١) نفسه ص ٢٠/٢١.
(٢) نفسه ص ٢٢.

التغريب الفكري والحضاري. . . وقد أدى ذلك ببعض من هم أشد عداء للاستعمار إلى تحقيق عكس أهدافهم، وإذا بالأوضاع تحت قيادتهم تزيد تدهورًا، وبالأمة تزيد عنهم عزلة. إنهم لم يدركوا أن وقوفهم على أرض التغريب وإيغالهم في أي طريق من طرق التغريب لن ينتهي بالأمة إلا إلى مزيد من الانحطاط والتبعية، الأمر الذي يتطلب وقفة وتفكيرًا من قبل المخلصين الصادقين، وهم يراجعون ما حلّ بالأمة في ظل التغريب فكرًا وسياسة واقتصادًا وأنماط حياة[1].

وكان الدكتور رفعت حريصًا في مقدمته للطبعة الثانية من كتابه على التنبيه إلى حقائق الإسلام ومعدنه الأصيل، وفي التقديم للجيل القرآني الجديد الذي يقع عليه عبء إيقاظ الأمة من غفوتها التي طالت[2]، أي لا يُتوقع أو يُرجى خير من محاولات تطبيق المشروع التغريبي وغرسه في غير بيئته!

(١) د/ رفعت سيد أحمد (آيات شيطانية-جدلية الصراع بين الإسلام والغرب) ص ٢٩/ ٣٠ باختصار ط ٣ الدار الشرقية ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

(٢) مقدمة الطبعة الثانية.

الفصل الرابع

مسئولية محمد علي عن التغريب وثماره في مصر

إن مشكلة الدراسة التي تقابلنا عند الحديث عن محمد علي تتمثّل في التعارض بين مصدرين في ترجمة حياته؛ إذ يصفه البعض بأنه (باعث النهضة الحديثة في مصر)[١]، والآخر يصفه (قد أدار البلد كملكية خاصة ومنح الحماية والرعاية والإكراميات للمحاسيب وتعامل بقسوة مع من لا يدين له بالولاء، وامتد ذلك إلى سلالته الحاكمة حتى الاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢م)[٢].

وفيما يتصل بموضوعنا عن (التغريب) نجد الغرابة واضحة فيمن وصفه بأنه باعث النهضة، بقوله إنه كان سببًا في أن (سادت البلاد قوانين ومحاكم متعددة، بعضها أجنبي بعد أن وُجد فيما مضى قضاء واحد وشريعة واحدة ظلت نافذة أكثر من ألف سنة)، فجمع بين المدح والذم معًا![٣].

ومن نافلة القول إن إبعاد الشريعة الإسلامية هي الضربة القاصمة لمجتمعاتنا، بينما كانت بمثابة الحجر الأساسي لاستقرارها وإقامة العدل، ثم قام محمد علي بإحلال القوانين الفرنسية محلها.

يقول الأستاذ فهمي هويدي (إن أوضح تعبير عن الانحياز للغرب في ذلك الوقت المبكر (حكم محمد علي مصر حوالي ٤٤ عامًا (١٨٠٥-١٨٤٩) عندما سارع بدعوة الخبراء الأجانب (وهم على الأخص من فرنسا) للإشراف على بناء جيشه... وإرسال دفعات متتالية من المصريين في بعثات إلى فرنسا بوجه أخص)[٤].

وكان لكل من الشيخ محمود شاكر والأستاذ محمد جلال كشك[٥] الفضل في

---

(١) د/ عمر ممدوح مصطفى (أصول تاريخ القانون -تكوين الشرائع وتاريخ القانون (المصري) ص ٣٧٠ دار نشر الثقافة بالإسكندرية ١٩٥٢م.

(٢) شريف دلاور (حتى لا يُسرق المستقبل) ص ٦٩ مكتبة الأسرة سنة ٢٠١٦م.

(٣) د/ عمر ممدوح ص ٣٧١ مصدر سابق.

(٤) فهمي هويدي (خطوط عريضة لمشروع إسلامي) ص ٤٥ كتاب (العربي) ١٥/١/١٩٨٧م.

(٥) الأول بكتابه (الطريق إلى ثقافتنا)، والثاني بكتابه (ودخلت الخيل الأزهر)، وقد قاما بصد تيار التغريب الذي دأب على تزييف التاريخ باستبعاد المؤرخين الثقات والمصادر المتفق على صحتها وإحلال محلها آراء المستشرقين المعروفين بعدائهم الشديد للإسلام وهم طلائع الاستعمار الغربي لبلادنا، مع إضفاء هالات المدح للشخصيات التي أسهمت في هدم حضارتنا الإسلامية دون مراعاة المنهج العلمي الموضوعي الذي يلزم بالمقارنة مع معاصريهم الذين عارضوهم بحزم إخلاصًا لهويتهم الإسلامية، وللقراء بعض الأمثلة: = ١- محمد علي دون ذكر الزعيم عمر مكرم. ٢- أتاتورك الذي قام بعلمنة تركيا وأسقط الخلافة العثمانية =

تصحيح التزوير التاريخي بوصف محمد علي بأنه (باني مصر الحديثة) بينما دراسة مراحل حياته الواقعية تفصح بجلاء على أنه كان تابعًا لفرنسا، وثبت صحّة ما قرّراه، ثم تأكّد أيضًا بعد صدور كتاب حديث لكاتب فرنسي بعنوان **(الفرعون الأخير-محمد علي)** حيث وصفه بأنه كان يسير على خطى نابليون[1].

ومن ثم فإن المسئولية عن التغريب تقع على عاتق محمد علي الذي يطلق عليه المستغربون وصف (باعث النهضة الحديثة لمصر)! بينما يتضح أيضًا لمن يعنى بدراسة التاريخ بأمانة وصدق، أن سياساته الاقتصادية تمثّلت في امتلاكه للمقدرات لمصر سواء في مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة، ومنع الطبقة الرأسمالية الوطنية الناشئة من بناء ذاتها كطبقة بإمكانها التصدي لكل ما لا يتفق مع مصالح الوطن ومصالحها؛ مما جعل مصر تصبح في النهاية سوقًا للبضائع الأوروبية ثم تسقط في مخالب الاستعمار الأوروبي[2] أي لم يكن دوره منحصراً في التغريب الثقافي فحسب!

ومما يثير الانتباه أن مؤلف كتاب **(الفرعون الأخير محمد علي)** وهو فرنسي الجنسية كرّر في فصول كثيرة من كتابه وصف «الفرعون» وفيما يلي العناوين:

ص ١٢٧ الفرعون ورجال الدين والمماليك (١٨٠٨-١٨١١)[3].

وإغفال دور شيخ الإسلام مصطفى صبري وسعيد النورسي فضلاً عن تضحيات آلاف الشهداء الذين أعدمهم أتاتورك لأنهم كانوا يدافعون عن دينهم الإسلامي. ٣- أحمد لطفي السيد بلا ذكر لمعارضة الزعيم مصطفى كامل الذي وقف له بالمرصاد. (و المثال الجامع للتيار التغريبي يتجسد في مقال الكاتب محسن عبد العزيز بجريدة الأهرام بتاريخ ٤/ ٨/ ٢٠٢٣ بعنوان بعث الهوية المصرية).

ومما يثير أسفنا ودهشتنا إبداء سروره بتحطيم فكرة الجامعة الإسلامية- التي أعلنها الأفغاني!!

(١) جيلبرت سينويه (الفرعون الأخير محمد علي) ترجمة عبد السلام الودني -منشورات الجمل ويقع في نحو ٦٠٠ صفحة من القطع المتوسط، منشورات الجمل. بغداد -بيروت ٢٠١٢م والمؤلف فرنسي الجنسية وولد في مصر.

(٢) جاسم الياسين (الدولة الإسلامية. .) ص ٣١٦ .

(٣) من أقواله التي صرّح بها لموظف في القنصلية الفرنسية (لقد استوليت على القاهرة بحد السيف، ولن أتركها إلا بحد السيف. إن القاهرة ليست حمامًا عامًا يدخله أي فرد بسهولة) ص ١٧٤ .

-وكان يطلق على الشعب اسم (الرعية) من قبيل الاستعلاء، فليس لهم عندي إلا السيف والانتقام (الجبرتي). .وقد اتضح أن محمد علي كان يفوق خورشيد قبله في ازدراء الشعب. ويقرر الدكتور الشناوي أن أحداث التاريخ الحديث والمعاصر قد دلّت على أن الزراية بالشعب وإغماط حقّه وجحد فضله كان من أبرز الصفات من محمد علي وفي بنيه وأحفاده. ص ٢٣٢ د/ عبد العزيز محمد الشناوي (عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية) سلسلة (أعلام العرب) يوليو سنة ١٩٦٧م.

ص ٧٧ ارتقاء فرعون (١٨٠٣-١٨٠٥)

١٤٥ الفرعون والأصوليون.

٢٢٥ الفرعون والمعرفة والنظام العدل (١٨٢٦-١٨٤٠)

٢٨٣ مراكب الفرعون (١٨١٢ - ١٨٣٩)

٣١٥ الفرعون أو الحرية المدعاة (١٨٢٣ -١٨٢٦)

الفرعون وأوروبا (١٨٢٦-١٨٢٧)

استغلال الفرعون أو الحلم المستحيل (١٨٣٨ -١٨٣٨)

٢٤٧ قريب من هذا المعنى أيضًا تخصيص فصل بعنوان (المزارع الكبير ١٨٠٨-١٨٤٠) ذكر فيه أن محمد علي صار المالك الوحيد للأرض المصرية ابتداء من سنة ١٨٠٨ وهو مالك كل الإنتاج الزراعي لمصر. ويقول (فالناس والمجتمعات على السواء تحت تصرفه، ولم يكن يحرم نفسه من التصرف فيهما معًا كيفما أراد) ص ٢٤٥ .

ووصف مجزرة المماليك بقوله (وهكذا يتم الأمر، ويعلق خمسمائة رجل في الفخ. ويهطل الرصاص عليهم من فوق الأسوار وتتم المجزرة في خليط من النار والدم، ص ١٤٠ ويذكر أن هذه المجزرة خلّفت في نفسه مرضًا عصبيًا صحبه لبقية حياته ص ١٤١.

ويصفه بأنه كان مفضلاً دومًا الأجنبي على ابن البلد، وبذلك جعل الشعب منفيًا في بلده، ص ٢١٧ وكان يعتمد على فرنسا في كل الميادين تقريبًا، وكان سبب انجذابه لفرنسا صديق طفولته (ليون) أحد أبناء مارسيليا ص ٧/ ٨ .

وقد قام بتنفيذ مشروع قديم فكّر فيه نابليون حين كان يقيم في مصر والذي لم يتمكن من تحقيقه -أي إرسال العديد من الشبان إلى باريس- وتعليق المؤلف بقوله (مرة أخرى: بونابرت ودومًا فرنسا) ص ٢٢٤ وسبق وصفه بدأبه على السير على خطى نابليون) ص ١٠ .

وبعدُ، هذا هو محمد علي الذي قام بتشييد مصر الحديثة)![1].

ويقول الأستاذ جلال كشك:

(وظلت فكرة أن محمد علي هو (باني مصر الحديثة) هي التفسير الذي تروّجه المدرسة الاستعمارية في بلادنا منذ أول محاولة لكتابة تاريخنا!!

كذلك نجد الألقاب تُخلع بغير حساب على التشكيلات التي أقامها الاحتلال الفرنسي!)[2].

ودأب الاحتلال البريطاني على إيقاظ القومية المصرية في النفوس ليؤلبهم على الخلافة العثمانية ليسلخوا مصر عن الجامعة الإسلامية التي كان مركزها إسلامبول[3].

ويضيف أن الدور الذي لعبه محمد علي هو إعداد مصر لقبول الاستعمار-أو وضع الأمة المصرية في حالة القابلية للاستعمار- وذلك من خلال عملية التغريب التي قام بها بنجاح، واستحق عليها ثناء المدرسة الاستعمارية[4].

وعندما اتسع مجال نفوذه الذي وصل شمال اليمن والحجاز والسودان أراد أن يبني لنفسه إمبراطورية تمتد على كل المشرق العربي، حينها تجرأ على الخلافة وسعى إلى التوسع على حسابها (١٨٣١-١٨٤١) ودخل معها في حرب حول منطقة الشام انتهت بتدخل الدول الأوروبية سنة ١٨٤٠ مما وفر لبريطانيا تعلة لتحتل عدن، وطرح ما سمّي بالمسألة الشرقية في مؤتمر برلين. وكانت نتيجة كل

---

(١) ويصفه مقدّم كتاب (الفرعون الأخير محمد علي) يصفه بقوله (إن مسلّة ساحة الكنوكورد في قلب باريس استطاعت أن تحيي ذكرى التوأمة بين فرعونين كبيرين: رمسيس ومحمد علي) ص ١٠.

(٢) ودخلت الخيل الأزهر ص ٢٥٩ ط الدار العلمية- بيروت ذو الحجة سنة ١٣٩١هـ- يناير سنة ١٩٧٢م.

(٣) نفسه ص ٢٧٦.

(٤) محمد جلال كشك (... ودخلت الخيل الأزهر) ص ١٨١ بكتابه، ولكن الرافعي (تاريخ الحركة القومية وتطوير نظام الحكم في مصر -مكتبة النهضة المصرية) معجب بدور محمد علي ووصفه بأنه باعث الأمة المصرية وباني مصر الحديثة. محمد جلال كشك (.. ودخلت الخيل الأزهر) ص ١٨٠ ط الدار العلمية -بيروت ذو الحجة سنة ١٣٩١هـ - يناير سنة ١٩٧٢م، ويبدي الرافعي (المؤرخ المدبلج) غضبه من الجبرتي لأنه انتقد محمد علي!!

ذلك أن أعطى محمد علي الفرصة لأعداء الأمة الإسلامية لمزيد من التدخل في شؤونها على حساب الخلافة الإسلامية؛ مما زاد في ضعفها(١).

وكان من الطامّة أيضًا: أن تكثر البعثات التعليمية إلى فرنسا بالذات؛ ليرجع منها بعض الوافدين وقد حملوا جراثيم التبشير ومعاول الهدم وأراجيف الدعاية، ولهم من ألقابهم العلمية ما يُهيئ لهم مكان القيادة في دنيا المدارس والجامعة والتأليف والصحافة والنشر(٢).

وكان رأي الأستاذ محمد فريد أبو حديد صائبًا في تعليله لفشل الإصلاحات التي أجراها محمد علي بمصر؛ وذلك لأنها كانت تقليدًا تامًا لدول الغرب -وبخاصة فرنسا- مع انفراده وحْدَهُ بالرأي دون مشورة شعب.. فكانت النتيجة إغلاق المصانع وبوار التجارة، وصارت كأن لم تغن بالأمس! وهكذا برهن على كذب ادعاء المدرسة الاستعمارية بأن محمد علي هو باني مصر الحديثة).

ويقول (لأن سنن الشعوب أن نهضتها لا تزدهر، إلا إذا كانت وليدة روحها ونتيجة أذهانها وثمرة سعيها، فإذا ازدهرت تلك النهضة بقيت وزادت رونقًا وذكاءً كلما مر عليها الزمان واستمرت حياتها ما دامت الشعوب حية قوية)(٣)(٤)، وهو يتفق في هذا مع رأي خبير العلاقات الدولية مارسيل بوازار، الذي يقرر بأن أية محاولة لبناء نهضة في العالم الإسلامي على أساس لا ديني ستؤول إلى الفشل؛

---

(١) جاسم مهلهل الياسين (الدولة الإسلامية بين الواجب والممكن) ص ٣١٦ ط شروق المنصورة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م وشركة السماحة- الكويت.

(٢) د/ محمد رجب البيومي (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين) جـ١ ص ١٨/١٧ ط دار الفكر - دمشق. الدار الشامية- بيروت ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(٣) محمد فريد أبو حديد (زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم) ص ١٧٤ كتاب الهلال بمصر -مايو سنة ١٩٩٧م.

(٤) ويقول دكتور حسين مؤنس (وكان للعلماء الفرنسيين أبعد الأثر في مستقبل مصر الثقافي والفكري؛ إذ أصبحت مصر شديدة الاتصال بفرنسا والتأثر بها وتحولت إلى العلاقة بينهما أشبه بعلاقة التلميذ بالأستاذ مما جعل بالمرستون رئيس وزراء إنجلترا يصف محمد علي بأنه صنيعة الفرنسيين والعوبة في أيديهم) ص ٨٩ «كتاب الشرق الإسلامي في العصر الحديث» ط مكتبة الثقافة الدينية بالظاهر ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

لأنها لا تعدو أن تكون تزيينًا على السطح وعملاً مصطنعًا لا يحاول أن يمد جذوره في الأرض فيسهل اقتلاعه (بينما يظل الإسلام بديناميته كفيلاً بإقامة مجتمعات جديدة)[1].

دور (رفاعة الطهطاوي) في ترسيخ التغريب بمصر:

يذكر الأستاذ رضا هلال أن رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣) هو «الأب الروحي» للمثقفين الحداثيين في مصر، من أحمد لطفي السيد إلى سعد زغلول وفتحي زغلول وطه حسين ومحمد حسين هيكل وإسماعيل مظهر إلى سلامة موسى ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ولويس عوض وحسين فوزي)[2].

أما الشيخ محمود شاكر فقد كشف النقاب بكتابه الفذ (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) عمّا وراء هذه الهالة التي أحاطها المستغربون حول رفاعة الطهطاوي ووصفوه في إطار أنه (جاء يخرج مصر وأهلها من الظلمات إلى النور)!! وقد تتبّع بجهد علمي كبير تاريخ إنشاء «مدرسة الألسن» لكي يثبت أنها ليست من بنات أفكار الطهطاوي ولا من محمد علي (الجاهل الذي لم يتعلم قط)! ولكن ثمرة من ثمار «الاستشراق» ودهائه الذي احتضنوه وربّوه وغذّوه ونشّأوه مدة إقامته في باريز. . ومن يتأمّل في مناهج ومدرسة الألسن يتبين له أن الطهطاوي لم يكن مؤهلاً لتدريس علومها ولا كان في مصر يومئذ من المصريين من هو مؤهّل لتدريسها، فلا مناص من استقدام من يُظنّ منه أنه مؤهّل لتدريسها من الأجانب ومن المستشرقين خاصة. . فهي في واقع الأمر مدرسة ملفّقة مبتورة الصلة كل البتر

(١) د/ عماد الدين خليل (قراءة في الفكر الغربي): الإسلام والمستقبل مجلة -المسلم المعاصر ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

(٢) رضا هلال (تفكيك أمريكا) ص ٢١ دار مصر المحروسة بالقاهرة ط٣ سنة ٢٠٠٣م وعندما حدّد رموز هذا التيار، لم يكن بعضهم قد تحوّل -والحمد لله تعالى- إلى الفكر الإسلامي. . ونذكر منهم تحديداً (طه حسين وعبد الرحمن بدوي ومحمد حسين هيكل وزكي نجيب محمود وعلي عبد الرازق).

وبعون الله تعالى قمنا بدراسة هذه القضية بكتابنا بعنوان (يقظة أقطاب التغريب في مصر)، وهو تحت الطبع بمشيئة الله تعالى.

من مركز «الثقافة المتكاملة» التي كان الأزهر مهدها على قرون متطاولة، وكان هو وحده على طول هذه القرون، مركز ثقافة الإسلام في مصر.

وكذلك أحدث رفاعة الطهطاوي صدعًا مبينًا في ثقافة الأمة وقسّمها إلى شطرين متباينين: «الأزهر» في ناحية و«مدرسة الألسن» في ناحية، وكذلك حقق رفاعة لدهاة الاستشراق أهم ما يتوقون إليه[1].

ثم تولّى نظام التعليم «دنلوب» تأسيس المدارس المصرية، مع مئات من مدارس الجاليات التي يتكاثر على الأيام عدد من تضم من أبناء المصريين وبناتهم، وقد كان من أراد الغزاة، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمراً بل زاد بشاعة وعمقًا في سائر أنحاء العالم العربي والإسلامي.. وأدّت دورها في تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفّق، في دمائها مرتبطًا بالعربية والإسلام وملئه بماض آخر يغطي عليه. ويقول الشيخ محمود شاكر: (**وأحسست أني أنا والجيل الذي أنا منه، وهو جيل المدارس المصرية، قد تم تفريغنا تفريغًا يكاد يكون كاملاً من ماضيه كله**)[2].

ويلخّص «التغريب» بدوره في إحداث التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي المضطرب.. والتغليب المتعمّد للثقافة الغازية واللغات الغازية. بلا مقابل في النفوس من ثقافة ماضية حيّة حياة ما، وباقية على تماسكها وتكاملها.. ثم ضرب على ذلك عدة أمثلة[3].

ونعود لتعليل الشيخ محمود شاكر بأنه ضمن الجيل المفرّغ من تاريخ أمته، وبمراجعة سيرة حياته يتضح أنه عانى في مطلع شبابه من الحياة الأدبية الفاسدة، **فأثارت رغبته في تعليلها، فظل نحو أربعين عامًا معتكفًا للإقبال على قراءة شاملة للتراث الإسلامي** مما وقع تحت يده من كتب أسلافنا (من تفسير لكتاب الله، إلى علوم القرآن على اختلافها، إلى دواوين حديث رسول الله ﷺ، إلى ما تفرع عليه

(١) محمود محمد شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص ١٤٥ مكتبة الخانجي ط٢ ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.
(٢) نفسه ص ١٥٢ .
(٣) نفسه ص ١٥٤ .

من مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح والتعديل، إلى كتب الفقهاء في الفقه، إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين (أي علم الكلام) وكتب الملل والنحل، ثم كتب الأدب وكتب البلاغة، وكتب النحو وكتب اللغة، وكتب التاريخ، وما شئت بعد ذلك من أبواب العلم[1].

وفي النهاية عبّر عن انبهاره الشديد حيث اتضح له أن ما عند أسلافنا (لم يكن قط عند أمة سابقة من الأمم، حتى اليونان -وأكاد أقول لك غير متردد أيضًا أنهم بلغوا في ذلك مبلغًا لم تُدرك ذروته **الثقافة الأوروبية الحاضرة اليوم**، وهي في قمة مجدها وازدهارها وسطوتها على العلم والمعرفة)[2].

وهو بهذه المقارنة الموضوعية بين الثقافتين الإسلامية والغربية يتفق تمامًا مع ما انتهى إليه الدكتور عبد الرحمن بدوي؛ إذ بعد حياته العلمية الحافلة، صرّح في نهاية حياته بقوله (فأنا الآن.. هضمت تراثنا الإسلامي قراءة وتذوقًا وشرحًا وبدا لي أنه لم يتأت لأمة من الأمم مثل هذا الكم الزاخر النفيس من العلم والأدب والفكر والفلسفة لأمة الضاد! كما أني قرأت الآداب والفلسفات الغربية في لغاتها الأم، مثل الإنجليزية والفرنسية واللاتينية والألمانية والإيطالية، **واستطيع أن أقول إن العقل الأوروبي لم ينتج شيئًا يستحق الإشادة والحفاوة مثل ما فعل العقل العربي!** وتبين لي -في النهاية- الغي من الرشاد والحق من الضلال)[3].

وكيف غابت هذه الحقيقة الباهرة عن شباب الأمة الإسلامية من ضحايا الغزو الثقافي ونظم التعليم الذي أسّسه الاستعمار؟! فقد أصاب من قال (لقد كانت حملة الصليبيين والصهيونية العالمية أشد الحملات التي وجّهت إلى الإسلام، ولم يكن خطر الاستعمار العسكري الذي تخلصت منه بلادنا يساوي خطر الاستعمار الروحي والثقافي؛ إذ رُسمت خطط محكمة لإبعاد المسلمين عن دينهم، وتشويهه

(١) محمود شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص ٧ .

(٢) نفسه ص ٢٤ .

(٣) مقدمة كتاب (دفاع عن القرآن ضد منتقديه) للدكتور عبد الرحمن بدوي -ترجمة كمال جاد الله ص ١٥/١٦ بقلم الدكتور محمد عمارة - الكتاب هدية مجلة الأزهر (رجب ١٤٣٦هـ - مايو سنة ٢٠١٥م).

في أعينهم، وتحقير ماضيهم في أذهانهم، فخرجت أجيال تشبّعت بالثقافة الأجنبية، وهيمنت على مصادر التوجيه في المجتمع، فأخذت المسافة تتسع بينها وبين الدين، وفقد بعض الشباب الشخصية الإسلامية، وفقد مقوماته الأصلية، وأهدافه في الحياة)[1].

ويمتد بنا البحث لنعرض أيضًا لبعض المستغربين الذين يصفون محمد علي بأنه باعث النهضة الحديثة لمصر! ولو كانت لهم حصيلة وافرة من الثقافة الإسلامية وبخاصة الشريعة والتاريخ والحضارة، لعلموا أن تلك النهضة في جوهرها ذات طابع غربي محض، بل إنها على النقيض من النهضة الإسلامية التي يسعى إليها صفوة علماء الأمة عن بصيرة ودراسة علمية ومنهج صحيح يتفق مع الإسلام كدين وحضارة معًا.

يقول الدكتور عمر ممدوح تحت عنوان العصر الحديث (النهضة الحديثة: يبدأ العصر الحديث عام ١٨٠٥ بتولي محمد علي باشا ولاية مصر، فقد أخذ في إصلاح أحوال البلاد على نمط النظم الغربية مستعينًا في ذلك بالخبراء الأوروبيين..)[2].

أما المؤرّخة البريطانية (كارين أرمسترونج) فقد وصفت الأساليب التي استخدمها محمد علي بأنها وحشية، منها ذبح المماليك، ولأن المشروع الطموح الذي شارك فيه حفيده إسماعيل بشق قناة السويس أدّى إلى إفلاس مصر، ودفعها إلى الاستدانة من بريطانيا التي اتخذتها ذريعة لاحتلال مصر عام ١٨٨٢م وهكذا (أراد محمد علي وإسماعيل جعل مصر دولة حديثة ومستقلة، **ولو كانت النتيجة أنها أصبحت مستعمرة بريطانية!)**[3].. ولم يكن يجرؤ قبل محمد علي أحد على

---

(١) عبد العزيز خطاب (تربية الشباب في القرآن الكريم) ص ٥ مطبعة المعرفة -لاظوغلي عمارة التأمين سنة ١٩٧٣م ونلاحظ أنه استخدم وصف (تحقير ماضيهم) بدلاً من (تفريغهم من ماضيهم) كما فعل الشيخ شاكر!

(٢) د/ عمر ممدوح مصطفى (أصول تاريخ القانون -تكوين الشرائع وتاريخ القانون المصري) ص ٣٧٠ مطبعة دار الثقافة بالإسكندرية سنة ١٩٥٢م. ونعذره لخشيته من السلطة الحاكمة في عصر الملك فاروق.

(٣) كارين أرمسترونج (مسيرة الإسلام) ص ٢١٦/٢١٧ ترجمة د/ هشام الحناوي ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

تطبيق القوانين الوضعية واستبعاد الشريعة الإسلامية، ولكنه قام بتطبيق القوانين الفرنسية وأصبحت هي النافذة.. وأُنشئت في عهده عدة مجالس قضائية سلبت كثيرًا من اختصاص المحاكم الشرعية الموجودة حينئذ؛ إذ انتقل إلى هذه المجالس اختصاص المحاكم الشرعية في المسائل المدنية والتجارية والجنائية، وظل اختصاص المحاكم الشرعية يتقلص واقتصر على مسائل الأحوال الشخصية، **بينما كانت المحاكم الشرعية فيما مضى صاحبة الولاية القضائية في مصر حتى عهد محمد علي.**

ويقول الدكتور عمر ممدوح (وبذلك سادت البلاد قوانين ومحاكم متعددة، بعضها أجنبي، بعد أن وُجد فيما مضى قضاء واحد وشريعة واحدة ظلت نافذة أكثر من ألف سنة)[(١)].

والسؤال الوارد هاهنا: كيف تُقام نهضة بغير شريعة الإسلام ودعامتيها: العدل والأخلاق؟!

إن الشريعة الإسلامية تختلف عن الشريعة اللاتينية والشريعة الإنجليزية وغيرهما من الشرائع، **بأنها شريعة مُنزلة مصدرها القرآن والسّنة واجتهاد الفقهاء**، ولذلك نجد أنه بينما ظهرت فكرة العدالة في كل من الشريعتين اللاتينية والإنجليزية كمصدر مستقل عن القانون الروماني والقانون الإنجليزي، فإنها في الشريعة الإسلامية لم تخرج عن كونها تطبيقًا مستخرجًا من قواعد الشريعة الغراء نفسها، لا نظرية مستقلة كالتي استمدها الرومان من مبادئ الفلسفة اليونانية أو كالتي ابتدعها الإنجليز لتأسيس مبادئهم القضائية[(٢)].

ويمتاز التشريع الإسلامي أيضًا على كثير من الشرائع بتنظيم الروابط القانونية على القواعد الأخلاقية، والاتجاه في التقنين إلى ناحية الفضيلة، فالتوصية بالوفاء بالعهد ومراعاته، وتحريم الربا مطلقًا، وكراهة المضاربات ونحوها مما يمتاز به هذا

---

(١) نفسه ص ٣٧١ ويقول أيضًا (إن المحاكم الشرعية كانت فيما مضى صاحبة الولاية القضائية العامة في مصر حتى عهد محمد علي، وان هذه الولاية سُلبت منها بعد ذلك شيئًا فشيئًا) ص ٤٧٩ .

(٢) نفسه ص ١٠٥ .

التشريع إنما هو نتيجة لهذا الحساب الأخلاقي. ولذلك قضى التشريع الإسلامي التي نزل فيها الكتاب وصدرت منها السنة، على نظم الجاهلية التي نبذها الخلق والتي تتنافى مع واجبات الفرد العائلية والاجتماعية(١).

استفحال التغريب في عصر محمد علي وأسرته:

لخص الخديوي إسماعيل توجهه التغريبي بقوله (مصر لم تعد جزءاً من إفريقية بل أصبحت أوروبية)(٢).

ووصف الأستاذ عبد الحليم الجندي معالم التغريب على يد محمد علي وأسرته من بعده بقوله: (ولّى ضباط نابليون المسرّحين قيادات جيشه وأسطوله، وفتح نوافذ مصر واسعة لأصحاب الامتيازات.. وأخيراً أقبل الجيش البريطاني سنة ١٨٨٢ بالفساد الأشد، فنفقت بضاعة شذاذ الآفاق في الأسواق، وانتشرت أخلاط من المهارات والمغامرات والتجارات تلتهم ثمرات كل شيء في مجتمع مسّته الشياطين وصيّره الغزاة نهبة المنتهب.

كان التاريخ الهجري هو التاريخ، فوضع بجواره التاريخ الميلادي، ثم رفع تاريخ هجرة الرسول ﷺ! وكان الميقات عربيًا فصار إفرنجيًا! واهتمت الحكومة بالآثار الفرعونية لينزح بها الأجانب إلى الخارج وطُبقت القوانين الفرنسية على المصريين في محاكمهم فلم تقدر على جعلهم أوروبيين ولم تتركهم على حالهم، فصاروا كالغرباء لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وأُعطي المتمصرون الفرنجة، والمتفرنجون العرب، معنًى مرذولاً لقول إسماعيل: **نحن لم نعد إفريقيين نحن من أوروبا**، فغزا الخمارون اليونانيون والمرابون اليهود أقصى الأرض في الدلتا والصعيد، وتبرجوا في الريف والعواصم تحت أعلام المحاكم المختلطة فارتهنوا الملكية العقارية، وخالطوا الأسر وباعوها شهواتها، فتكاثرت المسارح والملاهي وتناثرت الخمارات على قوارع الطرق، وألف أصحاب الثقافة والجاه ابتذال أنفسهم

---

(١) نفسه ص ٣٠٣.

(٢) شريف دلاور (حتى لا يُسرق المستقبل) ص ٨٨ مكتبة الأسرة ٢٠١٦م.

وتبديد أوقاتهم على الأرصفة، وأحل الميسر في النوادي الخاصة وعلى مستوى الأمة تحت اسم «اليانصيب». وفعل التقليد أفاعيله فخلع رجال ونساء ثوب الحياء وأمسك الكبرياء بأذيال الغزاة الطويلة، ولبس الآخرون أزياءهم القصيرة أو المثيرة. وتعرّى بعض على الشواطئ وتخنّث كثيرون في المراقص. وفُتحت للرقص مدارس، واستُوردت البيوت الناعمة مربيات للبنين والبنات من أوروبا! وأُقيمت الحفلات الراقصة في قصر الخديوي وأُتيح فيها شرب الخمر.. وتعاجم الناس في بيوتهم ومعاملاتهم، وتكلموا الفرنسية، ثم الإنجليزية، في مدارس التبشير ثم في كل مكان)[١].

واستطرد الإنجليز من جسم الجماعة إلى لسانها يريدون أن يقتلعوه بجعل اللغة الإنجليزية لغة التعليم في المدارس... وفي هذه البيئة الوبيلة سلط جيش الاحتلال وأعوانه من غير المصريين الإرهاب والإفقار والجهل والتفرقة على أمة منهزمة.

وعندئذ لا بد من المقارنة أيضًا بين الغزو الفرنسي والإنجليزي لمصر:

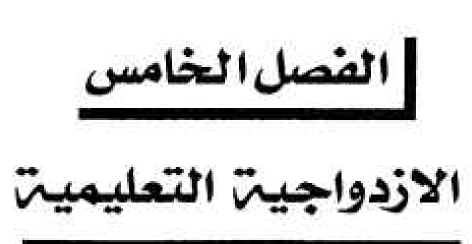
لقد قاوم المصريون الغزو الصليبي الفرنسي، وانهزم الغزاة عنهم بعد ثلاث سنوات فقط من الاحتلال؛ لأن المجتمع المصري كان أعلم وأقوى وأقوم لمحافظته على هويته الإسلامية فجاهد وصمد (ونرى أن هذا قد تحقق فعلاً عندما قام المصريون بالثورة أيام الاحتلال الفرنسي واضطروا بونابرت بجهادهم الإسلامي إلى الفرار ليلاً خشية الوقوع في الأسر)[٢].. لكن تحول الأمر فأصبحت المقاليد في يد أوروبا، وبعوث الحكومة والأفراد تترى إلى إنجلترا وفرنسا لتوضع في أيديها مفاتيح التغيير[٣]؛ ولذلك طال عمر الاستعمار الإنجليزي لمصر فلولاهم لما ظلّ باقيًا من سنة ١٨٨٢م حتى عام ١٩٥٤م.

---

(١) عبد الحليم الجندي (الإمام محمد عبده) ص ٨٧/ ٨٩ باختصار «سلسلة أعلام الإسلام» ط دار المعارف سنة ١٩٨٧م.

(٢) د/ عبد العزيز الشناوي (عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية) ص ٦٢ ط دار المعارف سنة ١٩٨٧م كتاب أعلام العرب العدد ٦٧ يوليو سنة ١٩٦٧م.

(٣) عبد الحليم الجندي (الإمام محمد عبده) المصدر السابق.



الفصل الخامس

الازدواجية التعليمية

إن الازدواجية التعليمية وهي المتمثلة في الانقسام بين اتجاهين: الإسلامي والعلماني من جهة، وانعدام الرؤية الواضحة لتوجيه الفعل الإسلامي في الاتجاه الصحيح من جهة أخرى هي التي حجبت عن شبابنا تراثه الإسلامي وحضارة الآباء والأجداد..

وتكمن البلوى الكبرى في نظام التعليم الذي فرضه الاستعمار الغربي المصطبغ بالعلمانية وفرضه على الشعوب، فقد جثم الاستعمار الفرنسي على الجزائر وتونس والمغرب نحو مائة وثلاثين عامًا، حرص فيها على منع أي تقدم، بل كان سببًا في فرنسة أجيال نزعها من أمتها واستغل جهودها لصالح فرنسا، مع تفريغها من إسلامها ومحاربته بإغلاق المساجد وإلغاء الشريعة الإسلامية.

كذلك سيطر دنلوب (وكان قسيسًا مبشرًا) على التعليم بمصر، وحرص على تخريج النشء وفق نظام تعليمي يؤهله فقط للعمل بالحكومة التي سيطر عليها الإنجليز، ووأد المواهب الشابة التي كان من شأنها لو تلقت التعليم المناسب لها لأصبحت من دعائم النهضة في ميادين العلوم والصناعات وغيرها.. وذلك بين خطة شاملة واعية لاجتثاث جذور الإسلام وتوهين روابطه في الأفراد والجماعات؛ إذ استغلّ الغرب الاستعماري وجوده في بلاد المسلمين ليمحو من النفوس الإعزاز بهذا الدين وعرقلة إحياء تعاليمه[2].

ويقول الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله تعالى- **(خلال قرنين والزحف الصليبي يتدفق على بلاد الإسلام، ففسح المجال لتعاليمه وثقافته وحدها وضيّق الخناق على كل دعوة دينية أخرى** -وخاصة الإسلام- وساق رجاله في المدارس والجامعات والأندية والمستشفيات ودور الصحف والإذاعة والمسرح ونظم برامج التبشير..[3].

(١) د/ علي سلطاني العاتري، مقال بعنوان (نظرات في الأسلمة والتأصيل) ص ٦٥ مجلة -المسلم المعاصر- ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

(٢) محمد الغزالي (كفاح الدين) ص ١٤٥.

(٣) نفسه ص ١٥٦.

هذا، ويتفق معه الشاعر محمد إقبال الذي وصف التعليم الغربي بأنه الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي ثم يكوّنها كما يشاء، فاستطاع أن يحوّل جيلاً شامخًا إلى كومة من تراب، ويقول (إن نظام التعليم الغربي وإنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة)[1].

ويتصل بهذه الظاهرة، ظاهرة أخرى لا تقل وضوحًا وهي انحسار تعليم (الدين) بالمدارس الحكومية (فضلاً عن المدارس الخاصة ومدارس اللغات). أما الجامعات فتحتاج إلى بحث خاص!

ومن البداية نرى أنها هي السبب والعلّة إذا تتبعنا أصلها ومنشأها تاريخيًا منذ عصر محمد علي تزامنًا مع الغزو الصليبي لمصر بقيادة بونابرت.

إن هذه الازدواجية تسيطر على مناهج التعليم وتتمثل في التعليم الديني بجانب، والتعليم العام، أو ما يسمّيه البعض بالتعليم المدني في الجانب المقابل، وهو مصطبغ بالعلمانية.

يقول الأستاذ محمد المجذوب (إننا في سورية يتضح طغيان التعليم العام على جميع المناهج حتى يوشك أن يستقل وحده بالميدان.. لولا قيام كلية الشريعة بدمشق، وتشبّث بعض المدارس الشرعية بالبقاء، على الرغم من كل العواصف التي تهددها بالاقتلاع بين يوم وآخر. وهذه المشكلة لم تكن من حظ سورية وحدها، **بل مشكلة العالم الإسلامي كله من أقصاه إلى أقصاه.. وكان التعليم في مقدمة الوسائل التي استعان بها الاستعمار الغربي لتحقيق أغراضه**)[2].

وكانت النتيجة هي تربية جيل (مستغرب)، ثم ظهرت الفجوة بين جيلين، وأخذت شقّة الخلاف تزداد اتساعًا بينهما[3].

---

(١) عجيل النشمي (الانفصام بين النظرية والتطبيق ودور الفكر العربي) ص ٢٣ سلسلة تهيئة الأجواء (٧) بالكويت ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

-وللعلم أيضًا فإن للأستاذ أنور الجندي كتابًا بعنوان (الخنجر المسموم في القلب) ويعني به نظام التعليم في قلب الأمة الإسلامية.

(٢) محمد المجذوب (مشكلات الجيل في ضوء الإسلام) ص ٢٨٠ باختصار ط ٢ دار الاعتصام ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

(٣) نفسه.

وقـرّر أن تلك الظاهرة ليست سـوى طليـعة لم يبلغ قـدرها بعد حـد الخطر، ولكنها طليـعة جُرّبت في سوريا، وفـي مصر، وفي المغرب الكبـير، وفي الهند، وفي تركيـا.. معركة هـائلة لها غبارها، ولـها أسلحتهـا، ولها ضحـاياها، ولها عواقبـها التي **ذهبت بوحـدة الأمة، وفتـحت في حصـونها الثغـرات لأشتـات الآفات والنكبات**[1].

ولا شك أنه يتـضح للدّارس لأحوال أمـتنا في عصـرنا الآن (عام ٢٠٢٢م) أن الخطر قد حـدث في واقعـها بشكل ينذر بحـدوث ما هو أخطر إن لم يُعـالج تيار التغريب العاتي بطريقة علمية مدروسة وتقوم بهـا هيئات ومراكز بحوث متخصصة في مجـالات الثقافة والعـقيدة والنظام الاجتـماعي، **ويصبح الهـدف إنقاذ حـضارة الإسلام نفـسهـا واسترجـاع الأمة لهويتـها الأصليـة؛ ليتمكن من صـد هجمـات الغزو الثقافي التي لم تتوقف منذ الاستعمار الفكري.**

ولقد سلكـت إيطاليا في ليـبيا نفس الطريق الذي سلكتـه فرنسـا في الجزائر، فادعت أن أرض ليـبيا امـتداد لشبـه الجزيرة الإيطالية، ولجـأت إلى حرب الإبادة بالنسبـة لأغلب السكان، كما لجـأت إلى طلينة الباحثين بحـملهم على ترك اللغة العربـية وتعلم اللغـة الإيطالية.. وبذلت الإدارة الإيطاليـة جهـداً كبـيراً لتنصـير الليبيين.. ومنعت طلاب الدراسات الإسلامية من السفر لمصر للالتحاق بالأزهر أو إلى تونس للالتـحاق بجامـع الزيتونة. واتجهت إيـطاليا إلى القـضاء على **الثقـافة العـربيـة الإسلامـيـة**، فـأغلقت المدارس الإسلامـيـة ولم تـسمح بحلقـات العلم بالمساجد[2].

هذا، وليس من قبيل المصادفة أن يحدث في مصر مثلما حدث في سوريا، كما ذكر آنفًا الأستاذ المجذوب؛ لأنه إذا قلّبنا صفحات تاريخ فرنسا الاستعماري اتضح

---

(١) نفـسـه ص ٢٨٥ ولاحظ تاريخ طبع الكتـاب؛ لأن أوضـاعنا تحـولت إلى الأسـوأ! ولعل أبرزها ظاهرة إجهاض ما سُمّي بحركات (الربيع العربي) في مصـر وليبيا وتونس والسـودان! إذ يقف وراءها المـتغربون خريجو المدرسة الاستعمارية!

(٢) د/ عماد الدين خليل (في التأصيل الإسلامي للتاريخ) ص ٢٠٧ ط دار الفرقان -عمان ١٩٩٨م.

لنا صحة وصف الشيخ الإبراهيمي بأنه أخبث أنواع الاستعمار بقوله (جاء الاستعمار الفرنسي الجزائر يحمل (السيف والصليب)! و(نحن نضيف «والفرنسة أيضًا»، وكان استعمارًا دينيًا مسيحيًا عاريًا، وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم.. وبروح تشع الحقد وتفور بالانتقام)(١).

ولكن ما أصاب مصر كان أكثر ضررًا وأشد خطرًا؛ إذ أنشأت فرنسا بواسطة المستشرقين مدرسة (**الألسن**) ونسبوها إلى (**رفاعة الطهطاوي**). ولكن التحقيق العلمي بواسطة الشيخ محمود شاكر برهن على أنها كانت ثمرة من ثمار الاستشراق ودهائه الذي احتضنوه وربّوه وغذّوه ونشّأوه مدة إقامته في باريز(٢)، وقد أحدثت صدعًا مبينًا في الثقافة الإسلامية التي تميّزت عن سائر الثقافات بأنها «ثقافة متكاملة» أي تجمع بين علوم الدين وعلوم الحضارة(٣) ومنذ ذلك الحين حدثت الفجوة بين أجيال الأمة الإسلامية فشطرت ثقافته(٤)

هذا، وسنعرض لنموذجين: الأول ذو الصلة بمناهج التعليم الأوروبية، والثاني تشويه الحضارة الإسلامية بالكتب المدرسية.

نموذج للتعليم بالمدارس الفرنسية بمصر:

الأولى: وهو عبارة عن تجربة عملية خاضتها الدكتورة ليلى عنان-وهي أستاذة الحضارة الفرنسية جامعة القاهرة- نلخصها كما وردت على لسانها:

قالت (ما الذي كانت المدارس الفرنسية بمصر تدرسه لتلاميذها؟ لقد لقنتنا تلك المدارس -وكنت من تلميذاتها- اللغة الفرنسية وكأننا من الفرنسيين، وكنّا نحصل

---

(١) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (عيون البصائر) ص ٦٣ الشركة الوطنية بالجزائر -بدون تاريخ.

(٢) محمود شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص ١٤٢ .

(٣) محمود شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص ١٤٢ .

(٤) فضلاً عن الاضطراب الذي أصاب الأجيال، وقد عبّرت عنه الدكتورة عائشة عبد الرحمن بقولها (فنحن جميعًا أبناء جيل أعوزه التعاصر الثقافي في مرحلة التلقي والتكوين والتأثير: فينا من تلقى زاده الأول من نبع شرقي صميم حصّنته ضد تيارات الفرنجة الوافدة، وفينا من لا زاد له إلا الفكر الأجنبي، وقد قضى مرحلة الحضانة العقلية والتكوين النفسي في بيئة عزلته عن وجود أمته.. ومع هذا فإنها -بدافع عدم اليأس- استطردت قائلة، ولكن الأمة لم تفقد وعيها في دوامة هذا الضجيج الهادر! (مقال بعنوان (تراثنا بين شرق وغرب) كتاب (التراث العربي- دراسات) (جمعية الأدباء سنة ١٩٧١م بالقاهرة).

على الشهادات الفرنسية، من «كفاءة» و«بكالوريا» مصدقة من السفارة الفرنسية، بعد أن تجيء إلى مصر بعثة من الأساتذة الفرنسيين ليمتحنونا في نهاية كل عام دراسي.

والكتاب الذي نقدمه الآن، كان مقرراً على ما يعادل (الآن) السنة الثانية الثانوية وكانت سنة مهمة جداً؛ إذ كانت الجزء الأول مما يعادل «الثانوية العامة».

وقد قرر هذا الكتاب -المطبوع سنة ١٩٤٨- لتدريس حقبة «الثورة والإمبراطورية» والنصف الأول من القرن التاسع عشر لمؤلفيه «ماليه» و«إيزاك».

ويعد هذا الكتاب من أهم ما درس في المدارس الفرنسية، ويرد ذكره كثيراً عند كبار المؤرخين لكونه من تأليف «ماليه وإيزاك» اللذين كوّنا الوعي القومي لأجيال من التلاميذ الفرنسيين.. والمؤلفان من المدرسة «الجمهورية الملحدة» التابعة للحكومة العلمانية، وهي من مروجي أفكار ثورة ١٧٨٩، التي عاشت في حرب دؤوب مع تعاليم المدارس الخاصة، التابعة للكنيسة... والمؤلفان لا يريان في بونابرت المنقذ الذي حافظ على مبادئ ثورة ١٧٨٩، أو أنه كان امتداداً لها. ولذا فلا غضاضة عندهما أن يقولا ببساطة شديدة إن الحملة الفرنسية قد انتهت بالفشل...

وكان هذا الكتاب -المطبوع سنة ١٩٤٨- لونه أخضر، وعلى غلافه هلال أحمر مكتوب بداخله: «طبعة خاصة بمصر» سبب ذلك أن جزءاً خاصًا قد أضيف في نهاية الكتاب، عن «تاريخ مصر» يتحدث عن محمد علي وبدايات مصر الحديثة ١٧٩٨-١٨٤٩.

ما يهمنا هنا، طبعًا هو ما يخص الحملة، وكيف كان تاريخها يلقن للتلاميذ المصريين في تلك المدارس، التي كان يذهب إليها -أيام الملكية- أولاد علية القوم أو من يتشبه بهم الذين يتخرجون فيها وهم لا يتحدثون حتى العربية، وإن فعلوا، فيكون لما بذله الآباء من مجهود ذاتي بعيدًا عن المدرسة. وقد شكلت الفتيات

الغالبية الساحقة من تلاميذ تلك المدارس الفرنسية -من مدارس علمانية ومدارس رهبان أو راهبات-وهن الفتيات اللاتي يصبحن بعد ذلك أمهات، يلقن أولادهن ما تعلمنه في شبابهن ولم يقرأن غيره من كتب علمية..

والخلاصة فإن الكتاب يوهم القراء بأن الشعب المصري ومحمد علي كليهما مدين للاحتلال الفرنسي!!

وتتصدى الدكتورة ليلى عنان لهذا التزوير فتقول (إن تاريخ مصر السابق على الحملة يدل على أن مصر لم تكن في حاجة إلى من «يحركها»، وخير دليل على ذلك سرعة مقاومة الغازي الفرنسي قبل حتى أن يتحرك المماليك أنفسهم لصد الهجوم المقبل من القاهرة، ناهيك عما كان يحدث من قبل)[1].

أما النموذج الثاني فهو للدكتور إدريس الكتاني الذي استعرض فيه التاريخ الزمني لأوروبا وموقف مواجهة وعداء للدين المسمّى التقليدي للحضارة الغربية بعقيدته اللاعقلانية وكهنوته ورهبانيته وتاريخه، ولم تختلف نظرة شعوب هذه الحضارة إلى الأديان الأخرى، وخاصة الإسلام، بل ترسّبت في أذهانها الصورة السيئة التي رسمها المستشرقون والاستعمار خلال قرون من العداء والصراع مع الحضارة الإسلامية، فوصفوه بالرجعية، والتخلف، والبداوة والقوة والعنف، والقبلية والطائفية، على اعتبارها خصائص أو نتاج الفكر الإسلامي.

وتبيّن من الأبحاث في الكتب الدراسية ومناهجها التاريخية والجغرافية والحضارية في بعض الدول الأوروبية وفي الولايات المتحدة الأمريكية نفسها تأكيد هذه الحقيقة.

بل إن الكتب والمناهج التعليمية التي ورثها أهل المغرب العربي عن الاستعمار مليئة بخطوط ومحتويات هذه الصورة السيئة.

على أن هذا المفهوم لم يقتصر على شعوب الغرب وحدها، فالأجيال العربية

---

(١) مع الاختصار الشديد لصفحات ٢٧٤/٢٧٧ كتاب (الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ) الجزء الثاني كتاب (الهلال) -العدد ٥٧٤- أكتوبر سنة ١٩٩٨م.

الإسلامية التي تعلمت في الغرب أو درست في أوطانها في المدارس الغربية، أو طبق المناهج الغربية -وهي التي تتصدر الشرائح العليا في أغلب البلاد العربية والإسلامية، هذه الأجيال لم تكن على أحسن تقدير واقعة تحت تأثيره الفكري، الثقافي بنسبة خمسين بالمائة، وهذا هو سر انسياقها وتبعيتها، بوعي أو بغير وعي، **للتيارات المادية للفكر اللاديني الغربي، ووقوفها من قضية الدين ببلادها موقف الحياد أو اللامبالاة** [1].

الجامعات في الشرق العربي:

حصر الأستاذ إبراهيم خليل تلك الجامعات فيما يلي:

١- جامعة القديس يوسف في لبنان -وهي جامعة بابوية كاثوليكية وتعرف الآن بالجامعة اليسوعية.

٢- الجامعة الأمريكية ببيروت، وقد أُنشئت عام ١٨٦٥ وهي جامعة بروتستانتية.

٣- الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد كان القصد من إنشائها **أن تكون قريبة من المركز الإسلامي الكبير وهو الجامع الأزهر.**

٤- الجامعة الأمريكية بإستانبول.

٥- الكلية الفرنسية في لاهور، وقد أسست في لاهور باعتبار أن هذا البلد يكاد يكون مثالاً للبلد الإسلامي في تكوينه في شبه القارة الهندية.

ولقد أبانت هذه الكليات عن أغراضها السافرة التبشيرية كما جاء في منشور الجامعة الأمريكية ببيروت؛ إذ إن غاياتها أن تعلّم الحقائق الكبرى في التوراة [2].

(١) د/ إدريس الكتاني، مقال بعنوان (كيف نفهم التطرف الديني) ص ٧١/ ٧٢ باختصار -كتاب (العربي) ١٥/ ١/ ١٩٨٧م.

(٢) الأستاذ إبراهيم خليل أحمد (الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية) ص ٥٥/ ٥٦ ط مكتبة الوعي العربي - اغسطس سنة ١٩٧٢ وكان نصرانيًا مصريًا قبل إسلامه).

أما عن منهجه في كتابه فقد لخّصه بقوله (وأنا اليوم إذ أقدّم كتابي هذا لا أبتغي إلا خدمة الإسلام والوطن العربي الكبير وقد توخّيت فيه الصدق معتمداً على البرهان المادي الملموس عملاً بما يوجبه الضمير المسلم الخالص من غير حقد أو تحامل)[١].

علمًا بأن بيان القصد من الجامعة الأمريكية لكي تكون قريبة من الأزهر، له دلالة لا تخفى على أحد. . ولقد لفت انتباهنا -بدورنا- بعض أقوال رئيسها الجديد حيث تحدث عن (الإبداع والتفكير الحديث) وما سمّاه «التعليم الليبرالي» ثم صدمنا بعبارة تحتاج إلى تفسير؛ إذ قال بالحرف الواحد (فلا بد أن يكون لدينا المرونة والشجاعة لتأهيل الطلاب بالتفكير خارج الصندوق)[٢]، وعندما سألته مندوبة (الأهرام) عن رؤية الغرب للشخصية العربية والمسلمة لما له من مؤلفات ومحاضرات حول الإسلام، أبدى دهشته من حجم الفرز على الأساس الأيدلوجي والحضاري والثقافي. . ولم يجب عن السؤال!

إن عبارته الملتوية توحي بأن تلك الجامعة تؤدّي دوراً مشبوهًا يثير القلق حول شبابنا الملتحق بها!

---

(١) نفسه ص ٢١ .

(٢) محاورته مع مندوبة الأهرام ووصفت (الأهرام) الجامعة بأنها لعبت -على مدى أكثر من قرن- دوراً تنويريًا وتعليميًا قويًا -لالتقاء الحضارة العربية والإسلامية بالحضارة الغربية!

ويثير دهشتنا تلك المجادلة المتبادلة بين الجريدة ورئيس الجامعة على حساب التاريخ الصحيح وواقعنا المعاصر؛ إذ شغل أحد رؤسائها (جون بارو) عضوية في بعثة تبشيرية، وكان يجيد اللغة العربية!

نبذة عن نشأة الجامعات المصرية
ودور أتباع حركة التغريب في تأسيس مناهجها

إن حركة إحياء التراث الإسلامي -وهو مرآة حضارتنا العظمى- تقتضي أن يحتل مكانته في الجامعات، ويتطلب تضافر الجهود والتخطيط وفق مناهج علمية تربوية لإزاحة الكم الهائل من آثار مناهج التغريب التي نبعت من جامعاتنا؛ إذ أُنشئت في الأغلب بواسطة المستشرقين الذين صبغوها بصبغة الثقافة الغربية، وعلى رأسها الفلسفة[١] واستمر تلاميذهم في أداء أدوارهم.

وقصة إنشاء جامعاتنا ودورها التغريبي العلماني يحتاج إلى دراسة مستقلة؛ لنعرف مدى العبء الذي يجب أن يقوم به علماؤنا المخلصون لإزاحة الركام الثقافي الغربي الدخيل، ولكننا سنكتفي بسرد بعض الوقائع كلمحات نستخلص منها نتائج ذات مغزى.

يصف دونالد مالكوم ريد جامعة القاهرة عند إنشائها بأنها مؤسسة تعليمية تزهو بما تراه في نفسها من **عصرية علمانية**[٢]، وقد تولى المستشرقون وغيرهم من الأساتذة الأوروبيين إلقاء الكثير من المحاضرات في هذه المؤسسة الناشئة، وهي تشق طريقها بصعوبة في سنواتها الأولى.

---

(١) بعد أن عرض الدكتور التفتازاني -رحمه الله تعالى- للصراع بين المذاهب الفلسفية، قال: وهكذا ينقل الأساتذة الصراع الأجنبي حول الآراء والمذاهب الفلسفية إلى أرض العروبة والإسلام، وكان تخصصهم الجامعي في هذا الميدان من الدراسات يفرض عليهم فرضًا ألا يغفلوا ذاتيتنا وتراثنا الفلسفي عند تقييم ما درسوه وما يدرسون؛ لهذا ليس بُدًّا أن نؤكد ذاتيتنا بإزاء فكر العصر).

بحث بعنوان (منهج إسلامي في تدريس الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة في الجامعة ص ٣٦٥ مجلة (الجمعية الفلسفية المصرية) العدد الرابع -السنة الرابعة- يناير سنة ١٩٩٦م.

(٢) دونالد مالكوم ريد. ترجمة إكرام يوسف. دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة ص ٩٥ -مكتبة الأسرة ٢٠٠٧م.

وكان بعضهم يقوم بتدريس الفلسفة الإسلامية والأدب العربي، وقد كرّس المستشرقون خبراتهم لخدمة الإمبراطورية الغربية، وقد قام كل من نلينو وفين وماسيستزن، وكريزويل وسنارك وهرجرونج، بمعونة حكوماتهم على محاربة المسلمين أو السيطرة عليهم[1].

وقامت جامعة فاروق (الإسكندرية حاليًا) بالتركيز على دراسة الحضارة الإغريقية والرومانية والتاريخ الأوروبي الحديث، وكانت جامعة عين شمس تعكس أوضاع العصر باتباع بعض التوجهات الأمريكية[2].

ومنذ الخمسينيات فصاعدًا، لقيت الجامعة الأمريكية اهتمامًا من الدوائر الرسمية المصرية والأمريكية معًا، وكان رئيسها السابق (جون بادو) عضوًا سابقًا في بعثة تبشيرية ويجيد الحديث بالعربية.

وعاد المصريون الذين تخرجوا في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية إلى جامعة القاهرة حاملين في أذهانهم النموذج الأمريكي.

ولكن أعين علماء الإسلام المخلصين كانت تراقب ما يدور داخل أروقة الجامعة، يقول المؤلف:

فقد هاجم النقّاد -خاصة من الأزهر- التيار التغريبي بسبب اقتباسه من أوروبا أمورًا شديدة الصلة بالهوية الدينية والقومية، كما اتهموا المستشرقين بالتحالف مع الإرساليات التبشيرية لهدم الإسلام، ومن ثمّ استنكروا إقبال الجامعة على تعين المستشرقين وحلفائهم من المصريين الذين تدربوا على أيديهم.

كما ثار جدال حول القضية نفسها في عدة منابر مهمة من بينها مجلة رشيد رضا (المنار) و(مجلة الأزهر) ومجمع اللغة العربية.

---

(١) نفسه ص ٢٠١ .

(٢) نفسه ص ٢٠٥ .

ويقول مؤلف الكتاب في النهاية: (وخلال السنوات العشر الماضية كان كل من المؤيدين والمعارضين للحركة الإسلامية يتحدثون أحيانًا كما لو كانت سوف تكتسح جميع ما في طريقها.

ولقد ذخرت الدراسات الغربية مؤخرًا بالحديث عن **(الصحوة الإسلامية)** و**(الأصولية الإسلامية)**[1].

هذا، وقد حرصت على تسجيل ما جذب انتباهي في تاريخ إنشاء جامعاتنا، لنعرف ما أُريد بنا، وكيف أصبحنا، ولكن نحمد الله عز وجل بأن تباشير الصحوة الإسلامية تجعلنا ندرك كيف أفلتنا، مع الأخذ في الاعتبار أن مهمة إرشادها وترسيخ أقدامها في وسط الأجواء العدائية المحيطة بها ليست سهلة وتحتاج إلى صبر ومصابرة، والله المستعان.

إمبراطورية مدارس اللغات والتعليم الخاص:

تحت هذا العنوان وصف الدكتور سعيد إسماعيل هذه المدارس بأنها إمبراطورية يحكمها الاستعمار على الرغم من «الثوب المصري» الذي ترتديه.. وقد بدأت هذه المدارس في الظهور في مصر بدءًا من محاولة بونابرت سنة ١٧٨٩ بالتطلع الإمبريالي للسيطرة على مصر المتسلحة بالعلم الحديث بحيث تشمل المجالات السياسية والعسكرية بالإضافة إلى المجال الثقافي الذي كان من أهم وأقوى وسائله وأساليبه «التعليم» المتمثل في المدارس والمعاهد العلمية المختلفة.

ولأن الاستعمار الفرنسي كان أسبق أجنحة الإمبريالية الغربية في الهجوم على مصر، كانت المدارس الفرنسية أسبق المدارس الأجنبية، ثم تلتها المدارس الإنجليزية فاليونانية والإيطالية.

---

(١) دونالد مالكوم ريد، ترجمة إكرام يوسف. دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة ص ٤٠ . مكتبة الأسرة ٢٠٠٧م.

ويقول أحمد أمين (والجامعة لا تأبه بالإسلام إنما تؤسس علومها ومناهجها على النمط الأوروبي). كتاب (يوم الإسلام) ص ١٥٤ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٥٢.

أما الإرسالية الأمريكية، فقد بدأ نشاطها سنة ١٨٥٤ بالشام.. وانتقل إلى مصر سنة ١٩١١. وكانت أسيوط مركز النشاط الأمريكي التعليمي الديني.

وقد استطاعت هذه المدارس التي غزت مصر إلى غرس الثقافات الغربية التي أدت بدورها إلى بعض التفكك في بعض الأسر المصرية.

أما من الناحية الثقافية.. فقد كان عدم إشراف الدولة على هذا التعليم أثره السيئ في أن تترك الفرصة للمدارس الأجنبية في أن تقوم بما تريده من دعاية وتوجيه للتلاميذ، وتشكيلهم وفق ما يرغب أصحاب هذه المدارس، ومن هنا كانت الكتب المستعملة في المدارس الأجنبية حافلة بصور التوجيه للدولة التابعة لها المدرسة.. كذلك ساهمت هذه المدارس في إضعاف اللغة العربية لدى تلاميذها...[1].

وفي مناخ الانفتاح، انتشرت مدارس اللغات عقب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، واندفع أولياء الأمور إلى التكالب على إلحاق أبنائهم بهذه المدارس، فقد بدأت تنتشر الأنشطة التجارية ذات الطابع الأجنبي في مصر من بنوك وفنادق وتوكيلات.. مما أظهر الحاجة إلى استخدام «عمالة» تتقن اللغات الأجنبية بصفة عامة واللغة الإنجليزية بصفة خاصة وهي لغة الغازي الجديد الأمريكي[2].. هذا، وقد أفصح الدكتور سعيد إسماعيل في مقدمة كتابه أنه عرض فقط لمشكلات التعليم في مصر -قبل الجامعي- وأن موضوع التعليم له جوانب أخرى[3].

وللدكتور سعيد إسماعيل مؤلفات وبحوث في موضوع تخصصه نوجه عناية القراء إليها، منها بحث بعنوان (التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادي

(١) د/ سعيد إسماعيل علي (محنة التعليم في مصر) ص ١٨٣/١٨٥ باختصار كتاب (الأهالي) العدد الرابع -نوفمبر سنة ١٩٨٤م.

(٢) نفسه ص ١٨٦.

(٣) نفسه ص ٨/٩.

والأستاذ الدكتور سعيد إسماعيل محمد أستاذ أصول التربية -جامعة عين شمس وقد أمضى في مجال التربية والتعليم قرابة ربع قرن (تاريخ طبع الكتاب سنة ١٩٨٤م) بارك الله في عمره ونفع بعلمه.

والعشـرين)، وهو نموذج يعبّر عن آرائه في هذه القـضية.. وسنعرض في عـجالة لبعضها:

- إنه الصـراع الأيدلوجي الحـالي بين (النمـوذج الحـضاري الغـربي) و(النمـوذج الإسلامي).

- أنه يقرّر أن الدين ليس مـجموعة عقائـد أو شعائر أو أدعية. إنه يسـتهدف بناء الشخصية ويسعى إلى توجيه الإنسان وإرشاده.

- يرى أن دراسة التربية الإسلامية يـنبغي أن تستند إلى الأصل الكبير وهو الكتاب والسّنة.

- يؤكد على ضرورة أن يشـمل الإعداد المهني للمعلم الجانبين الأساسيـين: الثقافة الإسلامية، والعلوم التربوية والنفسية[1].

- وعن (الإنسان المـنشود) يقول: وغـاية العمليـة التربوية في كل زمـان وفي كل مكان أن تربّي شخصيـة إنسانية تتمثل في كل أو معظم مـا تأمله الأمة لغدها.. والتربية الإسلامية أولى بذلك، فهذا الإنسان هو الذي كرّمه الله تعالى على سائر خلقه، وهو الذي خلقـه في أحسن تقويم وأجمل صورة، وأودعـه من المقومات مـا يعينه على أن يتسـيـد كل ما سـخره لـه المولى عز وجل مما خلقـه في هذا الكون...

نشاز الألحان في أوركسترا التعليم:

ومع تعدّد وتنوع المنظومات التعليمية في مصـر خصّص لها الدكتور حامد عمّار فصلاً في كـتاب عرض فيـه لذلك التعدّد والتنوّع، واختـار له عنوانًا مطابقًا لتلك الظاهرة -وهو (مظاهر التعدّد في المنظومـات التعليمية «نشاز الألحـان في أوركسترا التعليم»).

(١) بحث بعنوان (التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين) ص ٤١/ ٥٠/ ٥٧ (مجلة المسلم المعاصر -جمادى الآخرة ١٤١٨هـ أكتوبر سنة ١٩٩٧م) باختصار، والبحث يستغرق نحو ثلاثين صفحة من القطع الكبير.

وسنعرض لبعض فقراته فيما يلي:

- لقد أصبح من الواقع أن مجتمعنا الآن توجد به أربع منظومات للتعليم، ولم تعد قضية الاختلاف بينها كما كان يُقال أوائل السبعينيات من القرن الماضي، بين الحكومي والأجنبي، بأنه مشكلة ثنائية التعليم بين الحكومي والأزهري، لكنها تشعبت اليوم إلى رباعية من المنظمات المتكاملة، تتألف من مراحل التعليم الأربع -رياض الأطفال، والتعليم الأساسي، والثانوي والجامعي/ العالي وتجسّدت في كل من منظومة التعليم الحكومي، والتعليم الخاص المصري ?والتعليم الخاص ذي الطابع الأجنبي، والتعليم الأزهري)[١].

- ويتمثل تعدد المنظومات الأربع في التباين في ملكية المؤسسة ومبانيها، وإمكانياتها، ومسمّياتها، وإداراتها، ومناهجها، وأنشطتها التعليمية، وتكلفة التعليم بها، وأزياء طلابها، وطقوسها المدرسية والجامعية.

- أما التباعد في المناهج فيتضح بين المدارس الحكومية والخاصة المصرية، والمدارس الأجنبية، كمدارس اللغات فإنها تلجأ إلى صفة الحداثة أو الدولية أو المستقبل.. وتزهو في معظم الحالات بكتابة أسمائها باللغة الإنجليزية على أسطول أتوبيساتها كما تلتزم في الغالب بأسماء دولها البريطانية أو الفرنسية أو الألمانية أو الكندية[٢].

- أما الجامعات الخاصة فإن صدور القرار الجمهوري بإنشائها ولوائحها يعني حريتها في تنظيم مسيرتها اليومية. ولا يتطلب من المجلس الأعلى للجامعات الخاصة إلا اعتماد الشهادات التي تمنحها[٣].

- أما الجامعات التي تمثلها الجامعة الأمريكية أوجامعة سنجور الفرنسية فهي مستقلة بذاتها ومجالسها، **ولا تسمح لأحد بالتدخل في أمورها!!!**[٤].

(١) د/ حامد عمار -د. صفاء أحمد (المرشد الأمين لتعليم البنات والبنين في القرن الحادي والعشرين) ص ١٦٥ مكتبة الأسرة سنة ٢٠١٥م.

(٢) نفسه ص ١٦٧.

(٣) نفسه ص ١٦٨.

(٤) نفسه ص ١٦٩.

- ونأتي أخيراً إلى نوعين من التعدّد والتباين بين منظومة التعليم الحكومي ومنظومتي التعليم الخاص والأجنبي، وهما: تكلفة التعليم، ولغة التعليم. ولا جدال في أنهما من أخطر المؤشرات للتعدد والتباين بين المنظومات الأربع[1].

- **ومبلغ القول... لقد أصيب النسيج الاجتماعي بالشروخ والتفسّخ، وزادت الهوّة بين الفقراء والأغنياء.. وتوهين التماسك العائلي والاجتماعي... والسعي نحو الهجرة[2].**

هذا، وقد اهتم الدكتور حامد عمار (اهتمامًا كبيرا بظاهرة الدروس الخصوصية وأفرد لعرضها فصلاً كاملاً تحت عنوان (جرائم الدروس الخصوصية ؟الاتجار بالتعليم كالاتجار بأقوات الشعب).. ووصفها بأنها وباء سرطاني منتشر في كل مواقع الجسم التعليمي يصيبه بالهزال والضمور؛ مما يؤدي إلى فشل معظم الإصلاحات التعليمية (ص ١٥٥).

هذا، وقد شغلت محنة التعليم في مصر جميع المهتمّين بهذه القضية، فعندما سُئلت الدكتور يمنى الخولي عن (الهمّ التعليمي) أجابت: مشكلة التعليم المصري هنا الخليط/ الغريب.

هناك تعليم حكومي وخاص وتجريبي ولغات ودولي، وإنجليزي وفرنسي وألماني وأمريكي وكندي وأزهري وياباني أيضًا!

وأستطيع القول إن مشكلة التعليم عندنا في أنه تحول إلى سلعة وليس خدمة، وقد أوجد صراعًا بين الطبقات.

والكارثة في غُربة اللغة العربية بين أهلها، والاستخفاف بأمرها، كما يؤلمني كتابة الأسماء واللافتات في المدارس باللغة الإنجليزية. وهذا لا يحدث في أي مكان في العالم. المدرس الياباني لا ينطق أبدًا الكلمة غير اليابانية أمام الأطفال.

---

(١) نفسه ص ١٧٠ .

(٢) نفسه ص ١٧٢ .

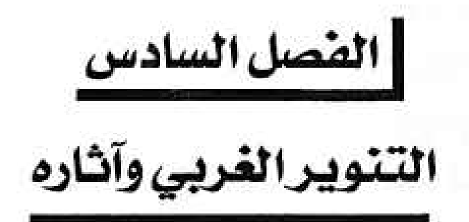
ونبدي دهشتنا البالغة من استثناء الجامعتين الأمريكية والفرنسية من إشراف الحكومة المصرية وهما في أرضنا وأغلب طلابهما مصريون!!

هل يعلم هؤلاء المستخفّون بلغتنا أن العربية هي أول لغة علمية عالمية في التاريخ، وكانت تقوم بذات الدور الذي تقوم به اللغة الإنجليزية. لقد انصهر في بوتقة العربية كل التراث العلمي الأسبق، ترجم إليها وتفاعل وتنامى، ثم ترجم الرصيد العربي إلى اللاتينية ولغات أوروبية أخرى ليقوم بدوره في خلق النهضة وانطلاقه نحو ثورة العلم الحديث)[1].

ويُلاحظ أن أعداد الجامعات الأهلية آخذة في الازدياد، ولعل آخرها الجامعة الأهلية بالعاشر من رمضان.. وصرّح أحد المسئولين بأنها ستقدم خدمات تعليمية متميزّة واستحداث تخصصات جديدة وذلك بالتعاون مع كبريات الجامعات الأجنبية. جريدة (الأهرام) بتاريخ ١١/ ٢/ ٢٠٢٢م.

---

(١) صرحت بذلك في حديثها مع محرر (الأهرام) بتاريخ ٣/ ٣/ ٢٠٢٣م.
وقد اهتم الأستاذ فاروق جويدة أيضًا بقضية التعليم فكتب مقالاً بعنوان (كيف نعيد العصر الذهبى للتعليم؟.. ومن كلماته: أن التعليم هو مستقبل أي شعب يسعى نحو المستقبل) وختم مقاله بقوله: (تبقى قضية التعليم في مصر بكل مراحله واحدة من أهم قضايا بناء الإنسان المصري بل إنها قضية أمن قومي) الأهرام بتاريخ ٢٨/ ٧/ ٢٠٢٣م.



الفصل السادس

التنوير الغربي وآثاره

إن من أقوى الأسباب التي دفعت المستغربين بالدعوة إلى التنوير الغربي أنهم اكتفوا بالنظرة السطحية وفُتنوا بالتكنولوجيا الباهرة، ولم ينقبّوا جيداً وراء هذا المظهر البرّاق بدراسة فاحصة لتاريخ حضارته والوجه الآخر لها. ولكن هذا ما قام به الدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله تعالى- الذي تصدّى لهذا النموذج المتحيّز للحضارة الغربية وفحصه، برؤية ناقدة، ومزوداً بدراسة شاملة للتاريخ؛ لهذا فقد قرّر أن عصر النهضة والتنوير في الغرب كما تلقّاه المثقفون المتغربون هو الذي بعثت فيه الفنون والآداب، أما الوجه الآخر بالنسبة لنا فهو عصر مكيافيللي وهوبز وبداية التشكيل الاستعماري الغربي وإبادة الملايين، كما يصورون الثورة الفرنسية أنها ثورة الحرية والإخاء والمساواة وإعلان حقوق الإنسان، بينما هي في حقيقتها ثورة عقلانية مادية حيث عبد فيها الإنسان العقل المادي المجرد، فلجأ للإرهاب ليصوغ الواقع بما يتفق مع هذا العقل، وقامت دولتها المركزية بتصفية كل الجيوب الدينية والإثنية باسم هذا النموذج العقلاني المادي، ثم بغزو مصر وفلسطين وجعلوا من نيتشه فيلسوف الإنسان الأعظم (**وليس فيلسوف اختفاء الإله والإنسان**)، والبنيوية والتفكيكية هي مدارس في التحليل الأدبي (وليست مناهج تفسّر رؤية معادية للإنسان)[1].

وبهذا التصحيح الذي انفرد به الدكتور المسيري وكشف به لنا لأول مرة عن الوجه القبيح لحضارة الغرب، وجب على مثقفينا المتغربين إعادة النظر جيداً في تلك التصورات الخادعة، كما أنها مغايرة تمامًا لقيم حضارتنا الإسلامية، وبقي علينا عرض النموذج الإسلامي للتنوير الحق.

التنوير الإسلامي:

عرفنا فيما سبق حقيقة التنوير في تاريخ الفلسفة الغربية الذي تخفى رذائله وشروره على المستغربين في بلادنا. أما التنوير الحق فإنه ما جاء بالوحي الإلهي،

---

(١) د/عبد الوهاب المسيري (العالم من منظور غربي) ص ٥٤/ ٥٥ ط دار الشروق ٢٠١٧م.

ولندع من خاض التجربة لأحد المهتدين الألمان ليعبّر لنا عمّا جاش في صدره عندما أسلم، واستطاع بعد التجربة التمييز بين اللونين من التنوير، فقال عبد الهادي هوفمان (إن الأساس الأول للخلاف بين المسلم والمواطن الأوروبي يكمن في مفهوم مصطلح «التنوير» ذاته، فالمسلم يرى أن التنوير بالنسبة له قد تحقق بنزول القرآن وبتحرير المسلم من الجاهلية، بينما الأوروبي الغربي يرى أن التنوير هو التحرير الكبير للإنسان وللعلوم وللسياسة من وصايا الكنيسة التي دامت ١٧٠٠ عام، كذلك التحرر من تعسف الحكم المستبد، وانطلاقًا من هذين المفهومين فإن الإحساس بالحياة ليرى الغربي مصبوغًا بالتفاؤل لخلعه سلطان الكنيسة، أما المسلم فإن إحساسه بالحياة مصبوغ بالرضا والسعادة بدينه، فإذا طُولب المسلم بأن يشعر بالتنوير الغربي -أي يقلّده- فإنه يجده غير مفهوم بل خروجًا عن القصد) [1].

وعلى ضوء قول الشاعر: وبضدّها تتميز الأشياء، فقد عبّر بذلك عن التنوير بالمعنى الإسلامي!

وهكذا فإنه عرف ذلك بعد تذوقه لذة الإيمان وطعمه، وربما لم يقرأ تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩].

وفي التفسير يقول العلامة السعدي (وهذا الخطاب يحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب، الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وإنهم إذا فعلوا

---

(١) محمد عبد العظيم علي (سرّ إسلام روّاد الفكر الحر في أوروبا) ص ٨٤ دار المنار بالمنصورة ٢٠٠٢م. وعبد الهادي هوفمان هذا هو المتحدث الرسمي باسم الحزب المسيحي بألمانيا، وهو غير الدكتور مراد هوفمان الدبلوماسي الألماني مؤلف كتاب (الإسلام في الألفية الثالثة -ديانة في صعود).

ذلك أعطاهم الله (كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِه) أي: نصيبين من الأجر: نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون عامًا يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إذا امتثلوا هذا الأمر العظيم أعطاهم الله (كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِه) لا يعلم قدرهما ولا وصفهما إلا الله تعالى: أجر على الإيمان وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى؛ (وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ) أي: يعطيكم علمًا وهدًى ونورًا تمشون به في ظلمات الجهل (وَيَغْفِرْ لَكُمْ) السيئات، (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، فلا يستغرب كثرة هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم الذي عمّ فضله أهل السماوات والأرض فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين، ولا أقل من ذلك)[1].

وفي تفسير الآية الكريمة ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

يقول العلامة السعدي في تفسيره (هذه الآية) مرتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة، فأخبر الله تعالى أن الذين آمنوا بالله وصدقوا إيمانهم بالقيام بواجبات الإيمان وترك كل ما ينافيه أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينوّر قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، وييسرهم لليسرى، ويجنبّهم العسرى)[2].

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧-١٣١٦هـ) (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص ٨٠٥ مكتبة الصفا بالازهر ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

(٢) التفسير ص ١٠٢ .

ويقول الإمام البغوي (سُمي الكفر ظلمة لالتباس طريقه، وسُمّي الإسلام نوراً لوضوح طريقه.

ويقول الإمام ابن عاشور (فالله يزيد الذين اهتدوا هدى؛ لأن اتّباعهم الإسلام تيسير لطرق اليقين، فهم يزدادون توغلاً فيها يومًا فيومًا. وبالعكس الذين اختاروا الكفر على الإسلام، فإن اختيارهم ذلك دلّ على ختم ضُرب على عقولهم فلم يهتدوا، فهم يزدادون في الضلال يومًا فيومًا[1].

وتفسير السعدي: قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ هو القرآن، يستضاء به من ظلمات الجهالة، وعماية الضلالة.

﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة. (إِلَى النُّورِ) نور الإيمان والسّنّة والطاعة والعلم والذكر[2].

(١) (القرآن الكريم: تدبّر وعمل) ص ٤٣ مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي –الرياض ط ١٠ ربيع ثان ١٤٤٢هـ.

(٢) نفسه ص ٢٠٥ .

الفصل السابع

مأزق المتغرّبين أمام أزمة حضارة العصر

«عرض ونقد»

قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]

تمهيد:

إن غايتنا من هذا الفصل هو أيضًا أمرين متصلين بقضية التغريب:

الأول: أن الاضمحلال الذي تعاني منه الحضارة المعاصرة باعتراف علمائها وفلاسفتها وساستها، يضع المستغربين في مأزق حيث زال عنها بريق الفتنة التي دفعتهم إلى تقليدها والسير في طريقها، وأصبح من واجبهم إعادة النظر في موقفهم[1].

الثاني: استرداد الثقة بأنفسنا والإعداد لأداء دورنا لخير أمة أخرجت للناس، بالتخلص من آثار الغربيين (حيث ضيقوا على أنفسهم بدخولهم في جحر الضب الذي دخلوه)[2]، أي اتّبعوا سننهم. قال الإمام محمد عبده (لا تزال الشدائد تنزل بالمسلمين ولا تزال القوارع تحلّ بدارهم حتى يفيقوا) (وقد بدءوا يفيقون من سكرتهم)، ويفزعوا إلى طلب النجاة ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم يعد لهم وسائل الخلاص، ويؤيدهم في سبيله بروح القدس، ويسير بهم إلى منابع العلم.. ويسيرون إلى المجد غير ناكلين ولا مخذولين)[3].

ويستطرد الإمام محمد عبده ليذكّر الأمة بأن الله تعالى قد وعد بأن يتم نوره، وبأن يظهره على الدين كله[4].

---

(١) يُنظر كتابنا (آراء حول أزمة حضارة العصر وسبل المقاومة) ط الدار العربية ٢٠٢٢م.

(٢) الإمام محمد عبده (الإسلام بين العلم والمدنية) ص ٢٠٣، وفي كلامه إشارة إلى حديث الرسول ﷺ (لتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه). رواه الشيخان وغيرهما.

(٣) نفسه ص ٢٣ ط٢ دار الشروق بمصر سنة ٢٠١٢م.

(٤) نفسه

ونقول: آن لنا استرداد الثقة بأنفسنا وبأمتنا كخير أمة أخرجت للناس، ونعود فنتذكّر ونذكّر غيرنا بأن علماء الإسلام هم الذين أناروا ظلمات العالم منذ أشرقت شمس حضارة الإسلام طوال عدة قرون مضت، وكانت مناهجهم وإسهاماتهم الغزيرة في جميع العلوم جعلت منهم الأساتذة الأولين لأوروبا في القرون الوسطى، ذلك في مجال العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والرياضيات والجغرافيا والجيولوجيا، وعلوم الفلك والأرصاد والزراعة والهندسة، وعلوم الحياة والطب والصيدلة[1].

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

يفسّر الإمام السعدي الآية الكريمة بقوله (هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميّزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس، نصحًا ومحبة للخير، ودعوة، وتعليمًا وإرشادًا! وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وجمعًا بين تكميل الخلق، والسعي إلى منافعهم، بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان)[2].

وخيرية الأمة في هذه الآية تتصل بتوحيد الله تعالى والفضائل والقيم الخلقية البالغة الرقيّ والرفعة، وأمام ما يتصل بتعمير الأرض بعلوم الحضارة، فإن التاريخ يسجل لهم الخيرية أيضًا. تقول العالمة الألمانية زيغريد هونكه (إن العرب هم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع. وبالإضافة إلى عدد لا حصر له من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم، والتي سُرق أغلبها ونُسب لآخرين. قدّم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهّدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطها علينا اليوم.. ومما ذكرته في

---

(١) د/ أحمد فؤاد باشا (التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارات) المقدمة ط دار المعارف بمصر ١٤٠٤هـ - ١٩٩٤م.

(٢) عبد الرحمن بن ناصر السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص ١٢٦ مكتبة الصفا ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

مقدمة الكتاب قولها (أردت أن أكرّم العبقرية العربية وأن أتيح لمواطنيّ فرصة العودة إلى تكريمها، كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم الذي حرمهم من سماعه طويلاً تعصب ديني أعمى وجهل أحمق)، ثم عزّزت موقفها النبيل بمقدمة الترجمة العربية فقالت (وأملي مخلصة أن يحتل هذا الكتاب أيضًا مكانة في العالم العربي يسجّل لماضي العرب العظيم وأثرهم المستمر على أوروبا والعالم قاطبة). كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب -أثر الحضارة العربية على أوروبا ط ٤ ص ٤٠٢ ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ٢٠١٤م والكتاب يقع في ٥٧٦ صفحة من القطع الكبير.

إن استعادة الثقة أصبحت ضرورية؛ ذلك لأن الشاغل الأساسي للمستعمر -كما وصفه جارودي- هو أن يقوّض ثقة الشعوب المستعمرة في نفسها.. لقد سعى جاهدًا ليدمّر اعتزاز الشعوب بماضيها.. كما عرقل نموّها الأصيل وجرّدها من تاريخها الخاص[1].

بل إن الاستعمار تعمّد أيضًا أن يخلق فينا عقدة النقص تجاه الغرب، فنحن بحاجة إلى (إعادة الثقة لأنفسنا، والاعتزاز بذاتنا الحضارية)[2] ولا شك أنه مما يُسهم بإعادة الثقة إلينا وإلى الأجيال الشابة. هو التوسّع في نشر محتويات هذا الكتاب وغيره من المؤلفات لعلماء غربيين استطاعوا التحرر من التحيّز الذي انتاب غيرهم، ومن ثمّ تحرّوا الموضوعية في سرد التاريخ الصحيح، ووضعوا الأمور في نصابها[3].

لا يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها:

قال الشيخ رشيد رضا (كل ما يحتاج إليه المسلمون من إصلاح وتجديد حضارة ومُلك متوقف فيهم على هداية القرآن وتنفيذ أوامر النبي ﷺ وخلفائه الراشدين

(١) (محاضرات جارودي) مجلة -الطليعة- بالقاهرة ص ١٣٩ وص ١٥٣ عام ١٩٧٠م.

(٢) في حديث للدكتورة يمنى الخولي لمحرر جريدة (الأهرام) بتاريخ ٢٠٢٣/٣/٣م، وهي أستاذة الفلسفة بآداب القاهرة.

(٣) ويقرر الدكتور حسين مؤنس بأن القول بأن الحضارة الأوربية أصبحت السبب الوحيد في كل ما سيقع في نواحي الدولة الإسلامية من الحركات والأحداث مبالغة لا يؤمن معها الخطأ، فقد فكر المسلمون في الإصلاح قبل الاتصال بأوربا بزمن طويل كتابه (الشرق الإسلامي في العصر الحديث)، ص ١٨٦- مكتبة الثقافة الدينية - بالظاهر، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

-رضي الله عنهم- ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى)[1].

وحديث الرسول ﷺ الذي رواه الإمام البخاري ومسلم، قال: (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس)[2].

وقال الإمام ابن ماجه في سننه:

(باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وساق الحديث عن العرباض بن سارية قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فوعظنا موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقيل: يا رسول الله، وعظتنا موعظة مودع فاعهد إلينا بعهد. فقال (عليكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشيًا، وسترون من بعدي اختلافًا شديداً، فعليكم بسنّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات، فإن كل بدعة ضلالة).

وقال الصحابي ربعي بن عامر التميمي لرستم قائد الفرس: (الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جورْ الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركنا أرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى يُقضى إلى موعود الله، قال: وما موعود الله؟ قال: الجنّة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي)[3].

---

(١) رشيد رضا (مختصر كتاب الوحي المحمدي) ص ٢٢ الدار العربية -منشا- الإسكندرية ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م.

(٢) اخرجه البخاري ومسلم، نقلاً عن (نور الدين فريد، كتابه: تحمل المسئولية) ص ٨٥ .

(٣) نقلاً عن نور الدين فريد، شوقي المصري (تحمل المسئولية. . .) ص ٦١ دار أويس بالإسكندرية ١٤٤٤هـ.

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (إنّا كنا أذلّ قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزّة بغير ما أعزّنا الله به أذلنا الله)(١).

وبالنظر لدورات التاريخ وتعاقب الرسل عليهم السلام، سجّل علماء الإسلام **وقائع التاريخ كميدان للدفع بين الحق والباطل**، وتطابق منهج المؤرخين مع هذا التصور، ونرى ذلك واضحًا عند الطبري وابن الأثير وابن كثير؛ (**فإن تاريخ العالم هو تاريخ الرسالات السماوية التي أعطتنا المفهوم الصحيح عن الإنسان وقضاياه، وعلاقته بحقائق الوجود من حوله وإعانته على السير مهتديًا بها**.. فلم ينقطع حبل الله عز وجل بينه وبين عباده منذ درج أول إنسان على وجه الأرض وهو آدم عليه السلام، وقد عرفت البشرية طريق الإيمان بالله وتوحيده منذ أن كان للإنسان تاريخ على ظهر الأرض.. والرسالات السماوية من مهدها الأول كانت **واضحة المعالم**، فهي دائمًا شق فيها لأمور العقيدة، والشق الثاني للشريعة، فشق العقيدة يتناول ما يدعو إليه كل رسول من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، **فحقائق العقيدة ثابتة** في كل الرسالات وفي كل الأزمان والأماكن.. لا تتغير ولا يسوغ بأن تكون محلاً للاجتهاد.. والعبادات كلها كذلك (فلا يُعبد الله إلا بما شرّع)، والإسلام نسخ ما قبله من الشرائع(٢).

هذا، ويضيف الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أن كتب (الحوليات) التي تعالج التاريخ مسلسلاً فيقول (وكثيرًا ما يبدأ المؤرخون بالكلام عن بدء الخليقة وقصة آدم وحواء، ثم ذكر الأنبياء والرسل والأمم البائدة)(٣).

ويجدر بنا ذكر قصة (داود وجالوت) ومغزاها لصلتها بالجهاد، وحقيقة الدفع بين الحق والباطل حتى قيام الساعة. وفي تفسير السعدي قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ

---

(١) نفسه ص ٤٩ .

(٢) عبد الحليم خفاجي (حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون) ص ٢٥٥ دار العلم -الكويت ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

(٣) د/ سعيد عبد الفتاح عاشور (حضارة الإسلام) ص ٧٦ ١٤١٨هـ-١٩٨٨م بدون اسم الناشر.

اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة : ٢٥١]، أي باستيلاء الكفرة والفجّار، وأهل الشر والفساد ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم، وعن دينهم بما شرعه وبما قدره.

فلما بيّن هذه القصة (أي داود وجالوت) قال لرسوله ﷺ: «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ»..

ثم شرح العلامة السعدي في تفسيره لما تقدّم من آيات الله تعالى مما في تلك القصة من فوائد.. منها: فضيلة الجهاد في سبيله وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة..[1].

التجديد الديني ودوره في تاريخنا:

يذكر الأستاذ أنور الجندي سنن التاريخ الإسلامي الذي من أبرزه (القدرة على الخروج من دائرة الضعف والتخلف بالتماس جوهر القيم الأساسية.. فكلما ضعفت حياة (المجتمع الإسلامي) وانحرف ظهرت (قوة شابة دافعة) تحمل اللواء، وكلما تحوّل منهج (الفكر) واضطرب ظهر مصلح مجدّد يردّه إلى الجادة، وهكذا عاش تاريخ الإسلام بين التحدّي ورد الفعل، تعتريه الأحداث قوة وضعفًا، ولكنها لا تقضي عليه. تهاجمه القوى من الخارج فتؤثر فيه حثيثًا، ولكنه لا يلبث أن يتماسك في مواجهتها فينتصر عليها ويذيبها في بوتقته، وتصارعه القوى من الداخل فتبني مقوماته مجددة مرة أخرى قادرة على إعادة صياغة الحياة)[2].

وبمراجعتنا لتاريخنا نرى أنه ما خلا عصر من العصور إلا وظهر فيه مجدّد أو أكثر، وذلك طبقًا لحديث رسول الله ﷺ:

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها».

هذا، وقد قام الدكتور عمر فروخ بدراسة قضية التجديد الديني في الإسلام بكتابه (تجديد في المسلمين لا في الإسلام) دراسة وافية، من النواحي التاريخية

---

(١) تفسير السعدي ص ١٠٠

(٢) أنور الجندي (اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار) ص ١٢/١١ ط دار الاعتصام -منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى.

والحضارية والدينية، منوهًا بالاختلاف الكبير بين الإسلام والنصرانية في تصور التجديد الديني، ومرجحًا ما رآه صوابًا، مستبعدًا الفهم الخاطئ، ومن أقواله (إن الأمم كالأفراد، تمر في أثناء الحياة في أطوار مختلفة صعودًا وهبوطًا فتخمل أو تتقهقر ثم تتنبه أو تترقى.. وقد تحقق ذلك القانون الحضاري في تاريخنا طبقًا لحديث الرسول ﷺ السالف الذكر[1]، وسرد أسماء بعض المجددين مبينًا دورهم في محاولاتهم العودة بالمسلمين إلى الطريق السوي الذي كان المسلمون قد انحرفوا عنه في الفترات المتعاقبة، في العقيدة والعبادة والأخلاق والسياسة، فكانوا ينجحون في ما يقصدون إليه.. أي يريدون أن يفهم الناس -كلما انتكسوا في جاهلية- حقيقة الإسلام[2].

وفي عصرنا الحديث تزامن فيه وجود صفوة من علماء الإسلام أسهم كل واحد منهم بنصيب وافر في «التجديد» في إحدى القضايا المعاصرة والتي كان من دأب المتغربين إثارتها نقلاً عن المستشرقين من اليهود والنصارى لإثارة البلبلة في أذهان المسلمين، وظنًا أنها بمثابة أسلحة للطعن في الحضارة الإسلامية وأنها دون الحضارة الغربية..

ولنعرض لبعض النماذج.. منها:

أولاً: الغلو في دور العقل في نظرية المعرفة حتى قدّموه على الشرع، تحت زعم (العقلانية) الوافدة من أوروبا.

ثانيًا: في عصر فتنة الماركسية الملحدة، قام العلامة وحيد الدين خان بتأليف كتابه بعنوان (الإسلام يتحدى)، حيث برهن على أن الدراسات الحديثة أثبتت صدق ما ورد بالقرآن الكريم.

ثالثًا: اقتبس بعض المتغربين من تاريخ أوربا فكرة عداء العلم للدين هناك، غافلين تمامًا اختلاف كل من الحضارتين الإسلامية والغربية في اعتقادهما بالدين.. وقام الدكتور الغمراوي بإيضاح بطلان ذلك التصور.

---

(١) الحديث رواه أبو داود بسند صحيح. د/ عمر فروخ (تجديد في المسلمين لا في الإسلام) ص ٢٠٥ ط دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٦هـ-١٩٨١م.

(٢) نفسه ص ١٠.

وكل ما سبق يتصل بالجناح الثقافي للحضارة الإسلامية، ونناقش فيما يلي تلك القضايا المثارة وهي مواضع الخلاف مع المتغربين.

النموذج الأول:

النظرية الإسلامية في المعرفة ودور العقل:

من القواعد المتفق عليها بإجماع المسلمين أن القرآن الكريم هو (كلام الله وكلمته الأخيرة الموصى بها إلى البشرية، فكل لفظ فيه من عند الله.. هكذا آمن المسلمون على مر عصورهم).. ولا شك في أن كلام الله يحتوي من الأسرار والحكم ما لا يمكن أن يشابهه فيه كلام بشر كائناً من كان.. وبعبارة أخرى فإن القرآن كتاب الإسلام الأول دون منازع، وكل ما يمكن أن يحتويه (الإسلام) في شتى اتجاهاته ومجالاته لا بد أن تتضمنه آياته بصورة أو بأخرى[1].

ويقول الدكتور محمد بلتاجي -رحمه الله- إن المبدأ أو الحكم أو الرأي الذي تؤيده آيات القرآن يحظى على الفور بصفة استحقاق القبول من جماهير المسلمين.. كذلك يقرر أن نصوص الكتاب والسنة الصحيحة كلها متواترة قطعية الثبوت.. وأن العقل البشري كاشف عن الحكم وليس مصدراً له[2].

إن هذه القاعدة لا بد أن ترسخ في الأذهان لكل من يبحث في مجالات الفكر الإسلامي، ولكن مما يثير دهشتنا أن بعض المثقفين المعاصرين يخالف تلك القاعدة -متأثراً بتيارات ثقافية وافدة من الخارج ومنها الغلو في تقدير العقل وهو ما يسميه (بالعقلانية)- ومن ثم يوضع القرآن الكريم في مصافّ الفكر الفلسفي والآراء

---

(١) د/ محمد بلتاجي (بحوث إسلامية في التفسير والحديث وأصول التشريع) ص ٤/٥ ط مكتبة الشباب - المنيرة- القاهرة سنة ١٩٧٤م.

(٢) نفسه ص ٢١٤ وص ٢٥٨ ومن مصادره كتاب (Time and tide) لمؤلفه استيوارت كوليس ترجمة الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد. وفيه يضرب مثالاً عن عجز العلماء المطلق عن معرفة (ماهية) الأشياء فإن اللون الأخضر يقابل ما يصفه العلماء في الفيزياء بأنه هو الذبذبات المتكررة عدداً معيناً من المرات في الثانية الواحدة وسط افتراض محض.. ومهمة رجال العلم هي أنهم يبينون لنا كيف تحدث الأشياء، لذلك نجدهم يصفون ولايعللون أبداً، وهم بعيدون كل البعد عن التأويل. ص ١٥٦ .

العلمية، بينما يتطلب المنهج الإسلامي الصحيح في المعرفة البشرية أن يحتل القرآن الكريم مركز الصدارة لتفرّده بالصفات الخاصة به وحده والتي عرضناها آنفًا!

ولا يظن أحد من المتسرعين بالحكم أن ذلك يتنافى مع (حرية الرأي)(١)، ولكننا نستند إلى ما حفلت به التجارب الإنسانية على مر العصور في مجالات العلم والفلسفة ونظم الاجتماع والاقتصاد والقانون والدساتير أن الفكر الإنساني، مهما بلغ صاحبه من درجة النبوغ أو العبقرية، فإنه يحمل في ذاته عوار النقص والقصور؛ لأن نتاج الإنسان المخلوق الناقص بحكم تكوينه وخلقته، ونحن في غنى عن التأكيد بدعوة القرآن الكريم المسلمين للنظر والتدبر والتعقل في آيات كثيرة تجلّ عن الحصر، ويعرف هذه الحقيقة كل من يدرس الآيات القرآنية بموضوعية وتجرّد من الانحياز. ونكتفي بمثال واحد قدمته لنا عالمة مقارنة الأديان الإنجليزية أرمسترونج، فقد أوردت الآية القرآنية التالية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ثم علّقت بقولها (ولكن القرآن لا يطلب من المسلمين أن يتخلوا عن العقل، فالآيات موجهة إلى «قوم يعقلون» و«بقوم يعلمون» إلى الآيات في العالم الطبيعي وأن يتدبروها بعناية، وقد ساعد هذا الاتجاه على تنمية التأمل والاستطلاع الذكي التي مكّنت المسلمين من إرساء وتطوير تراث رائع في العلوم الطبيعية والرياضيات، ولم ينشأ في يوم من الأيام أي صراع بين البحث العلمي العقلاني وبين الدين في التراث الإسلامي على نحو ما اتضح في القرن التاسع عشر عندما أحس المسيحيون أن مكتشفات لايل وداروين تؤدي إلى تقويض الدين تقويضًا لا قيام بعده)(٢).

---

(١) كالقول بأن الإيمان بالحرية هو الإيمان بالعقلانية من هذا المنطق، فالأصل في الفعل الحر هو العقل!

(٢) كارين أرمسترونج (محمد ﷺ) ص ١٥٣/ ١٥٤ ترجمة د/ فاطمة نصر ود/ محمد عناني، ط٢ سطور بالقاهرة سنة ١٩٩٨م.

هذا، وقد عـرض ابن تيمـية بإسـهاب لقـضيـة صلة العقل بالشـرع، وناقش المتكلمين والفلاسفـة بكتابه (درة تعرض العقل والنقل) في أحد عـشر مجلداً[1]، ونحـيل إليه البـاحـثين عن الحق لتطمـئن قلوبهم وعـقـولهم أنه لا تعـارض بين (صريح المعـقول وصريح المنقول) وهو اسم ثان لنفـس الكتاب ولكن عـنوانه دال على أن مـا اتفقت عليـه العقـول من أحكام لا يناقض قط ما صح من أحـاديث الرسول ﷺ[2].

ويقول الدكتور عبد الصبور شاهين (لقد ظن أدعياء الفكر أن بين الشريعة المنزّلة وعطاء العقل تناقضًا وتعاديًا يدعوان الإنسان إلى موافقة العقل، ومفارقة الشريعة، وكانت هذه المقولة أساس الصراع الذي احـتدم بين الاتجاهين والفرق المتناحرة على أرضية الحضارة الإسلامية، فجاء ابن تيـمية ليفند هذا الادعاء. ويؤكد فيما لا يدع مجالاً للشك أن العقل والشـريعة متعاونان على رسالة واحدة، سـاعيان إلى غاية واحدة هي الحق المطلق، هي الله تعالى، غاية الغايات. وطال هذا الجدل الحاسم - الذي حـمل إلى طلاب المعرفـة- في الإسـلام نبرة تحـدٍ متـميز، وسـمة عـقل جديد)[3].

ونحن نعلل وهم التعارض في أذهان بعض المثقفين بسبب نقص معلوماتهم عن كتب علمـاء أهل السنّة والجمـاعة أو إغفـالها بسـبب اكتفـائهم بكتب الفلاسـفة والمتكلمين ومن سار على منهـجهم، ومن تأثر بأقوالهم وتصوراتهـم ومن أشهرها الفصل القاطع بين مصطلحي «العقليات» و «السـمعيات».

وهنا نلخص موقف ابن تيمية وشرحه لهذه القضية فيما يلي:

(أن يقال: كون الدليل عقليـًا أو سمعيًا ليس هو صفة تقتـضي مدحًا ولا ذمًا، ولا صحـة ولا فسـاداً. بل ذلك يبين الطريق الذي علم، وهو السـمـع أو العقل،

---

(١) طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله.

(٢) يُنظر المختصر بقلم الدكتور محمد السيد الجلينـد (المقدمة من ص ١١ إلى ص ١٧ سلسلة (تقريب التراث) مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

(٣) نفسه ص ٨.

وإن كان السمع لا بد معه من العقل، وكذلك كونه عقليًا أو نقليًا، وأما كونه شرعيًا فلا يقابل بكونه عقليًا، وإنما يقابل بكونه بدعيًا؛ إذ البدعة تقابل الشرعة، وكونه شرعيًا صفة مدح، وكونه بدعيًا صفة ذم وما خالف الشريعة فهو باطل.

ثم الشرعي قد يكون سمعيًا وقد يكون عقليًا، فإن كون الدليل شرعيًا يراد به كون الشارع أثبته ودلّ عليه، ويراد به كون الشارع أباحه وأذن فيه، فإن أريد بالشرعي ما أثبته الشرع، فإما أن يكون معلومًا بالعقل أيضًا، ولكن الشرع نبّه إليه ودلّ عليه، ويكون شرعيًا عقليًا.

وهنا كالأدلة التي نبّه الله عليها في كتابه العزيز، من الأمثال المضروبة وغيرها الدالة على توحيده وصدق رسله، وإثبات صفاته وعلى المعاد، فتلك (كلها) أدلة عقلية يُعلم صحتها بالعقل، وهي براهين ومقاييس عقلية، وهي مع ذلك شرعية.

وإما أن يكون الدليل الشرعي لا يعلم إلا بمجرد خبر الصادق ﷺ، فإنه إذا كان أخبر بما لا يعلم إلا بخبره كان ذلك شرعيًا سمعيًا.

وكثير من أهل الكلام يظن أن الأدلة الشرعية منحصرة في خبر الصادق ﷺ فقط، وأن الكتاب والسنّة لا يدلان إلى من هذا الوجه؛ ولهذا يجعلون أصول الدين نوعين: العقليات، والسمعيات، ويجعلون القسم الأول مما لا يعلم إلا بالكتاب والسنة.

وهذا غلط منهم، بل القرآن دل على الأدلة العقلية وبيّنها ونبّه عليها، وإن كان من الأدلة العقلية ما يعلم بالعيان ولوازمه، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] وأما إذا أُريد بالشرعي ما أباحه الشرع وأذن فيه، فيدخل في ذلك ما أخبر به الصادق ﷺ، وما دلّ عليه ونبّه عليه القرآن، وما دلّت وشهدت به الموجودات)(١).

(١) نفسه ص ١٤٦/١٤٧.

النموذج الثاني:

للعلامة وحيد الدين خان في كتابه الفذ بعنوان (الإسلام يتحدّى):

إن الذي تبين له أثناء بحثه الأهداف من نزول القرآن منها إصلاح العقل الإنساني وتزكيته، ومن إعجازه أنه تكلم في لغة العلم، قبل كشفه، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم يستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث[١].

ومن الأمثلة على ذلك أن الدراسات الحديثة أثبتت صدق ما ورد بالقرآن كعلم الفلك وعلم طبقات الأرض والتوافق المدهش مع ما اكتشف بالأمس القريب.. وفيما يتصل بعلم الأغذية، لقد حرم القرآن لحم (الخنزير)، ولم يعرف الإنسان في الماضي شيئًا عن أسرار هذا التحريم.. ولكنه يعرف اليوم أنه يسبب أمراضًا كثيرة.. وكذلك حرّم القرآن (الدم) وقد أكدت التحليلات الحديثة أنه يحتوي على مادة سامة تضر بالصحة (وهذا هو السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها القرآن في ذبح الحيوانات بطريقة معينة، حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان)[٢].

كذلك امتدت دراسة وحيد الدين خان فشملت مشكلات التشريع الإنساني، مستعرضًا نماذج من بعض الدول التي كانت تضطر إلى تغيير دساتيرها عند التطبيق، كما فعل الأمريكيون في مشروع تحريم الخمر، واضطرار البريطانيين إلى إدخال تعديلات مهمة في قانون عقوبة القتل، واضطروا إلى إباحة أنواع محرّمة من العلاقات الجنسية، على الرغم من ضجيج المثقفين واحتجاج علماء القانون[٣].

ثم يقرّر أن كل الجهود التي استهدفت الحصول على دستور مثالي باءت بالفشل الذريع، عبّر عنها الأستاذ و. فريدمان بقوله (إن الحضارة الغربية لم تجد حلاً لهذه المشكلة غير أن تنزلق من وقت لآخر، من نهاية إلى نهاية أخرى)[٤].

---

(١) وحيد الدين خان (الإسلام يتحدى) ص ١٤٢ تعريب ظفر الإسلام خان مراجعة وتحقيق د/ عبد الصبور شاهين ط٢ دار البحوث العلمية -بيروت ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

(٢) نفسه ص ١٥١ .

(٣) نفسه ص ١٥٦/١٥٧ .

(٤) نفسه ص ١٥٦ .

إننا إذن أمام تحدٍّ خطير يدمّر سعادة البشرية كلها ولا يستجيب لهذا التحدّي إلا الدين، (إنه يقول: إن مصدر التشريع هو «الله» تعالى وحده، خالق الإنسان والكون، فالذي أحكم قوانين الطبيعة هو وحده الذي يليق أن يضع دستور حضارة الإنسان ومعيشته، وليس هناك من أحد غيره سبحانه، يمكن تخويله هذا الحق)(١).

والنموذج الثالث:

للعلامة الدكتور محمد أحمد الغمراوي كتاب فريد بعنوان: (**الإسلام في عصر العلم**):

حيث يبرهن على أن الإسلام لا يتعارض مع العلم، وأفصح عن الحقيقة التي لا مراء فيها؛ إذ إن القرآن الكريم حجة الله البالغة على عباده.. ويتضح إعجازه لكل إنسان، ويَرَى أنّ هذا الإعجاز لا يزال بكرًا برغم كل ما كُتب فيه.. ثم يقتصر تناوله على الإعجاز العلمي وهو موضوع كتابه الذي يقع في نحو أربعمائة صفحة من الحجم الكبير، ويقول (وإذا فهمنا الناحية العلمية على أوسع معانيها شملت كل ما عدا الناحية البلاغية من النواحي: تشمل الناحية النفسية وكيف اقتاد القرآن النفس ويقودها طبقًا لقوانين فطرتها. وتشمل الناحية التشريعية وكيف نزلت أحكام القرآن طبق قوانين الفطرة للأفراد والجماعات. وتشمل الناحية التاريخية التي لم يكن يعلمها البشر عند نزول ما اتصل بها من آيات القرآن، ثم كشف عنها التنقيب الأثري فيما بعد، ثم شمل **الناحية الكونية**، ناحية ما فطر الله عليه غير الإنسان من الكائنات في الأرض، وما فطر عليه الأرض وغير الأرض في الكون)(٢)

هذا، وقد تجنب علماء الإسلام أزمة المنهج في العلوم الإنسانية المعاصرة بالغرب؛ إذ اتّضح لأستاذنا الدكتور محمد علي أبو ريان-رحمه الله- بعد دراسته الشاملة لصلة العلوم الإنسانية بالفلسفة الغربية في العصر الحديث، اتضح له أنها

---

(١) نفسه ص ١٦١ .

(٢) د/ محمد أحمد الغمراوي (الإسلام في عصر العلم) ص ٢١٢/ ٢٢٢ إعداد أحمد عبد السلام الكرداني- مطبعو السعادة بالقاهرة ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣.

كانت مرتبطة باللاهوت المسيحي؛ ولهذا فقد بذل أصحاب هذه العلوم قصارى جهدهم من أجل الفصل بينها وبين الأصل الديني أو الميتافيزيقي، محاولين تطبيق المنهج التجريبي كما هو في العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية، أي دراستها دراسة كمية، مهملين الثنائية المفترضة بين الإنسان كروح وجسد، وأن كل ما يتعلق بها لا يخضع للقياس الكمي التجريبي، فمضوا أشواطًا بعيدة في هذا الاتجاه حتى تأزّم الموقف وظهر لهم عقم هذه المحاولات التجريبية.

ولكننا إذا رجعنا إلى التجربة الإسلامية، في العصور الإسلامية الزاهرة، فسنجد أنها كانت أكثر أصالة، لاستنادها إلى البعد الديني وهو الإيمان بوجود خالق الإنسان عز وجل، منه المبدأ، وإليه المعاد، وأن كل ما يجري على الإنسان وفي داخله من آثار إنما هو بفعل الخالق الواحد الأحد، وهنا نجد أن علماء المسلمين، وقد طبقوا المنهج التجريبي، وكانوا أول من اكتشفوه، استطاعوا أن ينجحوا في طريق التقدم العلمي مع إيمانهم بوجود الخالق سبحانه وتعالى.

كذلك يقرر الدكتور أبو ريان أن الارتباط بين الدين الإسلامي وقواعده، وبين البحث العلمي لم يمنع من تقدم هذه الأبحاث ومن ازدهار العلم الإسلامي، الأمر الذي لم يتنبّه إليه دعاة «التغريب»[(١)].

ولما كان علماء الإسلام قد اتخذوا القرآن الكريم المصدر الأساسي في التدبّر والتلقي العلمي، فإننا نلاحظ أن حقيقة الشمول لما قرّره القرآن الكريم والذي أثبته الدكتور الغمراوي -كما رأينا سابقًا- يكاد يتطابق مع العبارة الجامعة التي صاغها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله (إن من تأمّل ما تكلم به الأولون والآخرون في أصول الدين والعلوم الإلهية وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات وسائر ما فيه كمال النفس وصلاحها وسعادتها ونجاتها لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي كالمتفلسفة وغيرهم إلا بعض ما جاء به القرآن)[(٢)].

---

(١) د/ محمد علي أبو ريان -أستاذ الفلسفة وتاريخها (أسلمة المعرفة- العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية) ص ٢٢٦ ط دار المعرفة الجامعية -الشاطبي - الإسكندرية ١٩٩٧م.

(٢) ابن تيمية (جواب أهل العلم والإيمان) ص ٤٢ .

كذلك -كما قال الشيخ عبد الصمد شرف الدين- محقق كتاب (الرد على المنطقيين) [ضرب لنا قاعدة كلية هي معيار صالح وميزان صادق يوزن به كل ما حدث أو سيحدث من آراء ومعتقدات أو أفكار ونظريات أو قضايا ومقالات لملة من الملل.. مستندًا إلى قول ابن تيمية (إن الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة، ومعرفة ما أراده بألفاظ القرآن والحديث كما كان ذلك على الصحابة، والتابعين لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم. ثم إذا عرف ما بيّنه الرسول ﷺ نظر في أقوال الناس وما أرادوه بها، فعُرضت على الكتاب والسنّة ليظهر المعاني الموافقة للرسول ﷺ والمعاني المخالفة له. والعقل الصريح دائمًا موافق للرسول ﷺ لا يخالفه قط، فإن الميزان مع الكتاب، والله أنزل الكتاب بالحق والميزان. فهذا سبيل الهدى والسنة والعلم)[1].

ونجد معالم هذا المنهج الإسلامي الأصيل المستند إلى الكتاب والسنة، نجده واضحًا تمام الوضوح في كتاب ابن تيمية (الرد على المنطقيين)؛ إذ خصص بحثًا فيه بعنوان [الميزان العقلي هو المعرفة الفطرية للتماثل والاختلاف][2].

فقال: ﴿والميزان التي أنزلها الله مع الكتاب حيث قال تعالى (ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، وقال: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٥]هي ميزان عادلة تتضمن اعتبار الشيء بمثله وخلافه، فيرى بين المتماثلين ويفرّق بين المختلفين بما جعله الله في فطر عباده وعقولهم من معرفة التماثل والاختلاف. والقرآن والحديث مملوء من هذا، يبين الله الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثلة المضروبة..[3].

---

(١) عبد الصمد شرف الدين، مقدمة كتاب (الرد على المنطقيين) لابن تيمية ص ٢٤ .

(٢) ابن تيمية (الرد على المنطقيين)، المسمى أيضًا (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان) ص ٤٢٦ . تحقيق الشيخ عبد الصمد شرق الدين. مراجعة محمد طلحة بلال ط ٣ مؤسسة الريّان - بيروت ٢٠١٧م.

(٣) نفسه ص ٤٢٧ .

ويضيف أيضًا (وإنزاله تعالى الميزان مع الرسل كإنزاله الإيمان -وهو الأمانة- معهم والإيمان لم يحصل إلا بهم. كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢](١).

وخلاصة القول أن ابن تيمية كان قصده التنبيه على جنس الميزان العقلي، وأنها حق كما ذكر الله تعالى في كتابه، وليست هي مختصة بمنطق اليونان..

وما أحوجنا في عصرنا الحاضر وهو يكاد يشبه العصر الذي عاش فيه ابن تيمية إلى اتباع هذا المنهج المعبّر عن روح الإسلام الحقيقي.

قال أستاذنا الدكتور علي سامي النشار رحمه الله (إن البعث الحقيقي للروح الإسلامية وللأمة الإسلامية هو العودة الكاملة لهذا المنهج، هو الأخذ بنصوص القرآن والسنّة والعودة إلى قانونهما)(٢).

وأضاف في موضع آخر في كتابه (وليس هناك في الحقيقة من تكلم -فيما قبل العصور الحديثة- بما تكلم به ابن تيمية.. لقد وصل حقًا إلى أوج الدرج في فلسفة المنهج التجريبي، بنقده للمنطق اليوناني القياسي بدعوته إلى المنطق الإسلامي التجريبي، وعبّر عن روح الحضارة الإسلامية الحقة في عصر الانهيار الحضاري الإسلامي الذي عاش فيه)(٣).

وهكذا استكملنا عرض آراء المجدّدين من علماء الإسلام في العصر الحديث فيما يتصل برد شبهات المتغربين عن الجانب الثقافي. **أما فيما يتصل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمعارضة الاستبداد ومواجهة الظلم وحراسة الشريعة والمحافظة عليها، فإن تاريخنا الحديث أيضًا حافل بشخصيات تدعو إلى الفخر بهم**؛ حيث أدّوا واجباتهم بإيمان وإخلاص وكان لهم دورهم في النجاح في تحقيق أغراضهم.

(١) نفسه ص ٤٢٨ .

(٢) د/علي سامي النشار (مناهج البحث عند مفكري الإسلام-واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي) المقدمة صفحة (و) دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥م

(٣) نفسه ص ٢٨٩/ ٢٩٠ .

وسنذكر منهم ثلاثة علماء هم:

١- السيد عمر مكرم.

٢- الشيخ محمد مصطفى المراغي.

٣- الشيخ محمد الخضر حسين

١- زعيم مصر الأول: السيد عمر مكرم:

إن هذا هو عنوان كتاب الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك، وقد أصاب في إضفاء صفة زعامة عمر مكرم لمصر؛ لأن تاريخ حياته وجهاده وأخلاقه تؤهله لاحتلال تلك المكانة العالية دون ريب.. وصفه بأنه أول زعماء مصر المجاهدين بين النبلاء الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم.. لا يرجون من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً.. كان السيد عمر رجلاً تقوم عظمته على شعور قوي بواجبه في عصر كان في أشد الحاجة إلى زعيم مثله، فاستطاع أن ينفخ من روحه في شعب مصر وأن يستعلي به إلى آفاقه العليا، فاستجاب له الشعب في حركة جهاد مليئة بالإقدام.. **وكان مثلاً رائعًا في تاريخ مصر، يدلنا على مقدار ما يبلغه الزعيم بقومه إذا ضرب لهم بنفسه مثل التضحية والإيثار والنزاهة والبسالة**[١].

ومن أهداف الأستاذ محمد فريد أبو حديد -كما حدده في مقدمة كتابه هو ضرورة أن تستوحي الأمة ماضي أيامها لكي ترى أين تتجه تيارات أفكارها وأمانيها وعواطفها -**فليس في استطاعة أمة من الأمم أن تحيا في حاضرها منعزلة عن ماضيها لكي تضمن السير في طريق نهضتها الصحيح**، ولكي **لا تصطدم بالتيار الآتي** الذي لم تتنبه إلى وجهته، فيقطع عليها سيرها، ويعرقل سبيلها، وقد يجرفها معه..

وهو يقصد بالتيار الآتي ما فعله محمد علي من الإصلاحات التي قلّد فيها ما كان قائمًا في العالم الغربي في وقته وبالذات فرنسا، وانفرد بالأمر وحده ولم يشرك الشعب معه.. وكانت النتيجة إغلاق المصانع وبوار التجارة، وصارت كأن لم تغن بالأمس[٢].

---

(١) محمد فريد أبو حديد (زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم) ص ١٣ كتاب الهلال بمصر -مايو سنة ١٩٩٧م العدد ٥٥٧.

(٢) نفسه ص ١٧٢.

وتعليله في فشل التجربة أن محمد علي فرض تيار التغريب- الوافد على الشعب- ويقول(فسنّة الشعوب أن نهضتها لا تزدّهر، إلا إذا كانت وليدة روحها ونتيجة أذهانها وثمرة سعيها، فإذا ازدهرت تلك النهضة بقيت وزادت رونقًا وذكاء كلما مرّ عليها الزمان، واستمرت حياتها ما دامت الشعوب حية قوية)[١].

وبعبارة أكثر وضوحًا، فإن أية نهضة لا تقوم على أساس دين الشعب فإن مصيرها المؤكد الفشل الذريع، يقول مارسيل بوازار -خبير العلاقات الدولية- وهو يتحدث عن مشاركة الإسلام العالمية (إن احتمال قيام نهضة مستقبلية في عالم الإسلام تستمد مقوماتها من طابع الرسالة الإسلامية الإجمالي وأثره الحاسم في وجدان المؤمنين.. ويعيد تأكيده المرة تلو المرة على أن نهضة كهذه تظل مشروطة ببعدها الديني، وبالتالي فإن أية محاولة لبناء نهضة على أساس لا ديني ستؤول إلى الفشل؛ لأنه لا تعدو أن تكون تزييفًا على السطح، وعملاً مصطنعًا لا يحاول أن يمد جذوره في الأرض فيسهل اقتلاعه... بينما يظل الإسلام وحده (بديناميّته كفيل بإقامة مجتمعات جديدة)[٢].

ونستكمل الحديث عن عمر مكرم الذي تفوح سيرته العطرة بالمواقف الشجاعة المتعددة التي جعلته زعيمًا شعبيًا بحق، وقد اشترك في قيادة الثورة الثانية على الاستعمار الفرنسي-بينما كان غائبًا عن مصر في الثورة الأولى- وقد استطالت الثورة ثلاثة وثلاثين يومًا[٣].. وكان إبان الحكم الفرنسي الاستعماري لمصر يتميز موقفه بالإيجابية القيادية الثورية حينًا، وبالنفي الاختياري حينًا ثانيًا. ويسجل له التاريخ أنه لم يدنس زعامته بالتعاون مع الفرنسيين في أية صورة من صور التعاون وأشكاله وألوانه[٤].

وكان عمر مكرم من معارضي محمد علي وله مواقف بطولية فريدة لم يقفها غيره من زعماء مصر في ذلك الوقت؛ إذ ضعفوا أو وهنوا واستكانوا..

(١) نفسه ص ١٧٤ .

(٢) د/عماد الدين خليل (قراءة في الفكر الغربي: الإسلام والمستقبل) ص ١٤٨/ ١٤٩ مجلة المسلم المعاصر- ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .

(٣) د/ عبد العزيز الشناوي (عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية) ص ٧٤ .

(٤) نفسه ص ٨٩ .

هذا، وقد عقد الدكتور عبد العزيز الشناوي مقارنة بين عمر مكرم والزعيم الشاب مصطفى كامل حين التصق بتركيا في مرحلة من مراحل كفاحه الوطني المجيد. أي تشابه مع موقف عمر مكرم المتوافق مع الشعب المصري في عصره، وهي أن الفكرة الدينية المتمثلة في الولاء للدولة العثمانية باعتبارها دولة الإسلام الكبرى مسيطرة على أذهان المصريين في القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين. وكان جمال الدين الأفغاني وصفيّه محمد عبده يدعوان إلى تأكيد الروابط الروحية والثقافية والسياسية مع الدولة العثمانية على أساس أنها دولة الخلافة، وأوضحا أن في تمزّق هذه الدولة أمام الزحف الأوربي قضاء على دولة الإسلام الكبرى[(١)]، ونضيف بأنه زعيم ذو نزعة دينية إسلامية لا يكاد يرى الأمان إلا في ظل سلطان المسلمين. ص ١١٩ .

وصف الدكتور الشناوي عمر مكرم بأنه كان يقف في وجه الطاغية محمد علي، ثابتًا على مبدئه لم يرهبه وعد أو وعيد، بل صدق ما عاهد الله عليه وما بدل تبديلا[(٢)] وأرّخ موقفه الشجاع حين تولى قيادة المقاومة الشعبية لرد حملة (فريزر) الإنجليزية على مصر عام ١٨٠٧م مما أثار دهشة بالغة في العالم بأسره؛ إذ كيف استعصت مدينة مثل رشيد على جيش أوروبي حديث ؟![(٣)].

---

(١) د/عبد العزيز محمد الشناوي (عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ص ١٤٦ سلسلة (أعلام العرب) العدد (٦١) يوليو ١٩٦٧ . ويصفه بأنه طليعة الأحرار المسلمين في القرن التاسع عشر ص ١١٧ .

(٢) نفسه ص ٢٣٠ والكتاب يقع في ٢٨٨ صفحة من القطع المتوسط.

(٣) نفسه ص ١٨٨ .

وكان عمر مكرم نقيبًا للأشراف ويحتل مكان الصدارة في المجتمع المصري، وقد تمتع بتقدير عميق من الشعب الذي نظر إليه على أنه الزعيم المثالي الذي لم تدنسه المطامع الشخصية ولم يخض مع الخائضين في التكالب على إنماء ثرواتهم الخاصة. ص ٢١٠ .

وخلاصة القول: (لقد ذهب عمر مكرم في تاريخ مصر كلها بطلاً وزعيمًا شعبيًا سجل في تاريخ وطنه صفحات ستظل باهرة الضياء عبر القرون والأدهار (ص٨). وينظر ملحق رقم ٥ من الكتاب عن عمر مكرم.

نزعته الإسلامية وولاؤه للدولة العثمانية:

ويصف الدكتور الشناوي السيد عمر مكرم بأنه يمثل طرازًا فريدًا بين زعماء العرب في التاريخ الحديث. كان مسلمًا في عقيدته أزهريًا في ثقافته، عربيًا في أصالته، عثمانيًا في نزعته. ولا تثريب عليه في نزعته الإسلامية فالمجتمع الذي عاش فيه كان مجتمعًا دينيًا، وكان الشعب المصري لا ينظر إلى سلطان الدولة العثمانية على أنه حاكم أجنبي دخيل مستعمر أو مستغل، بل كان ينظر إليه على أنه سلطان الإسلام أو سلطان المسلمين، **وأن الدولة العثمانية هي دولة الإسلام الكبرى تُظل المسلمين بظلها الظليل**[1].

وهكذا كان يصرح زعماء الشعب المصري في شتى المناسبات في ذلك الوقت.. وعلى سبيل المثال ما صرّح به كبار مشايخ علماء الأزهر في مقابلة عاصفة تمت بينهم وبين الجنرال كليبر عقب إخماد ثورة القاهرة الثانية في أبريل ١٨٠٠ عندما نعى عليهم الجنرال كليبر تأرجّحهم في الولاء للفرنسيين وبين الولاء للعثمانيين، فانطلق الزعماء يصفون سلطان الدولة العثمانية بصريح العبارة بأنه **سلطان المسلمين**..

ولذلك كان الشعب المصري متشبعًا **بفكرة الوطن الإسلامي أكثر من تشبعه بفكرة الوطن القومي**، وكان مفهوم الوطنية ملحقًا بمفهوم الدين، وبعبارة أخرى كانت العاطفة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث كان يصعب الفصل بينهما. والواقع أن الحكم العثماني قد ساعد على تأكيد الحياة الدينية لسكان مصر وغيرها من الولايات العربية، **وذلك بتمسكه بأحكام ومبادئ الشريعة الإسلامية**، وجعلها أساسًا لحكم هذه الولايات مع الحرص على احترام التقاليد الإسلامية والمحافظة على إقامة الشعائر الدينية[2].

---

(١) د/ عبد العزيز الشناوي (عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية) ص ٣ سلسلة (اعلام العرب) العدد ٦٧ يوليو ١٩٦٧ دار الكتاب العربي.

(٢) نفسه ص ١٤٣ .

فمضت الحياة تطبع المصريين بالطابع الديني، وأصبحت حضارة مصر وقتئذ حضارة دينية، وكان الشعب المصري لا يعرف علومًا أسمى من علوم الدين ولا ثقافة أحرى بالدراسة من الثقافة الدينية.

هذا، ويشاركه في رأيه الدكتور حسين مؤنس فيقول **(في عمر مكرم تتمثل الوطنية الإسلامية)**؛ لأن قوام الكيان الإسلامي هو العاطفة الإسلامية.. ولهذا كانت طويلة البقاء شديدة الحساسية، يشعر بها كل مسلم بأنه مطالب بالدفاع عنها والذود عن حوضها، وهذه هي الوطنية كما يفهمها المسلم: دفاع عن الإسلام وجهاد في سبيل الله واستشهاد لإعلاء كلمة الحق، **ومن هنا حلّت الوطنية الإسلامية محل الوطنية القومية)**(١).

والعاطفة الإسلامية هي التي حفّزت عمر مكرم إلى مناهضة الفرنسيين والسعي لإخراجهم من مصر، تمثلت الحملة الفرنسية في خاطره اعتداء من النصرانية على الإسلام، فكانت قيادته للناس استنفاراً لهم للجهاد الديني وإثارة لعواطفهم الإسلامية.

٢- شيخ الأزهر الأسبق محمد مصطفى المراغي (١٨٨١-١٩٤٥م):

وكان من كبار علماء الأزهر، وقاضيًا شرعيًا، شغل منصب شيخ الأزهر من سنة ١٩٢٨ حتى استقالته في آخر عام ١٩٢٩ وكانت بسبب تمسكه برأيه وإصراره على أن تُطلق يده في إدارة الأزهر على أن يختار من يعاونوه، ولكن الملك كان يريد السيطرة على شئون الأزهر جميعها، فرفض كل الرفض أن يمنح الإمام هذه السلطة، فاستقال وقُبلت استقالته.. ولكنه عاد إلى مشيخة الأزهر مؤيداً من آلاف العلماء والطلبة، ومؤيداً من الحكومة، ومؤيداً من الرأي العام. وقد باشر تنفيذ ما استقر عليه من وجوه الإصلاح(٢).

---

(١) د/حسين مؤنس (الشرق الإسلامي في العصر الحديث) ص ٩ -مكتبة الثقافة الدينية- الظاهر بالقاهرة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

(٢) نور الدين فريد المصري (تحمل المسئولية) ص ١٩٣/ ١٩٤ ط دار أويس بالإسكندرية ١٤٤هـ-٢٢٠٢م.

٣- الشيخ محمد الخضر حسين (١٨٧٦ - ١٩٥٨م):

وهو من مواليد تونس -ولكن أصل أسرته من الجزائر- وكان من كبار العلماء في تونس وقد أُختير شيخًا للأزهر في ١٦/ ٩/ ١٩٥٢م ولكنه استقال في ١/٧/ ١٩٥٤ احتجاجًا على إلغاء القضاء الشرعي ودمجه في القضاء المدني. وجاء في كتاب (موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين) أنه اعتكف في منزله وكتب استقالته من منصب مشيخة الأزهر.

وبعد استقالته قصد إلى قصر الجمهورية؛ حيث سلّم الشيخ عبد الحليم بسيوني مدير مكتبه كتاب الاستقالة إلى السكرتير العسكري لرئيس الجمهورية.

ثم قصد بعد ذلك إلى منزل الرئيس اللواء محمد نجيب وترك بطاقة للشكر)[1].

(١) نفسه ص ١٩٤ .

الحضارة الإسلامية قامت على أساس الدين

ونرى تمهيدًا لذلك عقد المقارنة(١) بين تلك الحضارة وحضارة العصر التي سلبت عقول المستغربين وآن لهم تصحيح موقفهم بعد أن اتضح لذوي العقول والأفهام أنها آخذة في الانحدار والانحطاط!

هذا وقد قام ابن تيمية بحكم اطّلاعه الواسع على طبائع الشعوب والأجناس، واتباعه للمنهج العلمي في دراسة النفوس والأخلاق، قام بدراسة مقارنة لتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، وخلص إلى نتائج صحيحة مدعّمة بالشواهد والأمثلة والوقائع، وتتلخّص في أن السابقين من الصحابة والتابعين هم أفضل خلق الله سوى الأنبياء(٢).

قال ابن تيمية: (وسبب ما اختصوا به -أي العرب والله أعلم- ما جعل الله لهم من العقول والألسنة والأخلاق والأعمال، وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع أو العمل الصالح، والعلم له مبدأ: وهو قوة العقل الذي هو الفهم والحفظ، وتمام: وهو قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة. فالعرب هم أفهم وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة، ولسانهم أتم الألسنة بيانًا وتميزًا للمعاني.

---

(١) وأحد الأدلة أن نور الإسلام تدفّق على الأرض شرقًا وغربًا، فكان ما فتحه المسلمون في قرن واحد (٦٣٢-٧٣٢م) أعظم وأضخم مما فتحته الدولة الرومانية في سبعة قرون !(مقال للدكتور محمد عبد الله دراز بعنوان (حضارة الإسلام وأثرها في الحضارة الحديثة) ص ٣٥٦ كتاب بعنوان: حصاد قلم) جمع احمد مصطفى فضلية -دار القلم -الكويت ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

(٢) ولا مقارنة بين أولئك الذين رباهم النبي ﷺ وصاروا أشباه الملائكة (ولا نزكي على الله أحدًا) وبين من أفرزتهم حضارة الغرب الذين ينطبق عليهم وصف (أولياء الشيطان)؟! ونذكر فقط بعض مشاهيرهم أمثال: هتلر وستالين ونابليون وبيجن وشارون وقائد الصرب وغيرهم.. أو الرئيس الأمريكي الأسبق ترومان الذي أمر بإلقاء القنبلة الذرية على اليابان بعد استسلامها في الحرب العالمية الثانية.. ومن ثم حق أن توصف هذه الحضارة بأنها (حضارة الدم). وكما قال جارودي بكتابه (حفارو القبور) بأنها تحفر للإنسانية قبرها ط دار الشروق ١٩٩١م وله كتاب بعنوان (الإرهاب الغربي) جزآن، مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق، وهي الغرائز المخلوقة في النفس، فغرائزهم أطوع من غرائز غيرهم، فهم أقرب إلى السخاء والحلم والشجاعة والوفاء من غيرهم، ولكن حازوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله، ليس عندهم علم منزّل ولا شريعة مأثورة ولا اشتغلوا ببعض العلوم، بخلاف غيرهم فإنهم كانت بين أظهرهم الكتب المنزّلة وأقوال الأنبياء فضلوا لضعف عقولهم وخبث غرائزهم.

وإنما كان علم العرب بما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب، أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم، أو ما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم والحروب. فلمّا بعث الله محمداً ﷺ بالهدى تلقفوه عنه بعد مجاهدة شديدة، ونقلهم الله تعالى عن تلك العادات الجاهلية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها، فلما تلقّوا عنه ذلك الهدى زالت تلك الريون عن قلوبهم، فقبلوا هذا الهدى العظيم، وأخذوا بتلك الفطرة الخيرة، فأصبح لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم والكمال الذي أنزله الله تعالى إليهم، بمنزلة أرض طيبة في نفسها لكن هي معطلة عن الحرث، أو قد نبت فيها شجر العضاء والعوسج، وصارت مأوى الخنازير والسباع، فإذا طهُرت عن ذلك المؤذي من الشجر وغيره من الدواب، وازدرع فيها أفضل الحبوب أو الثمار جاد فيها من الحب والثمر ما لا يوصف مثله. فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله سوى الأنبياء، وصار أفضل الناس بعدهم من اتبعهم بإحسان -رضي الله عنهم- إلى يوم القيامة من العرب والعجم، والله سبحانه أعلم...)[1].

وبهذا الرأي، سبق ابن تيمية أحد فلاسفة العصر الحديث -وهو ألبرت شفيتزر- الذي عرّف الحضارة بأنها (بذل الجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم على أن نهب العالم والحياة معنًى حقيقيًا)[2].

---

(١) رسالة بعنوان (فصل في الدليل على فضل العرب) ص ٢٨٩/ ٢٩٠ جامع الرسائل لابن تيمية -تحقيق د/ محمد رشاد سالم ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م مطبعة المدني بالعباسية.

(٢) د/ عبد الرحمن بدوي (فلسفة الحضارة).

ونحن نرى كيف علّل ابن تيمية ببراعة التحول المذهل لأوضاع العرب من الجاهلية إلى إقامة حضارة إسلامية أنارت العالم، وكيف ضرب المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم بفضل تربية الرسول ﷺ المثل الأعلى للأمة الإسلامية لكي تجدد حضارتها على مر العصور كلما تدهورت عن مستواهم!

ويرى شفيتزر أن طابع الحضارة أخلاقي في أساسه، فهناك إذن ارتباط بين الحضارة ونظرتها إلى الكون وإلى الحياة، فإن المعتقدات -لا الإنجازات التكنولوجية- هي القوة الدافعة للحضارة[1].

إنه يخشى على أبناء حضارته المعاصرة من أثر فقدان المعنى الحقيقي للحياة؛ لذلك يطلب منهج التحرّر من آلية الحياة الاجتماعية ويراجعوا أنفسهم أو يجددوا نشاطهم الذهني ليظل الإنسان المعاصر متيقظًا ومدركًا لمعنى الحياة والنشاط والغاية، فإن الخير في حفظ الحياة وترقيها، والشرّ هو تحطيمها وتطبيق آفاقها.

أما تعليل أزمة الحضارة، فيقوم على اعتبار أن التقدّم المادي أكبر بكثير جدًا من تقدمها الروحي، بينما لا يتحدد الطابع الجوهري للحضارة، بإنجازاتها المادية، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان، وتحسين الأحوال الاجتماعية والسياسية للشعوب وللإنسانية في مجموعها).

ولزيادة الإيضاح -لتفسير ابن تيمية لقيام الحضارة الإسلامية- فمن المعلوم - كما يقرّر الدكتور حسين مؤنس- أن الإسلام ليس دينًا خالصًا وإنما هو نظام اجتماعي كامل، وأنه ليس مجموعة من الطقوس والعبادات يتقرب بها الإنسان لربه عز وجل، وإنما هو مجموعة من القواعد والأنظمة التي يستطيع الناس أن يعيشوا بمقتضاها، ومن هنا كان الإسلام حضارة كاملة ونظامًا جامعًا استطاع أن يمد

(١) (فلسفة الحضارة) ص ٥-٨٣-٩٩-١٠٨ د/ عبد الرحمن بدوي -سلسلة الألف كتاب بمصر سنة ١٩٦٣، وطبقًا لتصوره للحضارة بهذا المعنى يقرر أن الثورة الفرنسية كانت (عاصفة ثلجية سقطت على اشجار مزهرة) ص ٢٢٠ مخالفًا تمامًا لما تردده كتب التاريخ الغربية ومن ينقلون عنها من المغتربين ببلادنا!

بلاد الشرق بكل مقومات الدول وأساليب السياسة والحياة والتشريع والحضارة على مدى بضعة قرون.. وقد أولى المسلمون قدرة طيبة على تفسير مبادئ الإسلام وقواعده، واستخرجوا منها كل ما يلزم المجتمع الصالح من مقومات، حتى أن المؤمن لا يجد في الإسلام حلاً لمسألة الآخرة فقط بل سبيلاً للعيش في الدنيا. ومن هنا كان للدولة الإسلامية كيان إسلامي سياسي داخل الكيان الديني، وكان إسلام أهلها عمادًا يعتمدون عليه كثيراً في بناء دولتهم، بل كان الكيان السياسي الإسلامي حصنًا ووقاية يحفظان قوامها السياسي بعد أن تتهدم الدولة القائمة بالحكم فيها؛ لأن قوام هذا الكيان الإسلامي هو العاطفة الإسلامية؛ ولهذا كانت طويلة البقاء شديدة الحساسية، يشعر كل مسلم بأنه مطالب بالدفاع عنها والذود عن حوضها، وهذه الوطنية كما يفهما المسلم(١).

والآن لسنا بحاجة إلى تأكيد ارتباط نهضة الأمة الإسلامية وتجديد حضارتها بتنفيذ تعاليم الكتاب والسنة كما فعل الصحابة والتابعون لهم بإحسان، إن هذه الظاهرة تظل واضحة وضوح ضوء الشمس في وسط النهار لكل دارس للتاريخ الإسلامي ومنعطفاته منذ بعثة النبي ﷺ.. وها هو الأستاذ أحمد أسد يذكر أن قوة الإسلام الدافعة ارتفعت بالمسلمين إلى مستوى عظيم من الإنجاز العلمي والأدبي والفني، وهو ما يصفه المؤرخون بالعصر الذهبي للإسلام.. ثم يستقرئ النتيجة فيقرر **أن ما نجح المسلمون في تحقيقه منذ ثلاثة عشر قرنًا مضت، يستطيعون إعادته بالمحافظة على المثل الأعلى الذي وضعه أمامهم النبي محمد ﷺ**.. وإذا كان المثل الأعلى ما زال حيًا، فإنه متاح أيضًا لكل راغب في الاستماع إلى رسالته(٢).

ويشترك معه في هذا التفسير المؤرخ البريطاني توينبي الذي يتنبأ ببزوغ شمس حضارة الإسلام من جديد بناء على دراسة مقارنة لحدثين بارزين في تاريخ

---

(١) د/ حسين مؤنس (الشرق الإسلامي في العصر الحديث) ص ٩ مكتبة الثقافة الدينية - الظاهر بالقاهرة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

(٢) محمد أسد (الطريق إلى الإسلام) ص ٣٢٣.

الإسلام: **الأول** في عهد الخلفاء الراشدين بعد رسول الله ﷺ، حرّر الإسلام سورية ومصر من السيطرة اليونانية التي أثقلت كاهلهما مدة ألف عام تقريبًا. **والثاني** في عهد نور الدين وصلاح الدين والمماليك، احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول. وبناءً عليه يتنبأ بظهور شمس الإسلام مرة أخرى إذا (سبب الوضع الدولي حربًا عنصرية، يمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة أخرى)[1].

(1) أرنولد توينبي (الإسلام.. والغرب.. والمستقبل) ص ٧٣ تعريب/نبيل صبحي ط دار العروبة بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٦٩م.

عثراتنا في طريق النهضة عبر تاريخنا
(الفتنة التي أثارتها الفلسفة اليونانية قديماً)

يقول أستاذنا الدكتور علي سامي النشار رحمه الله (إن فلاسفة الإسلام ليسوا في الواقع إلا شرّاحًا للتراث اليوناني.. كما يصفهم بأنهم (الشرّاح المشائين أمثال الفارابي وابن سينا)[1].

وعند تعليله لنقد المسلمين للمنطق الأرسطي يذكر أنّ هذا المنطق يقوم على المنهج القياسي؛ لأن هذا المنطق هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفلسفي، ولم تترك الحضارة اليونانية للتجربة مكانًا في هذا المنهج، وهي إحدى ركائز الإسلام الكبرى.

وبواسطة هذا المنهج الاستقرائي نستطيع أن نفسر عداوة الإسلام للفلسفة؛ لأنه إذا كان الإسلام يتطلب المنهج الاستقرائي التجريبي وينكر أشد الإنكار المنهج البرهاني القياسي، استطعنا أن نفسر عدم نجاح الفلسفة-وهي القائمة على هذا المنهج- في الإسلام. واعتبار ما يدعونهم «فلاسفة الإسلام» أو الشرّاح الأرسطاليسيين كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم مجرد امتداد للروح الهلينية في العالم الإسلامي[2].

كذلك يقرّر أن المنهج التجريبي أنتج حضارة سحرية، بل وصلت إلى حضارة متكاملة تسندها روح علمية جديدة، لم يعرفها العالم القديم من قبل، ومن ثمّ كان للعرب فضل العلم والمنهج، مستنداً إلى مؤرخ تاريخ العلم الأمريكي جورج سارطون الذي قرّر أن أعظم النتائج العلمية لمدة أربعة قرون إنما كانت صادرة من العبقرية الإسلامية[3].

---

(١) ٢، ٤، ٣ د/علي سامي النشار (مناهج البحث عند مفكري الإسلام -واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي) ص ١٤ وص ٢٠/ ٢١ وص ٣٨٠/ ٣٨١ ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥م.

(٢) (٣) المصدر سابق (مناهج البحث للدكتور النشار).

وتقول السيدة المهتدية مريم جميلة (إن الفلسفة اليونانية الدنيوية القديمة لا تختلف مطلقًا اختلافًا أساسيًا عن الفلسفة المادية المعاصرة)[1].

وتعلّل الأزمة التي نقابلها نحن المسلمين اليوم بأنها ليست أزمة جديدة، فمنذ قرون خلت وتواجهنا نفس المشكلة، عندما شاعت الفلسفة الدنيوية اليونانية التي نشرها فلاسفة المعتزلة من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد، الذين حاولوا كلهم كما يحاول «التقدميون» عندنا اليوم أن يبتدعوا سمة جديدة للإسلام، ولكن بفضل الله ورحمته بدّد الغزالي في كتابه **«تهافت الفلاسفة» جميع حججهم.** وهكذا بطريقة فعّالة فضح المغالطة المنطقية، وقلة الأمانة العقلية. حتى أن حركة المعتزلة أوقفت دعاياتها، ثم وجّه ابن تيمية الضربة القاضية لأصحاب المذهب العقلي. ومنذ ذلك الحين فقدت الفلسفة اليونانية كل نفوذها، ولم تحظ فلسفة المعتزلة بأي احترام في العالم الإسلام.

إن ما يحتاجه العالم الإسلامي المعاصر قبل كل شيء هو **«غزالي» جديد و«ابن تيمية» جديد**[2].

كذلك عارض الشاعر محمد إقبال محاولة التقريب بين الفلسفة والقرآن الكريم؛ إذ إنه كتاب فعل وعمل وليس كتاب رأي ونظر. قال (القرآن الكريم يُعنى بالعمل أكثر مما يُعنى بالرأي).. وقد أراد بكتابه **«تجديد التفكير الديني في الإسلام»** إثبات أن القرآن جاء بالمنهج التجريبي الذي قوامه الملاحظة والتجربة، وتأكيد أن روح القرآن تتجلّى فيها النظرة الواقعية، ومعارضة الفلسفة اليونانية التي تطبعت بالتفكير النظري المجرد، وإغفال الواقع المحسوس[3].

---

(1) المهتدية مريم جميلة (الإسلام في النظرية والتطبيق) ترجمة س. حمد ص ٢٥٥ ط مكتبة الفلاح - الكويت ١٣٩٨هـ-١٩٧٨.

(2) مريم جميلة (الإسلام في النظرية والتطبيق) ص ٢٥٥.

(3) زكي الميلاد (رئيس تحرير مجلة «الكلمة» السعودية مقال بعنوان (القرآن والفلسفة-أطروحة حديثة في العلاقة بين القرآن والفلسفة) لمحمد يوسف موسى ص ٣٧٢ مجلة «المسلم المعاصر» العدد ١٥٧-١٥٨ ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

ومن الأخطاء التي ارتكبها المسئولون عن التعليم الجامعي في مصر فرض دراسة التراث اليوناني واللاتيني، يقول الدكتور زكي نجيب محمود (إن التراث اليوناني واللاتيني ليس ضروريًا لمن يريد أن يهيّئ للإنسان حياة ثقافية متزنة العناصر.. ويرى أننا أخطأنا في ثقافتنا العربية الحديثة عندما اشترط قادة التعليم الجامعي في بلادنا دراسة اليونانية واللاتينية كأنما هما لازمتان لا غنى عنهما لمن أراد أن تتكامل ثقافته!

ويرجع سبب الخطأ إلى تقليد تاريخ أوروبا الثقافي؛ حيث كانت في عصر النهضة تربط ثقافتها بسالفتيها من يونانية ولاتينية؛ لأنه تراثها الذي يضمن للهويّة الغربية أصالتها.

وإذا أردنا نحن اليوم نصنع الصنيع نفسه، فلا ضرورة للتوسع في دراسة اليونانية واللاتينية، بل بضرورة **الاستعانة بتراثنا نحن كما استعانت أوروبا النهضة بتراثها**[1].

العثرات في عصرنا الحديث:

أما عن أحوالنا المعاصرة الثقافية المتردية في البلاد الإسلامية فيعللها أستاذنا الدكتور محمد علي أبو ريان بأربعة عوامل:

الأول: انبهار المسلمين بالغرب وبنتاج الحضارة الغربية وقد تمثّل هذا في الغزو الثقافي الذي كان شديد الوطأة، ليس على مظاهر الحياة الإسلامية فحسب، بل وعلى عقول المسلمين ومناهجهم التربوية.. وغير ذلك من التيارات التي أغلقت المنافذ على تطور الشعوب الإسلامية ورقيها وتقدمها.

---

(١) د/ زكي نجيب محمود (ثقافتنا في مواجهة العصر) ص ٢٢٧ باختصار-مكتبة الأسرة ١٩٩٧م. هذا، ويصف حضارة العصر بأنها غازية غالبة متسلطة ص ٢٣.

ومن بين أمثلة هذا الفكر انقضاض التيارات المادية والوجودية والبراجماتية على الفكر الإسلامي(١).

الثاني: ما قام به العلمانيون من هجوم شديد -وبصفة خاصة على مؤسساتنا التعليمية- التي لا تجعل الدين كمادة أساسية في مناهج الدراسة بها؛ مما يجعل الطلاب ينظرون إلى الدين نظرة هامشية أو سطحية بحتة، وهذا هو ما جعلهم ينساقون وراء دعاوى مفكري الغرب وما حاولوا القيام به من غزو فكري تجاهنا(٢).

الثالث: ما قام به المستشرقون من أمثال «رينان» و«جوتيه» من تلفيق صورة الحضارة الإسلامية والتشكيك في قدرة المسلمين على العودة من جديد إلى إنشاء حضارة إسلامية جديدة مستمدّة من القرآن والسنّة، وذلك حتى يستمر الاستعمار الغربي في السيطرة على مقدرات الأمة الإسلامية.. وقد كانت كلها خاضعة لوطأة المستعمر.. وكانوا يظنون أنهم بذلك يحكمون الوثاق بتكبيل المسلمين بقيد الجهل والتخلف الاقتصادي حتى تضيع إلى الأبد فرصة انطلاقهم الكبرى نحو غد إسلامي مشرق. ولكنهم كانوا يدبّرون والله من ورائهم محيط(٣).

الرابع: ولم يفت الدكتور أبو ريان ذكر الغزو العسكري للإسلام أيضًا مشيرًا إلى غدر الصهيونية القاتل وقتلها وتشريدها لآلاف العرب المسلمين بفلسطين على مرأى ومسمع من العالم، ويقول (وناهيك عما تفعله الدول الكبرى المسيحية من محاولات لتشويه معالم الإسلام وتوسيع نطاق التبشير في البلاد الإسلامية والانتصار لكل فكر دخيل أو معتد على المقدسات الإسلامية، وقد سجل القرن العشرون لهؤلاء أعنف موقف حينما اجتمعت دول السوق الأوروبية وطالبت باجتماع مجلس الأمن للانتصار لقضية رجل هاجم نبي الإسلام ﷺ ومقدسات

---

(١) د/ محمد علي أبو ريان (وكان أستاذًا للفلسفة وتاريخها، ومديرًا لمركز التراث القومي والمخطوطات بجامعة الإسكندرية) كتاب بعنوان (أسلمة المعرفة-العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية) ص ٦ ط دار المعرفة الجامعية -سوتر-الإسكندرية سنة ١٩٩٧م.

(٢) نفسه ص ٨٦ .

(٣) نفسه ص ٨٨ .

الإسلام، وهذه واقعة لم يحدث لها مثيل حتى في القرون الوسطى المسيحية..
وهكذا يجب أن ننتبه إلى وقائع الغزو المادي (أي العسكري) للإسلام، بالإضافة إلى الغزو الفكري والثقافي الذي يحمل في طياته ألوانًا عديدة من التشويه والإهدار للقيم الإسلامية)(1).

كذلك يوجه نقده أيضًا إلى دعاة التجديد بلا موازين أو حدود كما يدعي أصحاب الفكر الليبرالي القائم على ثقافة إسلامية ضحلة، ، والذين يدافعون بألسنتهم عن التجديد ويخفون في أنفسهم رغبة جامحة إلى التحديث والتغريب عن قصد أو غير قصد، ولكن الذي يجمع بين الفئتين هو ضعف أو قلة باعهم من محصول الثقافة الإسلامية..

ويشترط الدكتور أبو ريان على الحركة الصحيحة إلى التجديد الإسلامي وإعلاء كلمة الله تعالى في شئون الحياة الإنسانية جميعها بشرط قيامها على أساس كتاب الله تعالى وسنّة نبيه ﷺ وبالإسلام عقيدة وشريعة، وأن منهج التوحيد الخالص هو طريقنا إلى الحق والسداد(2).

كذلك ينبغي التسلّح بالوعي واليقظة لما كان يدور في مجتمعاتنا من افتعال معارك تلبس ثياب الثقافة، ولكن في حقيقتها -كما نبهنا العلامة محمود شاكر- هي معارك سياسية مموّلة بواسطة المخابرات الأجنبية، بالإضافة إلى التصدّي لدعاة التعريب أو علمنة المجتمع(3).

---

(1) كتابه بعنوان «أسلمة المعرفة-العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية» ص ٣٧٦ دار المعرفة الجامعية -سوتر- الازاريطة بالإسكندرية سنة ١٩٩٧م.
كما يلفت النظر إلى الاقليات الإسلامية فيقول (إن إهمال أمر الأقليات الإسلامية العرقية سواء في أوروبا أو أفريقيا أمر يندى له جبين المسلمين ويتطلب اتحاد كلمتهم للدفاع عن حقوقهم، وكذلك ينبغي أن نقف موقف الدفاع والأهبة لنصرة فلسطين ضد الصهيونية وغدرها) ص ٣٧٥/٣٧٦.

(2) نفسه ص ٥٢/ ٥٣.

(3) محمود سلطان، مقال بعنوان (الثقافة والسياسة في معارك الإسلاميين والعلمانيين في مصر) ص ٥١ مجلة (المنار الجديدة) ٢٠ خريف سنة ٢٠٠٢م.
وكان الدكتور عبد العزيز حمودة قد كشف عن حقيقة تمويل المخابرات الغربية -ومنها الأمريكية- للأنشطة الثقافية في جميع أنحاء العالم. ومثال ذلك مجلة (حوار) التي افتتحت بالقاهرة، ومجلة (شعر) البيروتية) ص ٥٦ .=

كذلك يشاركه في الرأي الدكتور أبو الوفا التفتازاني -رحمه الله تعالى- إذ يقول: (ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أنّ ما يصلح في مجتمعات الشرق أو الغرب على السواء من مبادئ وأفكار لا يكون صالحًا بالضرورة لمجتمعات عالمنا الإسلامي، وأن المجتمع الأوروبي ليس بالضرورة مثلاً لكل المجتمعات)(١).

وهو يقترح الالتزام بمنهج إسلامي في الدراسات يثبت للعالم أن من الممكن أن ينطلق العالم الإسلامي مرة أخرى فكريًا من الإسلام ليحقّق تقدمه الحضاري المنشود بشقيه الروحي والمادي، **وأن هذا العالم قادر على أن يتجاوز الفكر الأوروبي إلى فكر نابع من تراثه الحضاري، وأكثر قدوة على معالجة العصر على أسس إيمانية وأخلاقية.**

ويعبّر عن آمال المستقبل في ظهور حضارة الإسلام من جديد وفق تصوّره؛ إذ يقول (وقد تتجاوز البشرية حضارة الغرب إلى نوع آخر من الحضارة أفضل وأكمل، تضم خير ما في تلك الحضارة، وتقيم التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي، ويجعل دعائمها الإيمان بالله تعالى، والعلم والعدل الاجتماعي)(٢).

= وكتابه بعنوان (المرايا المقعرة-سلسلة عالم المعرفة-الكويت أغسطس سنة ٢٠٠١م ونعني بأسلمة مناهج التعليم بوجه عام أي تأصيلها طبقًا لأصولنا الإسلامية، والتخلص تمامًا من المناهج التي وضعها (دنلوب) الإنجليزي في اللغة العربية، ومناهج الدين، ومناهج التاريخ، وكان دنلوب مستشارًا لوزارة التعليم المصرية خلال بداية القرن العشرين، وقد فرض سياسة تعليمية تقوم على تهميش اللغة العربية والتقليل من شأنها لصالح اللغة الإنجليزية، كما أنه جعل التعليم بمصروفات وذلك لحرمان غير القادرين من الالتحاق بالمدارس، وكان هدفه من هذه السياسة هو تخريج جيل مصري الجنسية، إنجليزي الثقافة والتعليم والهوى (ص٦٤).

هذا، ويؤكد مؤلفا كتاب (التطوير) أن السياسة التعليمية التي وضعها (دنلوب) كما هي لم تتغير، تسير في طريقها الذي رسمه الأعداء حتى استشرى الداء وتمكّن من جسد الأمة، ولولا لطف الله عز وجل لطوى أمتنا الفناء. ص ٤/ ٥ من كتاب (التطوير بين الحقيقة والتضليل- دعوة لإنقاذ التعليم) د/ جمال عبد الهادي والأستاذ علي لبن -دار الوفاء بالمنصورة سنة ١٩٩٠م.

(١) نفسه ص ٣٤٢ .

(٢) نفسه ص ٣٤٢ .

ثم يحمّل المسلمين المسئولية في ختام عبارته (وهنا يبرز الدور الذي يجب أن يقوم به المسلمون في هذا العصر انطلاقًا من دينهم ليحققوا أمل البشرية في مستقبل أفضل).

وللدكتور التفتازاني نظرة نقدية للمذاهب الفلسفية التي شاعت بوضوح في أعقاب الحرب العالمية الثانية كرد فعل للمحن التي عاشت فيها المجتمعات الأوروبية، ويقول (ومن أسف أنها تشيع في عصرنا شيوعًا غير عادي عن طريق الكتابات الأدبية والمسرحية في أوروبا، وهي كفيلة بالقضاء على أعظم ما أنتجته البشرية من حضارة؛ لأنها تقتل في الإنسان طموحه ولا تجعل له هدفًا يسعى إليه)[1].

وقد كانت لهذه المذاهب أنصارها ودعاتها في عالمنا العربي والإسلامي، وهو أمر لا ينبغي أن نهوّن من شأنه لآثارها الخطيرة على مجتمعاتنا لأنها مرفوضة من وجهة النظر الإسلامية.

كذلك يقترح تعديل مناهج دراسة الفلسفة بجامعاتنا بوسيلتين:

الأولى: تقديم مذاهب الفكر الأوروبي للطلاب من خلال وجهة نظر نقدية إسلامية بحيث يقتنعون في النهاية بأن الإسلام بما ينطوي عليه من مبادئ ومثل يغني عن استيراد تلك المذاهب.

الثانية: تنشئة التلاميذ منذ مراحل التعليم الأولى تنشئة إسلامية وفق برامج دراسية موضوعة بعناية، ومن خلال كتب إسلامية هادفة ومؤثرة، وتعويده على ممارسة عبادات الإسلام والالتزام بأحكامه التشريعية في المعاملات على اختلافها، وتحققه سلوكًا -لا علمًا فقط- بأخلاقيات الإسلام..

(١) د/ أبو الوفا التفتازاني، بحث بعنوان (منهج إسلامي في تدريس الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة في الجامعة) ص ٣٤٧ وص ٣٤٩ مجلة الجمعية الفلسفية المصرية -يناير سنة ١٩٩٦م.

ويأمل في تعديل اسم الفلسفة لأنها كلمة معربة من اليونانية، باستخدام كبديل لها كلمات عربية يمكن أن تؤدي نفس معناها مثل: حكمة- فكر- اعتبار، وهي **ألفاظ واردة في القرآن الكريم**[1].

كذلك قام الدكتور النشار بالرد الحاسم على زعم أتباع المدرسة الاستعمارية الغربية بأن الحضارة الإسلامية، كانت ذيلاً لحضارة اليونان؛ حيث أثبت وفق دراسة نزيهة علمية موثقة بالمصادر، أثبت بصورة قاطعة أن المسلمين لم يقبلوا أبدًا المنطق الأرسططاليسي القياسي، بل هاجموه ونقدوه أشد الهجوم وأعنف النقد، وقد حمل لواء هذا النقد شيخ الإسلام ابن تيمية، بكتابيه: (نقض المنطق) و(الرد على المنطقيين). ومن مصادره مؤلفات علماء غربيين منصفين أقرّوا بأن أمثال فرنسيس بيكون وجون ستيوارت مل أخذوا كل ما توصل إليه المسلمون ورددوه بعباراتهم وأمثالهم.. واتخذ المنهج التجريبي صورًا أخرى على أيدي الأوروبيين (ولكنّ المسلمين أول من تنبّه، في تاريخ روّاد الفكر الإنساني إلى جوهره واتخذوه أساسًا لحضارتهم. وبهذا كانوا أساتذة الحضارة الأوروبية الحديثة)[2].

ومن العلماء الغربيين نكتفي بالعالمة الألمانية (زيغريد هونكه) التي دعمت هذه الحقيقة التاريخية الثابتة أيضًا بكتابها (شمس العرب تسطع على الغرب -أثر الحضارة العربية في أوروبا)، حيث قالت (إن العرب هم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع. وبالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سُرق أغلبها ونُسب لآخرين[3]، قدّم العرب أثمن

---

(١) نفسه ص ٣٨٥ .

(٢) د/علي سامي النشار (مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي).

(٣) كذلك تُشكر على أمانتها بإثبات ما سُرق من تراثنا أيضًا.

هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهّدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم)[١] والكتاب يقع في ٥٧٦ صفحة من القطع الكبير!

انغماس الحضارة الغربية في المادية:

شهد القرن التاسع عشر خصومة بين المذهب المادي والفلسفة المثالية، وقد أعلن ماركس- تفسيره المادي للتاريخ. ثم لم تمر أعوام حتى نشر «دارون» كتابه- (أصل الأنواع)، فقدّمت نظريته في نشوء الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعي، تفسيراً بيولوجيًا لما كان من اختصاص الغيبيات والتأملات الفلسفية. وقال قائلون من أتباع المادية بإمكان تفسير كل شيء في الكون بالمادة والقوة، فاتسعت الهوة الفاصلة بينهم وبين رجال الدين في الغرب[٢].

وتقرّر الدكتورة عفاف صبرة أن من الضلالات الكبرى التي تدفقت مع الحضارة الغربية على الإنسانية، وسببت للعالم الإسلامي -مع الغزو العسكري والثقافي- مشكلات حضارية ضخمة، ترجع إلى الفلسفة التي وضعها «هيجل» للتاريخ، وأسس في مقدمتها «ماركس» بناء تفسيره المادي للتاريخ فيما بعد.. وخلاصة فلسفة هيجل للتاريخ أن ما يحصل في الحضارة الإنسانية من تطور وارتقاء إنما يحصل بظهور الأضداد وتناطحها وتمازجها فيما بينها في شكل ذبذبات. (وأن النظريات والمبادئ الحديثة لا تتولد إلا من المقتضى الطبيعي لهذا الدور الآخذ في الزوال نفسه ثم تشرع في محاربة الأفكار البالية القديمة وهكذا دواليك)[٣].

---

(١) زيغريد هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب-أثر الحضارة العربية على الأوروبية)، ط ٤ ص ٤٠٢، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي ٢٠١٤م وقالت في المقدمة: أردت أن أكرم العبقرية العربية وأن أتيح لمواطنيّ فرصة العودة إلى تكريمها. كما أردت أن أقدم للعرب الشكر على فضلهم، الذي حرمهم من سماعه طويلاً تعصّب ديني أعمى أو جهل أحمق.

(٢) د/ عائشة عبد الرحمن (مقال في الإنسان -دراسة قرآنية) ص ١٦٦/١٦٧ بتصرف ط دار المعارف - ١٩٩٥م.

(٣) د/ عفاف صبرة -كلية الدراسات الإنسانية- فرع البنات- جامعة الأزهر (المستشرقون ومشكلات الحضارة) ص ٢٠٠ باختصار ط دار النهضة العربية بالقاهرة سنة ١٩٧٩م.

وتعلّل خطورة انتشار هذا التفسير المادي للتاريخ على الأجيال الإسلامية بسببين:

الأول: أن أتباع تلك الفلسفة لا يعترفون بأدوار الرسل والأنبياء عليهم السلام.

الثاني: تصورهم أن كل ما يوجد في عصر خاص من عصور التاريخ من الأفكار والعقائد الدينية والخلقية والقانونية ولد من النظام الاقتصادي الرائج في ذلك العصر[1].

ثم تعلّق الدكتورة عفاف صبرة فتقول (معنى ذلك أنهم نفوا عن الإنسان الإرادة والعقل التي خص الله تعالى بها الإنسان عن بقية مخلوقاته، ورفعه عن مرتبة الحيوان، وأنه دعا إلى إعماله دائمًا للتفكّر والتدبّر لمعرفة عظمة الله عز وجل وقدرته ونعمه على عباده وللتمييز بين الخير والشر.. ولو أن هيجل قد درس القرآن الكريم لما وقع في فهم حقيقة الإنسان وإدراك القانون الأساسي لارتقاء المدنية الإنسانية، من العثرات باللجوء إلى الظن والتمسك بأذيال التخمين. لأن ما قدّم به القرآن من علم الإنسان وفلسفة التاريخ يحل بصورة صحيحة وبأسلوب مقنع تلك المسائل التي قد ارتبك فيها هيجل وغيره من فلاسفة الغرب)[2].

كذلك فإن سجل التاريخ البشري يبرهن على أن الإيمان والعقيدة والأخلاق والقيم الروحيّة هي أساس المدنية الفاضلة والمجتمع الكريم، وأن الحضارة الحديثة لا تملك إلا الوسائل والآلات، **وأن تعاليم الأنبياء عليهم السلام هي مصدر العقيدة والخلق والغايات ولا مطمع في المدنية الصالحة المتزنة إلا بالجمع بين الوسائل والغايات**[3].

أما عن انحراف الماديين في تصوراتهم لبنية المجتمع وبنائه فإن الدكتور حسين مؤنس عرض لما استحدثه أهل المادية التاريخية لتصورهم أن كل مجتمع يتكون من

---

(١) نفسه ص ٢٠١.

(٢) نفسه ص ٢٠٢.

(٣) أبو الحسن الندوي (ردّة ولا أبا بكر لها) ص ٥ ط دار المختار الإسلامي سنة ١٩٧٤م.

جزأين رئيسيين؛ أولهما: القاعدة أو البنية، ويراد به كل العناصر التي يتألف منها صلب المجتمع، أما ما ينشأ فوق هذا الأساس أو البنية فيسمى عندهم البناء العلوي.. فالبنية هي الأساس الثابت للمجتمع والبناء ما ينشأ فوق الأساس وهو قابل للتغيير غير ثابت(١).

وهذا هو أساس الفكر الاجتماعي عند الماديين، وهم يختلفون عن غيرهم اختلافًا جوهريًا من هذه الناحية ويقول (فنحن -الذين نؤمن بالدين- نرى أن الدين **جزء من البنية، بل هو نواة البنية نفسها، فهو وحي من الله تعالى لا ظاهرة اجتماعية أو فكر بشري**(٢)، ويؤيد الدكتور عبد الغني عبود هذا الرأي مؤكدًا صلة الدين بالحضارة أيضًا بقوله: (أما عن صلة الدين بالحضارة فقد كان من رأي الشيخين الأفغاني ومحمد عبده أن الأصول الدينية الحقة تنشئ للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف في الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل، وتوسّع دائرة المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية وهما بذلك قد سبقا شبنجلر المؤرخ والفيلسوف الألماني ومن نحا نحوه(٣).

ومن الآثار المهلكة للنظرة المادية: إنكار الغيب بزعم افتقاد الدليل العلمي!

وقد ناقش الدكتور مصطفى محمود هذه القضية باستفاضة لينفي ما يتوهمه الماديون من التنافر بين الأدلة العلمية والإيمان بالغيب، ويزيح عن الأذهان هذا الوهم الباطل وهو من وساوس الشيطان.

وقد ساعده اطلاعه الواسع على تاريخ العلم في العصر الحديث بتجاربه ومصطلحاته ونتائجه، فضلاً عن أنه هو نفسه صاحب عقلية علمية بطبيعته بحكم مهنته ودراساته كطبيب. كذلك كان مشغوفًا بالكيمياء والطبيعة والبيولوجيا، وكان له معمل صغير في حجرته(٤)، أي أن صلته بالتجارب العلمية كانت وثيقة منذ

---

(١) د/ حسين مؤنس (التاريخ والمؤرخون) ص ١٤١ دار المعارف سنة ١٩٨٤م.

(٢) نفسه ص ١٤٣.

(٣) د/ عبد الغني عبود (الحضارة الإسلامية والحضارة المعارضة) ص ٣٦ ط دار الفكر العربي ط ١٩٨١م.

(٤) وكان يحضّر بنفسه غاز ثاني أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكبريت ويقتل الصراصير بالكلور ويشرّح الضفادع! (ص ١٠ من الكتاب: رحلتي من الشك إلى الإيمان).

صغره، مع حرصه على تدبّر الكون وقوانينه الدقيقة، والكواكب والمجرّة الهائلة التي تحتوي على أكثر من ألف مليون شمس، والسماء المترامية التي يقول لنا علم الفلك إن فيها أكثر من ألف مليون مجرّة!!

وتبيّن له صحة النظرة العلميـة المتأملة لظواهر الخلق والمخلوقات أن هناك وحدة بينها. . وحدة أسلوب ووحدة قوانين ووحدة خامات تعني جميعها أن خالقها تعالى واحد لم يشرك معه شريكًا يسمح بأسلوب غير أسلوبه[1].

ومن النتائج التي استنبطها من دراساته المرهقة وبحوثه العديدة أنه لا ينبغي القول بأن الدين هو «الإيمان بالغيب»، وبأن العلم هو الإيمان «بالملاحظة العلمية»، فالدين والعلم كلاهما يعتمد على الإيمان بالغيب، غير أن دائرة الدين الحقيقية هي دائرة تعيين حقائق الأمور نهائيًا وأصليًا، أما العلم فيقتصر بحثه على الظواهر الأولية والخارجية. . . قال سير آرثر أدنجتن (إن عالمنا في العصر الحاضر يعمل على منضدتين في وقت واحد: إحداهما المنضدة العامة التي يستعملها الرجل العادي، التي يمكن لمسها ورؤيتها. وأما الأخرى: فهي «المنضدة العلمية» وأكثرها في الفضاء، وتجري فيها إلكترونات لا حصر لها ولا تُشاهد. . . وهكذا نجد لكل شيء صورة ذات وجهين: أحدهما (ملحوظ) والآخر (صورة فكرية) لا سبيل إلى مشاهدتها بأي ميكروسكوب أو تلسكوب).

ومن الأمثلة: حقيقة «الذرة» التي لا سبيل إلى إنكارها، رغم أنها لم تُشاهد قط بالمعنى المعروف، ولكنها تعتبر أكبر حقيقة علمية كشفت في هذا العصر. وهذا هو السبب الذي دفع أحد العلماء أن يعرّف (النظريات) العلمية بأنها (صور ذهنية تفسر القوانين المعلومة)[2].

ويضرب الدكتور مصطفى محمود مثالاً على ذلك بما قاله «نيوتن» وهو صاحب نظرية الجاذبية لأحد أصدقائه (إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا

---

(١) نفسه ص ١٧ .

(٢) د/ مصطفى محمود (رحلتي من الشك إلى الإيمان) ص ٥٠/٥١ باختصار.

إحساس تؤثر على مادة أخرى وتجذبها مع أنه لا توجد بينهما علاقة).. فها هي نظرية علمية نتداولها ونؤمن بها ونعتبرها علمًا، وهي غيب في غيب.. والإلكترون والموجة اللاسلكية والذرة والنيترون.. **لم نر منها شيئًا ومع ذلك نؤمن بوجودها اكتفاءً بآثارها**. ونقيم عليها علومًا متخصصة ونبني لها المعامل والمختبرات.. وهي غيب في غيب بالنسبة لحواسنا. والعلم لم يعرف ماهية أي شيء على الإطلاق.. ونحن نتبادل مصطلحات دون أن نعرف لها كنهًا.. نحن في عصر العلم الغيبي.. والضرب في متاهات الفروض **وليس للعلم الآن أن يحتج على الغيبيات بعد أن غرق إلى أذنيه في الغيبيات**.

وأولى بنا أن نؤمن غيبًا بخالقنا البر الكريم، **الذي نرى آثاره في كل لمحة عين وكل نبضة قلب وكل سبحة تأمل**)[1]، ويقول في عبارة جامعة (احتاج الأمر إلى ثلاثين سنة من الغرق في الكتب وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس، وإعادة النظر ثم إعادة النظر في إعادة النظر.. ثم تقليب الفكر على كل وجه لأقطع الطريق الشائكة من الله والإنسان إلى لغز الحياة إلى لغز الموت إلى ما أكتب اليوم من كلمات على درب اليقين.. ولو أني أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل، ولقادتني الفطرة إلى الله)[2].

أزمة الحضارة المعاصرة عند الفيلسوف الفرنسي رينيه جينو:

ترجمته وحياته:

إن رينيه جينو[3] هو أشهر فرنسي اعتنق الإسلام في مطلع القرن الماضي، ويرجع ذلك إلى عقليته الفذة وسيرة حياته الحافلة بالأحداث، والأثر الذي أحدثه

(١) د/ مصطفى محمود (رحلتي من الشك إلى الإيمان) ص ٩٥/ ٩٦ باختصار (الأعمال الكاملة للدكتور مصطفى محمود) بدون اسم الناشر.

(٢) نفسه ص ٩ .

(٣) رينيه جينو (المعروف بالشيخ عبد الواحد يحيى) ترجمة سامي محمد عبد الحميد، دار النهار، ١٩٩٦م، المقدمة بقلم المترجم، ص ١٠، ١٥ .

باعتناقه للإسلام عام ١٩١٢م وهو بعدُ في السادسة والعشرين من عمره.. وتسمّى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى، وأصبح جنديًا من جنود الإسلام، يدافع عنه ويدعو إليه حتى توفاه الله تعالى بمصر عام ١٩٥١م.

ويقول الشيخ عبد الحليم محمود عن سبب إسلامه: (وكان سبب إسلامه بسيطًا منطقيًا في آن واحد، لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه، فلم يجد بعد دراسة عميقة سوى القرآن، فهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف ولا التبديل؛ لأن الله تكفل بحفظه، وحفظ حقيقته ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] أو بعبارة أخرى، قد عثر على طريق الهداية باتباع الرسول ﷺ الذي (أنارت رسالته العالم بعد ظلمة، وآنسته بعد وحشة، وبذرت في أكنافه أصول العدالة والرحمة، واحتفظت في كتابها بمعالم الوحي الإلهي الذي آخى بين النبيين، وسوّى بين الأمم، ونوّه بقيمة الفطرة ومكانة العقل، وعظمة الكون، واستخلاف الله للإنسان فيه)(١).

وأما عن صدى إسلامه فيقول الأستاذ سامي عبد الحميد: (حرمت الكنيسة قراءة كتبه، والكنيسة لا تفعل ذلك إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك، ولكنها رأت في رينيه جينو خطرًا يكبر كل خطر سابق، فحرّمت حتى الحديث عنه)(٢).

هذا، وقد تفوّق الفيلسوف الفرنسي رينيه جينو على الكثير من العلماء والفلاسفة بتعليله لأزمة الحضارة الغربية المعاصرة: فذكر منهم المؤرخ والفيلسوف الألماني أوزفالد شبنجلر الذي اختار سبعًا من الحضارات وهي: الحضارة المصرية القديمة والبابلية والعربية والهندية والصينية والمكسيكية.. وكان يرى أن عمر كل

---

(١) محمد الغزالي (كفاح دين) ص ٣، ط ٣، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

(٢) كتاب جينو ص ١١.

ومن مؤلفاته أيضًا: الشرق والغرب، كتاب رمزية الصليب، أثر الثقافة الإسلامية في الغرب.

د/ عيسى عبده وأحمد إسماعيل يحيى (لماذا أسلموا) ص ٢٠٥، ط المعارف بمصر سنة ١٩٩٢م.

حضارة يقدر بألف سنة، وإذا كانت الحضارة الغربية قد بدأت في القرن العاشر الميلادي، فقد انقضى معظم عمرها حتى القرن التاسع عشر؛ لذلك يؤكد أن مصيرها المحتوم هو التدهور، والهلاك مرتقب في المستقبل القريب(١).

ويرى الدكتور حسين مؤنس أن شبنجلر كان يعبر عن الحيرة والقلق والمخاوف التي اجتاحت الغرب بعد الحرب العالمية الأولى، فقد خرج الغرب منها منتصراً ولكن محطماً.. كما وصف الولايات المتحدة حينذاك أيضًا بأنها بلد منهوك مستهلك قاحل.. وكان يرى أن الترف وانتشار التعليم والثقافة تؤدي إلى القضاء على الأصالة، وتضعف في الإنسان إرادة النضال، وربما أدت إلى الفساد والتدهور(٢)، وقال إن حضارة الغرب خلّفت وراءها مرحلة الخلق الحضاري، ودخلت مرحلة التأمل والاستمتاع المادي.. فلم يبق للغرب إلا مرحلة الانحدار أو الأفول، وقال: **(إن إعادة الشباب إلى حضارة الغرب وتجديدها مستحيل مثل إعادة الشباب إلى حيوان أو إنسان أدركته الشيخوخة)**(٣).

والآن، نحن نحس بالإشفاق على المتغربين بعد أن قضوا أعمارهم في التشبّه بهذه الحضارة وتقليدها، بل الدعوة إليها أيضًا!

إنه مأزق حقيقي للإنسان المتغرب، وهو محدود الأجل كغيره من البشر، وقد أصبح على مفترق الطرق:

---

(١) د/ حسين مؤنس (الحضارة) ص ٣٥٠، عالم المعرفة، الكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ومصدره كتاب (انحدار الغرب) لشبنجلر -الترجمة الإنجليزية، ط ١٩٢٦م.

(٢) نفسه ص ٣٥٣ ويعلق د. حسين مؤنس على وصفه للولايات المتحدة فيقول: (ولعلنا اليوم -وبعد أربعين سنة ونيف من وفاته ١٩٣٦، نحس الآن أنه لم يكن مخطئًا كل الخطأ في قوله هذا، فإننا إذا تركنا جانبًا القوة المادية الهائلة في كيان الولايات المتحدة، وما وصل أهلها في ميدان الإبداع والاختراع الماديين، لا نرى هناك من القوة المعنوية أو القيم الإنسانية أو ركائز القوة الأخلاقية ما يؤيد الحجم الضخم الذي لهذه البلاد في عالمنا الراهن.

(٣) د/ حسين مؤنس (التاريخ والمؤرخون)، ص ١٧٦، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤م.

إما العناد والإصـرار على تقليدها، ونهـاية الطريق معروفـة، كما بـينّا بالشرح والتحلـيل والتعليل، وإمـا الاعتراف بالخطأ والتـحول إلى أحـضان أمتـهم الحنون بتراثهـا الكفيل بسعـادة الدارين الدنيا والآخرة! ولعلّهم يقـتفون آثار من سبـقوهم بالتغريب وعـرفوه حق المعرفة، ثم عادوا إلى الفـكر الإسلامي، وهم: طه حسين وعبـد الرحـمن بدوي وزكي نجيب مـحمـود ومحـمد حـسين هيكل وعلي عـبد الرازق[1].

(١) يُنظر كتابنا (يقظة أقـطاب التغريب في مصر) تحت الطبع بإذن الله. وكـتاب الدكتور محمـد عمارة (طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام) -هدية مجلة (الأزهر) -ذو القعدة سنة ١٤٣٥هـ.

الخاتمة

ولكن مهما بلغ الغزو الفكري من ضراوة وشراسة، فإن عزيمتنا لن تضعف أمامه، بل يجعلنا نزداد إصراراً على مقاومته دفاعًا عن ديننا وأمتنا الإسلامية، تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن (ولكن الأمة لم تفقد وعيها في دوّامة هذا الضجيج الهادر)، وتقصد بذلك تيارات الفكر الأجنبي الوافدة وهدفها عزل البعض عن وجود أمته)[1]، وكذلك فإن التاريخ خير شاهد على أن الأمة لم تنكسر شوكتها أمام الغزوات العسكرية العدائية المستمرة، (لقد اصطرع الوثنيون واليهود والفرس البيزنطيون مع الإسلام، وجاء الإسبان والصليبيون الفرنجة من بعدهم، وسيعقبهم المغول والبرتغاليون والهولنديون والإنجليز والفرنسيون والإيطاليون والروس والأمريكان، حلقات متعاقبة في سلسلة طويلة كان الإسلام عبرها يكافح ليس دفاعًا عن ذاته وأرضه ومعتنقيه فحسب، بل هجومًا على مواقع الباطل لزحزحتها وتدميرها، وفتح الطريق أمامه ثانية لمواصلة الجهاد الدائم)[2].

ففي تفسير الآية الكريمة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ البقرة: ٢٥١، يقول الإمام ابن عطية :(أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين في صدور الكفرة على مر الدهر ﴿لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾؛ لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها، ولكنه تعالى لا يُخلي الزمان من قائم بحق، وداع إلى الله تعالى ومقاتل عليه إلى أن جعل ذلك في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة له الحمد كثيراً)[3].

---

(١) د/ عائشة عبد الرحمن، مقال بعنوان (تراثنا بين شرق وغرب) ص ٢٨ بكتاب (التراث العربي- دراسات «جمعية الأدباء» القاهرة سنة ١٩٧١م.

(٢) د/ عماد الدين خليل (في التأصيل الإسلامي للتاريخ) ص ١٩ .

(٣) ابن عطية ١/ ٣٣٧ نقلاً عن (القرآن - تدبّر وعمل) ص ٤١ ط مركز المنهاج للإشراف والتدريب التربوي، الطبعة العاشرة ربيع ثان ١٤٤٢هـ الرياض.

لذلك فإن المشروع الإسلامي قد تحدّد؛ لأنه تعبير أمين وصادق عن أحلام وطموحات الأمة؛ إذ أدرك كثيرون أن الانحياز الفكري والحضاري للغرب أو الشرق لن يحل مشكلة الواقع العربي الإسلامي؛ وإنما غاية ما يمكن أن يحققه هو أن يؤدي مهمة الترقيع أو التسكين، التي تقود إلى مزيد من الانسحاق والتبعية الفكرية[1].

وها هو الدكتور المهندس ممدوح عبد الحميد يقدّم مبادئ عامة لمشروع النهضة الإسلامي الذي يتصل بجذورنا، ونحاكي به منهج السلف في التمسك بالقرآن والسنة، منهج التدبّر لآيات الله عز وجل:

استبعد الدكتور المهندس ممدوح عبد الحميد فهمي نموذج محمد علي لأنه كان معبّرًا عن علاقة الحكام بالأغيار الغربية؛ حيث أسس في سنوات حكمه لمصر تقاليد العلاقة الوثيقة بين الكيان الحضاري والغرب، فاستعان بهيئة استشارية فرنسية، وإداريين جراكسة، مبعوثين إلى فرنسا. بدأت العلاقة بالتقليد والاقتباس من نظم التعليم، المصانع الحربية، تقنيات زراعية وصناعية وعسكرية.. وقلّده الخديوي إسماعيل..

ووصف هذا التوجّه إلى الغرب بأنه كان حكوميًا فوقيًا.. وكانت السلطة هي الحامل والمروّج والمزيّن لطلائع الحضارة الغربية ورموزها الثقافية، وأدواتها التمدنيّة.. وسار هذا الاتجاه إلى مدى بعيد؛ إذ توغل الغرب فجعلنا التابع المستهلك له. تراه في جميع جوانب حياتنا، الجماهير الغبية تستهلك سلعه وتقلد

---

(١) فهمي هويدي (خطوط عريضة لمشروع إسلامي) ص ٤٣/٤٢ باختصار مقال بكتاب (العربي) ١٥ يناير سنة ١٩٨٧وربما يشير بذلك إلى (الاشتراكية العربية) بمصر واتجاه حزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا! (جان لاكوتير: عبد الناصر، ص ١٥٣ و ص ١٨٨) ط دار النهار للنشر -بيروت سنة ١٩٧١م.

موضاته، والصفوة المثقفة تتبنى مناهجه وتروّج لقيمه ورؤاه، والنخبة السياسية تتبع توجهاته... في كلمة واحدة: أصبح للغرب المرجعية الحضارية في بلادنا(١).

وما فعله الغرب بكياننا الحضاري في القرنين الأخيرين (١٢٠٥هـ- ١٤١٢هـ) ذو شقين:

الأول: قطع الصلة التي تصل غصن الكيان الحضاري بالجذور الإسلامية، وضعف إحساسنا بالإسلام كمرجع حضاري، وكملهم ومحركٍ لسعينا للتمدّن والعمران وإصلاح الأرض.

الثاني: حقن هذا الكيان بأمصال غربية تحوله تمامًا إلى ملحق بالحضارة الغربية..

وقرر الدكتور ممدوح فهمي أن الغرب حجب عنا البديل الصحيح وأخفاه عنّا، هذا البديل يبدأ من معرفة الهوية لحضارتنا: إنها حضارة ترى الوجود فصلين: دار عمل وابتلاء وحياة قصيرة، ودار جزاء في حياة أبدية. ولذا فغايتنا تعظيم الثواب في الحياة الآخرة. وإلى هذه الغاية يكون جهدها وسعيها، بالعمل الصالح، والجهاد النافع والعدل والإحسان والصبر والإيمان. **الحضارة بأسرها وسيلة لعبادة الله تعالى،** الصناعة والتقنية، والقتال والتنمية والإبداع العلمي والتكنولوجي، هي وسائلنا للاستقامة على صراط العزيز الحميد(٢).

إنه يحثنا على أن نجتهد كما اجتهد أصلح وأتقى أسلافنا، أن نواجه تحديات

---

(١) مهندس دكتور ممدوح عبد الحميد فهمي: بحث بعنوان (البيئة الثقافية للصناعة والتقنية) باختصار ص ٨٢/ ٨٤ (أستاذ بكلية الهندسة -جامعة القاهرة).

والبحث مقدم لمركز دراسات العالم الإسلامي بحلقة دراسية بطرابلس (فيما بين ١٨/ ٢٠ ابريل سنة ١٩٩٢م) منشور بمجلة المسلم المعاصر -العدد ٨٦ رجب-شعبان-رمضان سنة ١٤١٨هـ - نوفمبر - ديسمبر سنة ١٩٩٧ م -يناير سنة ١٩٩٨م ويقع في ٣٠ صفحة من القطع الكبير.

(٢) نفسه ص ٨٨ .

زماننا كما واجهوا تحديات زمانهم، بالعدل والقسط، والجهاد والبر، بتدبّر سنن الله في الكون، وطاعة شرع الله وفقًا للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ويضيف (إن الإسلام هو الغاية، والحضارة هي الوسيلة، نحن نريد الحضارة. من أجل أن نكون من المسلمين المفلحين. غايتنا عبادة الله تعالى، وما العلم والتكنولوجيا إلا وسائل للعبادة، وسائل للطاعة. إن معايير استخدامنا الوسائل الحضارية وتوجيهها تكون خاضعة لهيمنة غايتنا الوجودية العليا: أن ننال رضوان الله تعالى)(١).

إذن، أمامنا البديل الذي لم يتحقق قط.. ولن تتوطن قدرتنا التكنولوجية إلا بأن تؤصل بقيمنا الإسلامية. أن يستقر في شغاف قلوبنا الإيمان الراسخ بأن الصراط الصحيح الوحيد للنهضة، والقوة والتمدّن والشهود الحضاري هو صراط العزيز الحميد.. بل لا نسمي الغاية التي هي صراطها هو صراط الرحمن الرحيم بأسماء الغرب (الحداثة، التقدم، المعاصرة... إلخ)، إنما نسميها كما سمّاها الله تعالى في كتابه. **حضارة الصدق، والحق، حضارة العلم والحكمة، حضارة البر والتقوى، والعدل والإحسان، حضارة أمة المتقين..**

كذلك نحتاج إلى أن نجتهد في (أسلمة) مناهجنا العلمية، أساليبنا الأدبية، نظمنا البنكية، أنساقنا الإدارية، وسائلنا الإعلامية، خطابنا السياسي.. والأمثلة على ذلك. نؤصل تعبيرات مثل الإبداع، الانتماء، التقدم، العمل، الإنتاج فنربط، مثلاً بين الإبداع والتفكر في خلق السماوات والأرض، بين الانتماء وإيتاء ذي القربى، بين التقدم والسير على الصراط المستقيم، بين العمل المنتج والعمل الصالح، بين المسئولية والحساب.

وهكذا، نتصل بجذورنا والاستفادة النافعة من السلف الصالح في محاكاة منهج اجتهادهم -منهج تمسكهم بالقرآن والسنة- منهج تدبرهم لآيات الله تعالى.

---

(١) نفسه ص ٩٨/ ٩٩ .

ويعرّف الدكتور ممدوح الجهـاد الحضاري بأن غايته تغيير النفوس لتـحب الاستقامة على صراط الله تعـالى لتقـتنع أن نفعهـا وخيرهـا لا يكون إلا بالإسلام لله، هذا جهـاد غايته جعل الميـزان الذي نزن به البشر هو التـقوى، والمعيـار الذي نقيم به المساعي هو البر(١).

ويضيف: لكي تكون حضارتنا إسلامية حقًا، فيجب عمل الصالحات الحضارية رغبة في رضوان الله تعالى، فلا نحسن صناعاتنا مثلاً لنزداد علواً في الأرض، **إنما لنكون خير أمـة أخـرجت للناس.. نقود البـشـرية بالقـدوة الإيمانية، بمكارم الأخـلاق، بالخضوع للحق والاستقامة على الصراط، نقودها في سعيها لثواب الآخرة**(٢).

وما أحـوجنا، بل ما أحـوج الإنسانيـة في هذا العصر، إلى إحـياء الحـضارة الإسلامية، فمن أبرز مميزاتها (إنها شاملة لمجالات الروح والبدن، تعطي كل واحد منهمـا قسطه من الحيـاة في تناغم متناسق منسجم يحـقق للفرد وللجمـاعة الأمن والطمأنينة والاسـتقرار، وهي كليـة تهب الإنسان رحابة في الحـياة يتجـدّد له بها عيش مرضيٌ عنه من الله والمـلائكة والناس أجمعين.. **والحضـارة الإسلاميـة بهذا تخلق أمة عملاقة في صنع الخير لجميع الناس)**(٣).

---

(١) نفسه ص ٩٨.

(٢) نفسه ص ٩٩ باختصار.

وبذلك المقياس يقرّر أن تجارب محمد علي والخديوي إسماعيل وغيرهما، ركزت تجاربهم على سنن التقدم المادية، على التحديث تمثلاً بمن أتقنوا هذه السنن وهم الغربيون وقد شهدت هذه التجارب ليس فقط تمثلاً بالغرب في الوسائل (نظم التعليم ومناهجه، نظم الإنتاج وتقنياته وآلاته) وإنما أيضًا في الغايات (الرفاهية، الراحة، الوفرة، اللذة، العلو...) لقد حققت تلك التجارب نجـاحًا اقتصاديًا، ولكن لم تستمر وانكفأت بسرعة، والسبب أنها كانت تابعة قيميًا للغرب ومعياره، لا معيار الصراط الحضاري الإسلامي المستقيم.

(٣) د/ عبد الحليم محمود (مقدمة كتاب: صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام) للإمام السيوطي - سلسلة إحياء التراث الإسلامي-الكتاب الأول سنة ١٩٧٠م.

الملاحــق

«ستة ملاحق»

ملحق رقم [١]

نقد الدكتور عبد الوهاب المسيري للحداثة الداروينية، وفضح التنوير الوافد مع الحضارة الحديثة: (أو الحصاد المر للنظريات والمذاهب الغربية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري (المصطلحات التي تردنا من الغرب تكون محملة بتحيّزاته، وتعبّر عن رؤيته لنفسه وللآخر، ومن ثمّ فمثل هذه المصطلحات ليست بريئة، والشيء نفسه ينطبق على الحداثة[1]).

وفي التأريخ لها، ذكر ارتباطها بالظاهرة الغربية الحديثة، وكانت المجتمعات الغربية عند ظهورها مجتمعات لا تزال متماسكة من الناحية الاجتماعية والأسرية، ولم يكن كثير من الظواهر السلبية التي تُلاحظ الآن قد اتضحت في شكل ظواهر عامة كما هي حتى الآن.

ولكن تدريجيًا كشف الوجه حين أرسلت الحداثة الغربية جيوشها **الاستعمارية لتهلك الأخضر واليابس**، وتحوّل بلادنا إلى مادة استعمارية، ومصدر للمواد الخام، والعمالة الرخيصة، وسوق مفتوحة بشكل دائم للسلع الغربية.

ثم اتضح بعد ذلك صورة الحداثة على حقيقتها، عبّر عنها أحد الشيوخ الجزائريين عندما قيل له، إن القوات الفرنسية إنما جاءت لنشر الحضارة الغربية الحديثة في ربوع الجزائر، فجاء رده مقتضبًا ودالاً؛ إذ قال **(لِمَ أحضروا كل هذا البارود إذن)؟!**

(١) د/ عبد الوهاب المسيري (دراسات معرفية في الحداثة الغربية) ص ٣٥ .
مكتبة الشروق الدولية ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

وبعد أن سجّل الدكتور المسيري عدّة واقعات تاريخية لإبادة السكّان الأصليين في الأمريكتين، واستعباد الملايين من إفريقيا، وحربين عالميتين كلفت الأولى الإنسانية ٢٠ مليون قتيل، والثانية ٥٠ مليون قتيل، وقنابل هيروشيما ونجازاكي، وضحايا معسكرات الجولان في الاتحاد السوفيتي، واستعمار عسكري في مصر وسوريا ولبنان والمغرب والسودان والعراق وليبيا، واستعمار شيطاني في الجزائر، إحلالي في فلسطين حيث زرع العالم الغربي الحديث فيها بقوة السلاح الصهاينة حسب الرواية التوراتية[١].

بعد هذا السجل البشع، اتضح لنا جميعًا أن الثمن المادي والمعنوي لمنظومة الحداثة الداروينية مرتفع للغاية[٢].

كذلك اتضحت الظواهر الاجتماعية المختلفة، تآكل الأسواق - تراجع التواصل بين الناس -الأمراض النفسية - تزايد الإحساس بالاغتراب والوحدة- ظهور الإنسان ذي البعد الواحد -ضحية النماذج الكمية والبيروقراطية على الناس- تزايد العنف والجريمة -تضخم الدولة وهيمنتها من خلال أجهزتها الأمنية والتربوية على الأفراد، تضخم قطاع اللذة وغزوها حياة الإنسان الخاصة، تزايد الإنقاص عن التسلح وأدوات الدمار الشامل.. لذلك أدرك كثير من المفكرين الغربيين هذه الجوانب المظلمة من الحداثة الغربية[٣].

كما أورد نصًا لجارودي (قبل تحوّله إلى الإسلام) حيث نقد الحداثة الداروينية بقوله (إن معركة عصرنا هي ضمن أسطورة التقدم والنمو على المنوال الغربي، فهي أسطورة انتحارية، وهي أيضًا معركة ضمن الأيديولوجية التي تتسم بالفصل بين العلم والتكنولوجيا (تنظيم الوسائل والقدرة) من جهة والحكمة (التبصر بالغايات وبمعنى حياتنا من جهة أخرى)، هذه الأيديولوجية تتسم بأنها تؤكد

(١) د/ عبد الوهاب المسيري (دراسات معرفية في الحداثة الغربية) ص ٣٥ .
(٢) نفسه ص ٣٦ .
(٣) نفسه ص ٣٩ .

فردانية متطرفة تبتر الإنسان عن أبعاده الإنسانية، وفي نهاية الأمر خلقت قبراً يكفي لدفن العالم)[1].

وفي تعليق آخر للدكتور المسيري يرى أن العالم الغربي يتطلب نسقًا مستقلاً ليكمله وليفرض عليه حدوداً حتى يصبح أكثر «أخلاقية» وأكثر جمالاً وأكثر إمتاعًا من التوازن الذي سيحافظ عليه.. وليدلل على ذلك بقوله (حين سألت العالم الأمريكي/ الألماني فرانز أوبنهايمر الذي ساهم في اكتشاف القنبلة الذرية، عن أي شيء فعله بعد أن حقق اكتشافه، كانت إجابته قصيرة ودالة: (لقد تقيأت)[2].

(١) نفسه ص ٤٠ .

(٢) نفسه ص ١٧٨ .

ملحق رقم [٢]

من منظور فقه التاريخ في العصر الحديث:
كيف انتصرت إمارة أفغانستان على أكبر دول العصر؟
صانت نفسها من التغريب فانتصرت أو (معجزة القرن)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه

التعريف بولاية أفغانستان الإسلامية وصمودها ضد الغزو الصليبي:

هي دولة مسلمة ضرب بها المثل في الجهاد ضد المستعمرين بحيث عُرفت بأنها مقبرة الغزاة، اسمها الرسمي: جمهورية أفغانستان الديمقراطية، العاصمة: كابول وأهم المدن قندهار، وحراة، وفيض آباد، وجلال آباد ومزاري شريف (بلخ)، واللغة الرسمية هي الباشتقر أو الباشنو (الأفغانية) وهي خليط من الأزدية والإنجليزية والعربية، و«الداري» وهي خليط من الفارسية والعربية، وتستخدم أجهزة الإعلام هاتين اللغتين.

أما جيرانها فتحدها باكستان في الشرق والجنوب، وإيران في الغرب، وروسيا في الشمال، وطرفها الشمالي الشرقي ملاصق بالصين.

وقد وقعت أفغانستان تحت نير الاستعمار البريطاني فجاهدت حتى طردت الغزاة وحصلت على استقلالها في ٢٧/ ٥/ ١٩١٩، وظلت مملكة مستقلة حتى ١٧/ ٧/ ١٩٧٣ حين أعلنت «جمهورية أفغانستان الديمقراطية» في ١٠ مايو ١٩٧٨[(١)].

(١) د/ فاطمة محجوب (الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية) جـ١ ص ٤٦٢ ط الغد العربي ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

إن تاريخ المسلمين -لا في أفغانستان وحدها بل في روسيا كلها- يصطبغ بالدماء، منذ أن كانت موسكو تحت سيطرة التتار المسلمين من ٦٤٥-٨٨٥م، والروس-كما وصفهم المسعودي وابن بطوطة-: (أمة همجية، شقر الشعور زرق العيون، قباح الوجوه، أهل غدر).

ثم احتل الروس مناطق تركستان بالتتابع ابتداءً من إيفان الرابع (الرهيب) سنة ٩٦٠م (١٥٥٢م)، وسقطت تركستان كلها -ومساحتها ٤ مليون كيلومتر مربع- ثم سقطت سيبيريا الغربية على يد إيفان وبمساعدة البابا، واستمرت معاملة المسلمين بالإبادة والصهر وهدم المساجد منذ عهد إيفان الرابع، وفي أسرة (رومانوف التي حكمت من سنة ١٦١٣ إلى سنة ١٩١٧م- ثم ازدادت الوحشية بعد الثورة الحمراء حتى يومنا هذا.

ويقول الدكتور عبد الله عزام (وما يجري الآن في أفغانستان صورة عن هذا الماضي الوحشي الرهيب، وصادرت حكومة القياصرة خلال القرنين السابقين للثورة الشيوعية أكثر من مائة مليون فدان)[1].

ثم كان الغزو الروسي لأفغانستان المسلمة الذي بدأ في ديسمبر سنة ١٩٧٩ وكان أسوأ غزو لشعب صغير، وعادت أفغانستان تجاهد ضد الاستعمار الجديد، ومضت السنون حافلة بصفحات خالدة من الجهاد والاستشهاد، ووقف الأفغانيون أمام أكبر قوة حربية بإمكانياتهم المتواضعة، وقلوبهم المؤمنة لمدة عشر سنوات، وقدموا في الحرب أكثر من مليون شهيد، كما تسببت الحرب في تشريد أكثر من خمسة ملايين نسمة.

وبعد جهاد دام عقدًا من الزمان تحت راية لا إله إلا الله توّج المجاهدون الأفغان جهادهم بإرغام الجيش الروسي على الانسحاب من تراب الأفغان الذي بدأ رسميًا في الخامس عشر من مايو سنة ١٩٨٩ .

(١) كتابه آيات الرحمن في جهاد الأفغان -ص ٤٩ نقلاً عند/ محمد علي البارمس ١-١٢ وكتاب (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي، وكتاب (الاتحاد السوفيتي والعالم الإسلامي).

ثم تعرضت في عام ٢٠٠١ لغزو أمريكي دام نحو عشرين عامًا تكبدت الولايات المتحدة فيه خسائر فادحة في الأرواح والأموال في أطول حرب خاضتها، وفاقت في مدتها حرب (فيتنام)، فاضطرت إلى الانسحاب في عام ٢٠٢١ أمام الجهاد الباسل للأفغان، وبذلك قدّموا البرهان القاطع على أن المسلمين لا ينهزمون قط ما داموا مستمرين في الجهاد تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ مما يجعل أعداءهم يخشون بأسهم، كذلك قدّموا للأمة الإسلامية برمّتها الدرس البليغ!

يقول الدكتور عبد الله عزّام:

(إن الشعب الأفغاني قد خاض خلال هذه السنوات الثماني حربًا ما شهدها التاريخ الإسلامي عبر القرون الثلاثة الأخيرة، وأكثر ما يحزنني أن هذه المعارك الإسلامية التي سطرت بالدماء والأشلاء قد ضاعت، ولو وجدت من يتابعها ويؤرّخ لها لكانت أسفارًا ضخمة من نور الهداية عبر القرون)[1].

ويقول الدكتور أحمد بن صالح الزهراني (.. وأطير من بدء التاريخ لأذكّر بجهاد القرن الرابع عشر، ضد القوة الثانية على الأرض، وهو الجهاد في أفغانستان، يوم اشترك جميع المسلمين في حرب دولة الكفر، فقهروها وأذاقوها مُرّ الهزيمة وعلقم الخيبة، وسطرت دماء الشهداء أروع ملاحم للتاريخ الجهادي، وكانت أفتك أنواع الأسلحة والخطط العسكرية أمام قوة الجهاد الإسلامي.

لقد برهنت تلك السنون الجهادية أن الأمة ما زالت بخير، وأنها فقط تتلمس القيادات التي ترفع رايات الجهاد، وتفرض الإسلام بالقوة في عزة المسلم، لا أن تعرضه كبضاعة منتهية الصلاحية يستميت صاحبها في إثبات أنها ما زالت صالحة للاستهلاك.

---

(١) د/ عبد الله عزام (آيات الرحمن في جهاد الأفغان) ص ٢٣ ط ٢ مكتبة المنار-الزرقاء، الأردن ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م. ويبدو أنه كان يتابع الجهاد الأفغاني من عام ١٩٨٠م.

لقد رأينا أيضًا كيف فعلت القلة المؤمنة بالصليبية الحاقدة في البوسنة، وكيف تنادت أقطار الكفر كلها لوضع اتفاقية السلام خوفًا من نمو الحركة الجهادية في وسط أوروبا، وهذا يعني لهم زلزلة العرش الصليبي بل زواله)[1].

ويلاحظ المراقبون أنه وقد غلي الطابع الديني على حرب أفغانستان واجتمعت الدلائل التي لا يمكن إنكارها عن الصبغة الصليبية لتلك الحرب: مثل إعلان بوش أنه يشن حربًا صليبية ويعلن (أن الحرب زادته إيمانًا، وأنه يكثر من الصلاة والتقرّب إلى ربه الذي يشعر أنه معه ويؤيد ويبارك خطواته).

وعند دخول كبير هيئة مراسلي الإذاعة البريطانية (كابل) صرّح أنه «كمسيحي معاصر» شعر بسعادة لا توصف عندما وقف على تل يطل على المدينة ورآها تحت قدميه، وقد تصوّر نفسه فاتحًا صليبيًا جديدًا نجح فيما فشل فيه أجداده قبل القرن والنصف، ويكرر أمجاد أسلافه الفرنجة!!

وشارك **الأمريكان والإنجليز في أبشع مذبحة للأسرى في العصر الحديث؛ حيث قتلوا المئات من العرب والأفغان وغيرهم من المجاهدين المسلمين الذين استسلموا طواعية؛ ليفاجأوا بغدر الجيوش فاقدة الشرف، ولا يوجد ما يفسر هذا سوى الحقد الصليبي الدفين الذي أبى إلا أن يكرر في أصقاع أفغانستان ما فعله الأسلاف يوم فتحوا القدس وولغوا في دماء المسلمين ومن وجدوا من اليهود وحتى المسيحيين.**

وأعلنت الصحف الأمريكية أن الهدف الأمريكي هو إجبار الدول الإسلامية على تغيير المناهج الدراسية الدينية، **وفرض العلمنة عليها،** باعتبار أنها في وضعها الحالي تخرج الإرهابيين!![2].

---

(١) احمد بن صالح الزهراني (صنّف نفسك!) ص ١٥٥ ط دار الأنوار الخضراء -جدة ١٤٢٠هـ.

(٢) د/محمد يحيى، مقال بعنوان (البعد الديني.. في الحملة الأمريكية على أفغانستان) مجلة «المنار الجديد» ص ٩٠ شوال ١٤٢٢هـ -يناير ٢٠٠٢م.

هذا، وقد علّق الدكتور محمد يحيى على ذلك بقوله (ودعك من أن أحدًا لا يفرض تغيير مناهج التعليم الديني اليهودي في إسرائيل وفي غيرها، أو مناهج التعليم المسيحية الأصولية، وغير الأصولية)(١). إنها بحق مأساة وبلاء يعم العالم الإسلامي كله، وينتهي بفرض نوع من العقوبة الجماعية على دين أمة بأسرها يتحتم عليهم أن يراجعوا، ويعدلوا ويكيفوا، ويشوهوا دينهم وعقيدتهم؛ كي ترتفع من فوق كاهلهم مهمة القاضي الأمريكي!!)(٢).

---

(١) نفسه ص ٩٣ .

(٢) نفسه ص ٩٤ .

وفيما يلي نص المؤرخة البريطانية كارين أرمسترونج عن مذابح القدس (ولمدة ثلاثة أيام قام الصليبيون بانتظام بذبح ما يقرب من ثلاثين ألفًا من سكان المدينة.. وتدفقت الدماء في الشوارع حقيقة لا مجازًا. وكما يقول شاهد العيان البروفنالي ريمون: كان بالإمكان رؤية أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل.. وأضاف (إنني إن وقلت الحقيقة فستتعدّى جميع قدرتكم على التصديق... فقد ركب الرجال والدماء تصل إلى ركبهم والجمة خيولهم!! وفي النهاية لم يبق هناك أحد يُقتل، فاغتسل الصليبيون وساروا في اتجاه كنيسة القيامة وهم يرتلون التراتيل ودموع الفرح تنساب من أعينهم وتسيل على أوجههم. وتوقفوا عند كنيسة المسيح وهم يرتلون قداس القيامة!!).

كارين أرمسترونج (القدس-مدينة واحدة عقائد ثلاث) ص ٤٥٣/ ٤٥٤ ترجمةد/ فاطمة نصر ود/ محمد عناني ط سطور سنة ١٩٩٨م.

ملحق رقم [٣]

دواعي التفاؤل والثقة بالنفس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه...

يحق لنا استرداد الثقة بالنفس بسبب ما أسفر عنه تاريخ حضارة الغرب من مآسٍ أخذت بخناقه ولاسيما في القرن العشرين المنصرم، الذي كان أكثر القرون دموية في تاريخ البشرية، بكل ما شهده من حروب عالمية مدمرة وانتشار الأسلحة القادرة على إبادة الملايين من البشر، ومعسكرات الإبادة وعمليات التطهير العرقي وغيرها من مآسي البشرية، وكل هذا يشهده العالم بعد مرور ٢٥٠ عامًا على بداية عصر التنوير ومشروع الحداثة![١].

ولم لا نستبشر ونتفاءل بمستقبل أمتنا الإسلامية ومصدرنا ما نقرؤه بكتاب ربنا عز وجل وأحاديث نبينا ﷺ وهذه الأحاديث تدل على أن المستقبل للإسلام بإذن الله تعالى.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]

ومراجعة التاريخ تدلنا على أن الأمة ابتليت من قبل ولكن الله تعالى نصرها، ومثال ذلك أن الصليبيين حكموا بيت المقدس وأغلقوه لمدة واحد وتسعين عامًا لا تُصلى فيه الجمعة ولا الجماعات، ووضعت الصلبان فوق بيت المقدس من عام ٤٩٢ إلى عام ٥٨٣م

---

(١) د/ مراد هوفمان (الإسلام في الألفية الثالثة -ديانة في صعود) ص١١ مكتبة الشروق -القاهرة- كوالالمبور -جاكارتا. ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

ولكن المسلمين في ذلك الزمان لم يضعفوا ولم ينهـزموا، وكانوا يتمثلون بأمر الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ما هانوا وما حزنوا[(١)].

وقال رسـول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقاتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجـر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هـذا يهودي خلفي فتعـال فاقتله، إلا الغرقـد فإنها من شجـر اليهود» [أخرجه مسلم في كتاب الفتن][(٢)].

وعندما سُئل الرسول ﷺ «أي المدينتين تُفتح أولاً: القسطنطينية أم رومية- قال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل أولاً -يعني القسطنطينية» [رواه أحمد وغيره وصححه الألباني].

ولم ينص الحـديث عن وسيلة الفتح؛ لذلك يرجح الشيخ محمد مصطفى المراغي مع ما يراه من عناية الغرب وعناية علمائه بدراسة الإسلام وإنصاف بعضهم للنبي ﷺ يرجّح فتح القلوب بالإسلام، فيقول (كل ذلك يرشدنا إلى أن الإسلام سينشر لواءه على العـالم.. وكما نصره الله أول أمره بالغرباء عن البيئة التي نشأ فيها، سينصـره آخر الأمر بالغرباء عن لغته ووطنه، وقد بدا غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء)[(٣)].

هذا، وقد لفـتت ظاهرة العودة إلى الدين بـالغرب الدكتـور مراد هوفـمان (مما جعل الكنيسـة تعيد استـثمار جاذبيتهـا الصوفية. قد تسلك هذه العـودة مسارات

---

(١) د/عبـد الله الخاطر (الهزيمة النفسـية عند المسلمين) ص٣٤ (كتـاب البيان) ط ٣ سلـسلة تصـدر عن مجلة (البيان) ص ٥٥ ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

(٢) نفسـه ص ٥١ .

(٣) الشيخ محمد مصطفى المراغي (التعريف بكتاب حياة محمد ﷺ) للدكتور محمد حسين هيكل ص ١٧ ط مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م.

غريبة، ولكنها إن عاجلاً أو آجلاً -في بحثها عن البديل الحق- ستلتقي بالإسلام الصاعد نجمه)[1].

ويؤكد نفس الرأي في كتابه (الإسلام في الألفية الثالثة -ديانة في صعود)، فيقول (إنني بجدالى هنا عن كون الإسلام يملك الإجابات الصحيحة عن أسئلة الغرب الكثيرة وأزماته المتعددة، إنما أوضح أن الإسلام ليس طالب إحسان من الغرب، ولكنه مانح رئيسي لكثير من القيم وأساليب الحياة)[2].

والله تعالى أعلم.

(١) د/ مراد هوفمان (الإسلام كبديل) تعريب عادل المعلم ط دار الشروق ط ٢ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٢) د/ مراد هوفمان (الإسلام في الألفية الثالثة -الدين الصاعد) ص ٢٢٩ .

ملحق رقم [٤]

نبذة عن المشاريع الإسلامية في تاريخ تركيا المعاصر

سنعرض في عجالة -بتوفيق من الله وعونه- للحركة الإسلامية التي جاهدت في سبيل إعادة تركيا إلى الإسلام، وإزالة الركام الذي وضعه أتاتورك -فرعون العصر- لصرف الشعب التركي عن دينه وتحويل تركيا إلى دولة علمانية بعد أن كانت تحكم العالم بأسره في ظل الخلافة العثمانية طيلة نحو ستة قرون!

إن عرض جهاد أولئك الأعلام يُدخل الطمأنينة في نفوسنا؛ لأنه يُؤكد ما بشّر به الرسول ﷺ بأنه سيبقى في الأمة طائفة تتحمل مسئولية الوحي والرسالة حتى آخر الزمان، علمًا وعملاً ودعوةً وإصلاحًا، بلا تحريف ولا تزييف حتى ينزل عيسى عليه السلام من السماء، وستصد هذه الطائفة عن دين الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وعلى رسالتهم ولو خالفهم العالم كله وضاقت عليهم قارات العالم السبع حتى يأتي وعد الله تعالى(١).

وسنختصر الحديث عنهم في بضعة سطور: منهم (بديع الزمان سعيد النورسي) الذي تحرّر من سلبية الصوفية قبله وسلوكاتهم الضيقة المحدودة، منتقلاً إلى (فضاء الانتماء لعالم الإسلام (العقيدة والأمة) المتجاوز للزمان والمكان.. وكسر قيود الفرق الصوفية -الغارقة في البدع- منطلقًا إلى تعزيز العلاقة المباشرة مع القرآن الكريم(٢).

ومنهم (قراقوج) رائد المدرسة الحضارية؛ إذ كان يرى أن الصراع القائم اليوم بين العالم الإسلامي وخصومه الغربيين هو صراع حضارات وحروب حضارية.. وبالنسبة لنا معشر المسلمين دفاع عن أنفسنا، لا بد من وحدة إسلامية: لأنها

---

(١) نور الدين فريد المصري (تحمل المسئولية) ص ٨٠ ط أويس للنشر والتوزيع -الإسكندرية سنة ١٤٤٤هـ.

(٢) د/ كمال العبد حبيب (الدين والدولة في تركيا -صراع الإسلام والعلمانية) ص ٥٩ ط مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٩م.

السبيل الوحيد للدفاع عن النفس والمواجهة، وتركيا لا يمكنها أن تنقذ نفسها وحدها[1].

ومنهم (نجم الدين أربكان) مؤسس الحركة الإسلامية في تركيا المعاصرة.. وهو الأب الروحي للإسلام السياسي في تركيا منذ عام ١٩٦٩م[2].

ومنهم (أردوغان) وهو يمثل الجيل الثاني من الحركة الإسلامية في تركيا بعد جيل الآباء مثله (أربكان) و(رجائي قوطان بيه). هذا، ولم يستطع الغرب إخفاء انزعاجه من الحركة الإسلامية في تركيا، وأخذت الصحافة تعبّر عنه بوضوح: مثال ذلك: جريدة (لوفيجارو الفرنسية) قالت «فاز الرفاه فدقت نواقيس الخطر في أوروبا)، وكتبت لوس أنجلوس تايمز (إن اقتراب موعد الانتخابات العامة في تركيا واحتمال فوز أربكان يبعث القشعريرة في كواليس السفارات الغربية في أنقرة ١٨/٤/١٩٩٥)[3].

ولكن العقبة الكبرى أمام تلك الحركة الإسلامية هو ما نص عليه الدستور عام ١٩٨٢م والذي لا يزال يحكم تركيا حتى اليوم، هو النص على أنها دولة علمانية، وذلك عقب الانقلاب العسكري الثالث الذي توسّع في الاعتقالات حتى زادت على ١٢٠ ألف معتقل في نهاية ,١٩٨١. وصدرت أحكام عسكرية بالإعدام في حق ٣٦٠٠ وهو رقم ضخم إذا قورن بالانقلابين السابقين[4].

لذلك اضطر الإسلاميون للتحايل واستخدام ألفاظ مثل (الفضيلة والأخلاق) الوثيقة الصلة بالإسلام[5].

---

(١) الدين والدولة في تركيا -صراع الإسلام والعلمانية) ص ٩٥ .

(٢) نفسه ص ٣٣٣ .

(٣) نفسه ص ٢٢٩ .

(٤) نفسه ص ١٩٩ .

(٥) وهو كتاب موسوعي لا يستغني عنه دارس للحركات الإسلامية في تركيا يحتوي على ٣٧٢ صفحة من القطع الكبير.

ولكن هذا لم يمنع أربكان بتصريحاته التي أطلقها في مكة المكرمة عندما قال (تخلينا عن القرآن ما يقرب من خمسين سنة الماضية، إن الدين والدولة فُصلا ويتعيّن علينا أن نعمل من أجل كلمة القرآن كي تكون فاعلة مرة أخرى؛ ولهذا الهدف نحن بحاجة إلى الجهاد)[1].

ولا شك]أنه بهذا التصريح كان على وعي تام بالصلة الوثيقة بين العقيدة والشريعة في الإسلام، تلك الشريعة التي تتكون من مجموعة الأحكام التي نزلها الله تعالى لتنظيم علاقات البشر من الناحية الحقوقية والجزائية والشخصية وتحقق العدل؛ ولذلك قال ابن القيم (حيث تتحقق العدالة فثمّ شرع الله)[2].. ويقول الإمام الشاطبي: (إن الشريعة موضوعة لإخراج المكلّف من داعية هواه حتى يكون عبدًا لله). (واعلموا أن الله تعالى وضع هذه الشريعة حجة على الخلق، كبيرهم وصغيرهم، مطيعهم وعاصيهم، برهم وفاجرهم، وإنما وُضعت الشريعة لتكون حجّة على جميع الأمم).

أما مقولة التوفيق بين الإسلام والعلمانية لصياغة (إسلام تركي) فإنها مقولة يجب دحضها من أساسها... ولذلك نضع مجموعة من الحقائق كالتالي:

الوعيد الإلهي بالقرآن الكريم لمن لم يحكم بما أنزل الله، ورد في تفسير السعدي ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الحق المبين، وحكم بالباطل الذي يعلمه، لغرض من أغراضه الفاسدة، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرًا يخرج عن الملة. وذلك إذا اعتقد حله وجوازه، وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر، قد استحق من فعله العذاب الشديد[3].

---

(١) الدين والدولة في تركيا ص ١٩٦ .

(٢) محمد المجذوب (مشكلات الجيل في ضوء الإسلام) ص ٤٤ ط٢ دار الاعتصام ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، وكتابي: «الاعتصام» للشاطبي ج٢ ص ٣٣٨ تحقيق رشيد رضا دار المعرفة بيروت ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م، و«الموافقات في أصول الشريعة: جـ٤ ٣٠٤ باختصار -دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) تفسير الإمام السعدي ص ٢١٢

ونحن بدورنا نحذّر بشدة من وقوع الحركة الإسلامية في هذا الفخ حيث فيه الهلاك والعياذ بالله، وهو التلاعب الماكر والخبيث بالدين، والذي تشجعه الولايات المتحدة الأمريكية خاصة من وراء الحدود (إذ تسعى لخلق نموذج إسلامي متوافق مع الحداثة والعالم الغربي في مواجهة نماذج أخرى ذات طابع راديكالي أو نضالي يمثل تحديًا للنموذج الحضاري الغربي وتتبنى الصدام معه)[1]، وبخاصة أن هذا الإسلام التركي المزعوم يجمع بين نقيضين لا يلتقيان: العلمانية من جهة، وعقيدة أهل السنة والجماعة من جهة أخرى!!

بل ينبغي على شعب تركيا المسلم التبرؤ منه، وإظهار ذلك علنًا حين الوقت المناسب،لكي ينجو من غضب الله تعالى وعقابه.

(١) الدين والدولة في تركيا ص ١٣

ملحق رقم [٥]

آثار التغريب المدمّر في مصر
(قضايا تشغلني كثيراً، بقلم الأستاذ فاروق جويدة)
ملحق بالأهرام بتاريخ ١٠/ ٣/ ٢٠٢٣م

من الصعب إذا لم يكن من المستحيل أن تعيش في برج عاجي وتنزع نفسك من هموم عصرك وتحديات زمانك. وإذا كانت الأزمات تحاصر الإنسان من كل جانب فإلى من يهرب وبمن يستجير، ولأن القضايا كثيرة والأزمات تشتد سوف أتوقف عند بعضها لأنها الأخطر والأهم.. وقد يكون معظمها يتعلق بالفكر لأنني أعتقد أن جميع قضايا الإنسان قضايا فكر.. إن مشوار الحياة كله تساؤلات قد لا تجد الإجابة وهنا سوف أتوقف.

- **أولاً**: تشغلني كثيراً بل تؤرقني حالة الانقسام التي يعيشها المجتمع المصري، وللأسف الشديد فإنها تتسع كل يوم وأصبح لها توابع كثيرة، وقد أخذت أشكالاً كثيرة، بل إنها حولت المجتمع إلى مجموعة من الجزر في الفكر والقضايا والحياة.

- وإذا بدأت بالفكر فنحن مجتمع انقسم على نفسه وتحول إلى طوائف وكل طائفة لها مواقفها وأفكارها ومريدوها.. في قضايا الفكر هناك تيارات تقليدية في الدين والفنون والسلوك وتقف أمامها تيارات مناهضة لها مواقف تختلف في نفس الثلاثية: الدين والفنون والسلوك، إنها تعارض الدين وبعضها يرفضه أو ينتقد ثوابته بلا فهم أو يقين أو دراسة.. وهنا كان الانقسام الأكبر بين طائفة تدعى العلمانية اختارت أن تدخل فيما يشبه العداء مع كل من يختلف معها خاصة ثوابت الإسلام.

- ولم يكن الحوار على مستوى القضية لغة أو فهمًا أو علمًا، وهنا هبطت لغة

الحوار ودخلت إلى مناطق لا تتناسب مع قدسية الأديان، ولغة الحوار كان ينبغي أن تترفع حتى لو أصبحت نقدًا ولا تهبط إلى درجة الابتذال والتشكيك والإهانة. **لقد تعرضت رموز كثيرة إلى اتهامات وتجريح وإساءة، وفقد الحوار هيبته، وفقد الدين قدسيته، وارتفعت درجة الصراع تحت دعاوى الحوار.**

- أن الحديث الآن يدور حول نسب مرتفعة في الإلحاد خاصة بين الشباب، وتجرأ الناس على بعضهم وفقدت العلاقات الإنسانية الكثير من ثوابتها أخلاقًا وسلوكًا. لا أنكر أنني أصبحت أخاف من هذه النغمة النشاز، خاصة إذا تدخلت فيها أطراف مجهولة لا تريد لنا الأمن والاستقرار وتسعى إلى بثٍّ مظاهر الفتنة بين أبناء الوطن الواحد.

- على الجانب الآخر فإن الدفاع عن الإسلام يجب أن يرتقي إلى قدسية الدين وأخلاقياته بعيدًا عن التعصب والكراهية. إن الصراع الحالي بين من يرفعون راية الدين ومن يرفعون شعارات العلمانية ويتجاوزون في لغة الحوار يزرعون الفتنة بشباب من حقه ومن واجبنا أن نوفر لهم مناخًا فكريًا راقيًا وحوارًا مترفعًا؛ لأنه من الظلم أن تصل لغة الحوار إلى التهجم على الرموز وقضايا الحجاب وحقوق المرأة، الأديان أكبر والحوار لا بد أن يقوم على الفهم والوعي والأمانة.

- **ثانيًا:** انتقلت لعنة الانقسامات إلى جوانب أخرى منها الفنون، **وهنا وجدنا من يشجع الفنون الهابطة وتظهر أغاني المهرجانات، ويصبح المال هدفًا، بعيدًا عن القيمة والرسالة، وتنتشر دعاوى الشذوذ، وتجد من يروّج لها،** وللأسف الشديد أن هذه التجاوزات تجد أقلامًا وآراء ودعوات تحت شعار الحريات وحقوق الإنسان وكأن حقوق الإنسان في انفلات الأخلاق وفوضى السلوكيات، لقد تواكبت الحملة ضد ثوابت الدين ورموزه إلى الفن الراقي ورسالته إلى فوضى الأخلاق من خلال دعوات مشبوهة تضرب هذه الثلاثية، وهي أهم المقومات التي يقوم عليها بناء الإنسان.

- ثالثًا: **في هذا المناخ المرتبك اختلطت الأدوار، وشهدت الساحة هجومًا ضاريًا على الدين، والهجوم على رموزه والتشكيك في ثوابته،** وللأسف الشديد أن الذين يقودون هذه الحملات أناس لا علاقة لهم بسماحة الأديان وقيمة الأخلاق ودور الفن في الرقي بالإنسان.. إن تشويه الأديان وتهميش الأخلاق وإفساد الفنون تمثل اعتداءً صارخًا على المقومات الأساسية لبناء الإنسان، وما أراه الآن ويراه غيري:

- أن هذه الجوانب الثلاثة تتعرض لهجوم ضار تحت ستار النقد والحوار وإعادة قراءة الأشياء، رغم أن هدفها الحقيقي هو ضرب جذور المجتمع؛ لأن الإسلام ليس الحجاب، والشذوذ يتعارض مع الأخلاق والدين معًا، والغناء الهابط والفن الرخيص ليسا إبداعًا.. إن الحل عندي يقوم على ثلاث دعوات:

- **أولاً:** أن تتوقف دعوات الهجوم على الدين وتشويه رموزه والتشكيك في ثوابته، وأن يشارك في الحوار حول قضايا الدين العلماء والمتخصصون، ولا يسمح أن تتحول وسائل التواصل الاجتماعي إلى منصات تفتي في كل شيء وتسيء للناس وعقائدهم ورموزهم، وتكون سببًا في نشر الفتن وتضليل الشباب.

- ثانيًا: أن تعود الرقابة على كلمات الأغاني الهابطة، وتوضع ضوابط فنية لغناء فرق المهرجانات، وأن تمتنع الفضائيات عن نشر الفنون الهابطة.

- **ثالثًا: أن تستعيد الأسرة دورها في التربية والحرص على الأبناء والخوف عليهم من المخدرات ودعوات الشذوذ والجريمة، وأن تعود المدرسة إلى دورها في التربية والتوجيه، وتعود الجامعة للحوار والرأي الآخر، وقبل هذا كله أن نخاف الله في أجيالنا الجديدة؛ لأنهم أمانة وهم مستقبل هذا الوطن وأغلى ما فيه.**

- كما قلت فإن معظم التحديات والأزمات كانت وراءها أفكار عقيمة، وهناك أيضًا أفكار عظيمة صنعت شعوبًا وشيدت أوطانًا، وحكمة الشعوب تتجسد في اختياراتها، وهذه الاختيارات تبدأ فكرًا وتصبح حوارًا، وهنا تكون

أولويات الأشياء والمواقف والتوجهات.. وهناك فرق كبير بين قضايا تبني وقضايا تستهلك العمر والزمن، وللأسف أشعر أحيانًا بأننا نضيع الوقت فيما لا يستحق من القضايا، وأن حواراتنا في هذا الزمن الصعب لا تتناسب مع خطورة ما نحن فيه، ولا يعقل أن يكون همُّ المجتمع وأولوياته أن يشوّه رموزه ويُهاجم دينُه وتُحارب ثوابته وتُدمر فنونه بلا وعي أو فهم أو ضمير، شيء من الحكمة حتى نختار قضايانا ونزيد وعينا وندرك مسئولياتنا تجاه أنفسنا وتجاه الحياة.

- لا أعتقد أن حالة الانقسام بين تيارات الفكر في مصر قد أفادت أحدًا، بل إنها أضرّت بالجميع أمام حالة من الرفض للآخر، والتشدد في المواقف حتى وصلت الأمور إلى ما يشبه العداء. ومع التراجع والتردي في لغة الحوار سقط الجميع في دوامة من التخبط لا أحد يدري كيف الخروج منها. . تبقى عندي **كلمة أخيرة أن الشيء المؤكد أن الانقسامات التي أصابت المناخ الثقافي في مصر تركت خلفها أجيالاً حائرة فقدت ثقتها في كل شيء.**

- إن حالة الانقسام التي نعانيها أصبحت شبحًا يهدد تماسك هذا الشعب في كل أفكاره وثوابته ومقدساته.. ولكل شعب تاريخه الذي يعيش عليه وسلوكياته التي يحرص عليها ودينه الذي يقدسه، وحين تتداخل الأشياء والأفكار والأخلاق فإن المجتمع يتحول إلى كائن مختلف تتعارض فيه الرؤى وتسوء فيه الأخلاق وتتشوه الأفكار، ويتحول المجتمع إلى جزر معزولة تفتقد الوعي والإرادة ويصبح الحل مهمة صعبة: أن يتحدث الجميع ولا تجد أحدًا يسمعهم!!

ملحق رقم [٦]

السيد عمر مكرم.. زعيم مصر غير منازع

بقلم الأستاذ فتحي رضوان[١]

ولنبدأ بأول أبطالنا المعممين السيد عمر مكرم، وكان أزهريًا قحًا، وكان المنصب الذي يشغله هو نقابة الأشراف، أي أبناء وأحفاد رسول الله ﷺ، منصبًا دينيًا.

ولد السيد عمر مكرم في أسيوط سنة (١٧٥٥م) على ما يستنتجه مؤرخه المرحوم فريد أبو حديد[٢]، وقد تعلم في الأزهر، وتخرّج فيه، وقد كانت له عناية بقراءة كتب الدين والفقه، واقتنى مكتبة كبيرة، لا يزال جزء منها في دار الكتب المصرية يحمل اسمه.

ولست أنوي أن أروي تاريخ عمر مكرم كله، وإن كان تاريخًا يتضوع منه عطر الجهاد، في حلقات متصلة بعضها ببعض ولم تدع له سبيلاً إلى الراحة، **فمنذ جاء الفرنسيون إلى مصر بقيادة بونابرت، وعمر مكرم هو زعيم مصر غير منازع**، وهو لا يقنع بتزعم الجماهير والتصدي لمخاطر مواجهة الأعداء الأجانب، المدججين بالسلاح، والمدربين على القتال، **بل إنه تحمّل أعباء توجيه السياسة، والخوض في دروبها الضيقة**، ومعاناة السير في مآزقها المحرجة، **فهو لا يهادن الفرنسيين**، كما فعل كل أعيان مصر، أمثال السادات والشرقاوي، وبقي عمر مكرم -بعد وصول

(١) كتابه (دور العمائم في تاريخ مصر الحديث) ط الزهراء للإعلام العربي ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

(٢) كتابه بعنوان (زعيم مصر الأول: السيد عمر مكرم) كتاب الهلال في مايو سنة ١٩٩٧م- وكان التعريف به كما يلي: يصدر كتاب، السيد عمر مكرم في وقت هو انسب الأوقات لحياة الزعيم المصري النبيل، وإحياء ذكراه ـ لأنه أول زعماء مصر الوطنيين المخلصين الذين اتخذوا الوطنية عقيدة سامية ومبدأ صادقاً وضحوا بأموالهم ومراكزهم وحياتهم في سبيل خدمة بلادهم.. لم يكن هذا الزعيم الأول يرجو من وراء جهاده مركزاً ولا جاهاً ولا رياسة ولا لقباً. بل فقد مركزه ولقبه ورياسته في سبيل عقيدته ووطنه). ويقع الكتاب في ٢٢٠ صفحة. من أوصافه له كان روح الثورة وقلبها النابض، لا تفتر له حركة ولا يخفت له صوت (ص ٨٣) القطع الصغير.

الفرنسيين إلى القاهرة- خارج مصر، رافضًا أن تتم بينه وبين الفرنسيين هدنة على الرغم من شدة رغبة الفرنسيين في عودته حتى تطمئن نفوس المصريين، وبقي عمر مكرم يتنقل من موقع إلى موقع، وهو روح المقاومة، فمن المنصورة إلى يافا، فلما أخطا نابليون وقتل من أهل يافا ستة آلاف، رأى نفسه عاجزًا عن مواصلة القتال، ومد يد الصلح والمسلمة للسيد عمر مكرم، ورجاه أن يعود إلى القاهرة مكرمًا معززًا، ولم يأت إلى مصر إلا بعد ما ثارت القاهرة ثورتها الباهرة في أكتوبر (١٧٩٨م) بقيادة رجل الدين بدر الدين المقدى الذي كان يتلقى رسائل عمر مكرم وهو في يافا، يحرّض الجماهير على الجهاد، ويرسم الخطط، فلما أُجبر على العودة، كان يتصور أنه قادر على النفخ في رماد الثورة، وأن يؤلب جميع الشعب ضد الأعداء المغيرين، فلما لم يجد الاستجابة التي كان يمنّي نفسه بها، عاش في عزلة، بعيدًا عن الناس؛ لأنه لم يكن يقبل أن يتصل ويعايش إلا قومًا يدفعون عن وطنهم العدوان، وقد بقي عمر مكرم بعيدًا عن قائد الفرنسيين بونابرت وقواد الحملة الفرنسية، لا يتودد إليهم، كما فعل سائر العلماء، فالفرنسيون لا يرضون عنه، ولا يستطيعون أن يمسوه لعلمهم بعظم مقامه، حتى اضطروا إلى مغادرة مصر سنة (١٨٠٠م)، بعد ثورة مارس التي تلت ثورة أكتوبر، ولما خلت مصر من الأعداء الفرنسيين تهيأ للاستيلاء على السلطة فيها ملوك المماليك، أسوأ حكام عرفهم تاريخ الأمم[1]، وولاة تركيا الذين كانت تبعثهم ليمثلوها، ويحكموا مصر على الرغم من أهلها، وطليعة الغزو الإنجليزي التي كانت أساطيله بقيادة سدني سميث ثم نلسون، تجوب البحر الأبيض المتوسط ذهابًا وعودة.

وكان عمر مكرم في هذه الغابة المليئة بالأسود والنمور والذئاب والكلاب،

---

(١) لا يصح تعميم الحكم على المماليك كافة، وفي هذا المعنى يقول الدكتور حسين مؤنس (وليس من الصواب أن يقال إن المماليك كانوا طغمة من الأشرار... لأن الكثيرين منهم كانوا على درجة عظيمة من القدرة واتساع الذهن ونية الخير، لا نزاع في أن أمثال قطز وبيبرس وقلاوون والناصر ابنه ولاشين وبارساي يعدون من أعظم حكام المسلمين وأقدرهم وأوفرهم نصيبًا في بناء مجده وحضارته- ويضاف إلى ذلك أنهم كانوا جميعًا من أشد المسلمين إخلاصًا للإسلام وأكثرهم تضحية في سبيله ودفاعًا عن حوزته) ص ٢٦ كتابه (المشرق الإسلامي في العصر الحديث) مكتبة الثقافة الدينية بالظاهر ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

وكان وحده لا يؤيده ولا يشد أزره إلا إيمانه بوطنه ودينه، وما حباه الله من مواهب الزعيم الصلب، والسياسي الثابت، فراح يشق طريقه في هذه الطرق الملتوية، حتى هداه الأمر إلى أن خير الرجال في هذه اللحظة الحرجة هو قائد الفرقة الألبانية الموفدة من تركيا؛ ليستتب الأمن، فقد رأى في هذا القائد ضبط النفس، ونفاذ البصيرة وقوة الإرادة، فقرر أن يختاره حاكمًا لمصر، دون معرفة سابقة ولا صلة قائمة، فأيده، وقام بعمل لا يكاد يتصوره قارئ لتاريخ هذه الفترة، فقد أثار الشعب على والي تركيا، ومندوب السلطان، خليفة المسلمين، ورفض أن يذعن لأمر هذا الوالي الذي عزل محمد علي قائد الفرقة الألبانية، فجمع عمر مكرم الشعب في مظاهرة مستمرة في دار الحكمة الشرعية، وأمر بمحاصرة الوالي في القلعة، فقام أفراد الشعب بهذا الحصار، الذي لم تشهد مصر شيئًا مثله، وكانت المواجهة بين والٍ يمثل السلطة الشرعية المتمثلة في شخص الخليفة، والسلطان المؤيد بالجيش والسلاح.. وبين الشعب المصري، شعب الفلاحين الأعزل، يقوده عالم من علماء الدين، لم تتح له فرصة قيادة الجيوش، ولا مفاوضة الحكام، ولا تنظيم الجماهير الثائرة، ولكنه استطاع أن يواجه في وقت واحد: الأمراء المماليك، وقادة الفرق العسكرية الأخرى الطامعة في الحكم، وبقية الجيش الفرنسي، ومطامع بريطانيا، واستطاع فوق مواجهة القوى المتلاطمة أن يجعل من جبهة الشعب قوة لا تنفذ منها دسائس الأقوياء المسلحين، ونادى بمبايعة محمد علي في المحكمة الشرعية، وهتفت جموع الشعب في دار الحكمة بتأييد هذا الاختيار، وتم اختيار محمد علي بوثيقة وقع عليها قاضي المحكمة الشرعية، وتعهد فيها محمد علي بأن يحكم مصر بشروط الشعب المتمثل في علمائه الذين كان يتزعمهم السيد عمر مكرم.

ولما تولى محمد علي الحكم، وكان يمكن أن يكون عمر مكرم هو أقرب للحاكم الجديد، وأن يكسب من وراء ذلك السلطة، ولكنه رأى أن (محمد علي) انحرف، وأراد أن يستبد بالسلطة، وأن يخرج على الميثاق المحرر بينه وبين الشعب، تحاشاه وبَعُد عنه وأطلق لسانه في نقده، فصبر (محمد علي) قليلاً على (عمر مكرم) أولاً لإحساسه بدينه له وبمركزه عند الناس، ولكنه اضطر آخر الأمر

أن ينفيه إلى دمياط، ولم يعد الزعيم الشيخ، العالم المسلم المجاهد، إلا بعد أن تقدمت به السن، وبعدت به الشيخوخة عن القتال، إلا أنه كان في طليعة الشيوخ المعممين الذين صاغوا مصر الحديثة[1].

(١) المصدر: فتحي رضوان. كتابه (دور العمائم في تاريخ مصر الحديث) ط- الزهراء للإعلام الغربي ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.
كذلك وصفه بقوله (إنه زعيم مصر غير منازع منذ جاء الفرنسيون إلى مصر) وهو الجدير حقًا بجعله أسوة لشبابنا بدلاً من الزعماء المصنوعين بواسطة الإعلام!
د/ عبد العزيز الشناوي (عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية) ص ١٤٧ أعلام العرب يوليو سنة ١٩٦٧م.
وبالدراسة المقارنة يليه الزعيم الشاب مصطفى كامل رئيس الحزب الوطني وهو بطل مقاومة الاستعمار الإنجليزي لمصر، وصاحب مقولة (لا مفاوضة إلا بعد الجلاء).

تعقيب

لقد دلّنا كل من الدكتور المسيري والفيلسوف الفرنسي جارودي على الوجه الآخر لحضارة العصر والجوانب المظلمة منها، ويحذّران من المضي في تقليدها وإلا فنُصاب حتمًا بما أصابها من تدهور واضمحلال، فضلاً عن تذكيرنا بما ارتكبته دول الغرب من جرائم وحشية أثناء استعمارها العسكري لبلادنا، وما زالت تباشره ربيبتها الصهيونية بأرض فلسطين حتى اليوم أمام سمع وبصر هيئة المتحدة والعالم المتحضّر.

وهل ننسى أيضًا عمليات الإبادة والقتل الجماعي والاغتصاب والتشويه لمسلمي البوسنة والهرسك؟! كل ذلك يعبّر بجلاء عن الوجه القبيح لتلك الحضارة..

وكان قد سبقهما الأستاذ محمود شاكر أيضًا منذ نحو قرن من الزمان؛ حيث طالبنا بالتحرّر من أسر التعبّد للمدنية الغربية، ومن ثمّ تميز أنفسنا فلا ندخل في غمار حضارات الأمم التي لا تجمع بيننا وبينها وطن ولا خُلق ولا دين ولا أدب ولا جنس، ولا دم ولا شيء مما يتقارب به الناس أو يختلفون، بل من الضروري إحياء أصول حضارتنا(1).

إحياء أصول حضارتنا:

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...﴾ [النور: 55]، وكذلك رأينا تلك النصيحة تتردد من قبل على لسان الدكتور محمد حسين هيكل؛ حيث خالف أقرانه وبعض معاصريه الذين اتخذوا من الغرب أسوة؛ إذ اكتشف أن تاريخنا

---

(1) جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر، جمعها/ عادل سليمان جمال جـ1 ص 430/432 مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة 2003م.

الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته، حيث خضع الغرب للتفكير الكنسي على ما أقرته «البابوية» المسيحية منذ عهدها الأول.. وكانت الثقافة الروحية لذلك في قبضة رجال الدين يُبرمون أمرها ما يشاءون إبرامه، وينقضون ما يشاءون نقضه. أمّا الإسلام فلا يعرف الكنسية، وأقرب الناس فيه إلى الله تعالى أتقاهم، ولا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى(١).

ثم يقرّر الدكتور هيكل أنه لا مفر إذًا من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نُحيي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد في قلوبنا.. وفي موضع آخر من كتابه يذكر كيف أدت النظرة العلمية المادية في تاريخها الغربي(٢)، أدت إلى الحياة المادية البحتة، وهي حياة وثنية بطبعها، وتتناول جميع المظاهر؛ فعبادة المال وثنية، وعبادة السلطان وثنية وعبادة القوة المادية وثنية، وما تجر إليه الوثنية من أنانية ومن خوف وفزع قد كان مصدر شقاء للعالم ومصدر الحروب المدمرة التي تنشب فيه بين حين وحين(٣).

وما أروعه عندما يصوّر لنا انطباعه من رؤية الكعبة المشرّفة بقوله (وها هو هيكل التوحيد اليوم كما كان حين أقيمت قواعده، وهو يزداد كل يوم تعظيمًا حتى ينصر الله دينه على الدين كله، فيكون قبلة العالم جميعًا في مشارق الأرض ومغاربها)(٤).

كذلك فإنه يدعو المسلمين إلى إحياء حضارتهم ومصدرها الأرواح المضيئة، وقوامها وثبة النفوس القوية، والأرواح تضيء ما اتصلت بروح أقوى سلطانًا وأبهر سنًا، كما يضيء سلك البلاتين إذ يصهره تيار الكهرباء.

وكم في ماضينا من أرواح ذات سنًا باهر قادرة بقوتها على أن تبعث الحضارة الإسلامية خلْقًا جديدًا.. ومحمد بن عبد الله ﷺ هو النور الأول الذي استمدت

(١) د/محمد حسين هيكل (في منزل الوحي) ص ٢٢/٢٣ ط دار المعارف سنة ٢٠٠٢م

(٢) (٣) نفسه ص ٢٣ وص ٦٣٦ وص ١٩٠

(٤) المصدر السابق.

هذه الأرواح منه ضياءها، وهو الشمس التي أمدت كل هذه الأقمار بسناها[1].

ونستشهد أخيرًا برأي الرئيس علي بيجوفتش الذي عاش في أوروبا وكشف عن أحشائها بقوله (إذا اقترضنا على سلم القيم السائد في هذه الحضارة، فلن نجد قيمة أخلاقية واحدة يمكن أن تسد الطريق أمام غزو الإباحية أو تقاوم انتشار الخمور أو الارتفاع المستمر في جرائم الانحراف وانهيار الأسرة والشذوذ الجنسي، مع قنوط العلم في مواجهة الأمراض الاجتماعية التي تتميز بطابع لا أخلاقي واضح)[2].

ومع هذا كله فإن ما يثير دهشتنا الممزوجة بالألم والحسرة أن نلاحظ أن تيّار **التنوير الغربي ما زال مصرًا على ترديد نفس الدعاوى المتكررة، غافلاً عما تعانيه الحضارة المعاصرة من أزمات أجملناها في أقوال الشهود السابقة،** فضلاً عن تحوّل أقطاب التغريب في مصر إلى الفكر الإسلامي، وكان تأثيرهم بالغ الأثر في الدول العربية كافة وهم: طه حسين وعبد الرحمن بدوي وزكي نجيب محمود ومحمد حسين هيكل وعلي عبد الرازق[3]، وقد عبرّوا بصدق عن تجربتهم الثقافية، مرجحين تراثهم الإسلامي، وحضارتهم العريقة بحيث أصبحوا حجّة على المتغربين من الشباب الذين ما زالوا في أول الطريق بغير دراسة وبغير تجربة.

من تلك الدعاوى المتكررة إصرار شاعر عراقي على المناداة باستعمال العامية بدل الفصحى بحجة اتباع الأوروبيين في تطور لغتهم.. وأن النور في العقل وحينما نغفل العقل فلا نور ولا تنوير! ويقول: **لا نجد فيلسوفًا عربيًا، ولا ناقدًا فكريًا عربيًا بالمعنى الحقيقي! مع حاجتنا إلى ابتكار أدوات جديدة من خلال القراءة والسينما والمسرح!**[4].. (وتبعًا للسياق: **على الطريقة الأوروبية)!**

---

(١) كتاب (في منزل الوحي) ص ٢٤/ ٢٥,

(٢) علي بيجوفيتش (الإسلام بين الشرق والغرب) ص ١٢١ ترجمة محمد يوسف موسى -مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا الألمانية ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

(٣) يُنظر كتابنا (يقظة أقطاب التغريب في مصر) تحت الطبع بإذن الله.

(٤) من أقوال الشاعر العراقي شوقي عبد الأمير لمحرر جريدة (الأهرام) بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ٢٠٢٣م، وهو مستشار رئيس معهد العالم العربي بباريس.

خاتمة الملاحق.. وكلمات أخيرة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فلا بد أن نتذكر دائمًا أن سنّة الله سبحانه وتعالى في التدافع بين الحق والباطل مستمرة حتى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥]

وبدون الخوض في تفاصيل تاريخ المحن والمصائب التي أصابت الأمة الإسلامية وأشهرها غزوات التتار والحروب الصليبية التي استمرت حتى عصرنا هذا، (وكانت حرب البوسنة ومعارك إبادة مسلمي كوسوفا حروبًا دينية من وجهة نظر الصرب واليونان، كانت حروبًا صليبية متأخرة للقضاء على آخر الآثار الإسلامية في البلقان. (وبالمناسبة يحظر في البلدين بناء مساجد).. في حقيقة وواقع لا ينكر: لم تنته الحروب الصليبية حتى يومنا هذا)(١).

ثم زاد الخطب حيث قام أتاتورك اليهودي بالدور الأخير للقضاء على الإسلام نيابة عن الصليبية والصهيونية، وهدم الخلافة العثمانية، وأرغم الشعب التركي على التغريب بالقوة المسلحة، ولكن الشعب قاومه واستشهد نحو نصف مليون تركي دفاعًا عن دينهم.. وفي النهاية حقق غرضه الخبيث في علمنة تركيا ومحاربة الإسلام بضراوة بالغة كما يسجّل تاريخه البشع، وخدم الغرب بإزالة الخلافة العثمانية التي كانت عائقًا ضد الاستعمار، فوقعت الأمة الإسلامية في أسر الاستعمار الغربي العسكري والثقافي معًا، وتمثّل أخطره في الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لأرض فلسطين، بلاد المسلمين ومكانتها في القلب منها.

---

(١) د/ مراد هوفمان (الإسلام في الألفية الثالثة -ديانة في صعود) ص ٧٣ مصدر سابق.

وقعت كل تلك الكوارث والمصائب الكبرى، ومن ثمّ تنفّس الغرب الصعداء ظنًا أنه قضى على المارد الإسلامي.

ولكن حدث ما لم يكن منتظرًا.. (ففي ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، على عكس ما يتوقّع المرء، مرّ كل من العالم الغربي والعالم الإسلامي بنقطة تحوّل كبيرة، فالإسلام المحطّم بالأزمات لم يدخل القبر، وإنما أفعم حيوية بدرجة أرعبت الغرب منه، ومن الناحية الأخرى بدأت الأزمات تحوم حول العالم الغربي)[1].

ونختم هذا الصراع المحتدم بمشهدين يبعثان على التفاؤل والثقة بالنفس:

- **أحدهما**: المشهد الأفغاني كما أسلفنا البيان وحللناه.

- **والثاني**: المشهد التركي، فبعد نحو قرن من الزمان من جريمة أتاتورك النكراء عام ١٩٢٤م عاصرنا -والحمد لله عز وجل- كيف تغلّبت الحركة الإسلامية في المعركة الانتخابية (مايو سنة ٢٠٢٣م) على بقايا أتباع أتاتورك الذين حرصوا على الحفاظ على التركة العفنة لزعيمهم الهالك، بالرغم من الدعم المالي والإعلامي والمخابراتي الأوروبي والأمريكي!

هذا، ولما كانت السمة العامة للمعارك هي الكر والفر، فإننا نسأل الله تعالى أن يُسهم ذلك النجاح في دعم الصحوة الإسلامية وشد أزرها في مرحلة الكر القادمة بإذن الله تعالى.

والله غالب على أمره.

(١) د/ مراد هوفمان (الإسلام كبديل) ص ٢٠ تعريب: عادل المعلم دار الشروق ط٢ ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

المصادر

١- (محاضرات جارودي) مجلة الطليعة.

٢- إبراهيم بيدون (الإكراه على علمنة المجتمع المغربي وقيمه الإسلامية).

٣- إبراهيم خليل أحمد (الاستشراق والتبشير..).

٤- إبراهيم خليل أحمد (تنصير العالم: الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية).

٥- ابن تيمية (جواب أهل العلم والإيمان).

٦- ابن عطية نقلاً عن (القرآن.. تدبّر وعمل).

٧- أبو الحسن الندوي (ردّة ولا أبا بكر لها).

٨- أبو الحسن الندوي (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟).

٩- الآجري (كتاب الشريعة).

١٠- أحمد بن صالح الزهراني (صنّف نفسك!).

١١- أرنولد توينبي (الإسلام.. والغرب.. والمستقبل).

١٢- الأستاذ إبراهيم خليل أحمد (الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية).

١٣- أنور الجندي (اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار).

١٤- البقاعي نقلاً عن (القرآن.. تدبر وعمل).

١٥- تفسير السعدي باختصار.

١٦- جاسم مهلهل الياسين (الدولة الإسلامية بين الواجب والممكن).

١٧- جان لاكوتير (عبد الناصر).

١٨- جمال سعد حاتم (مصر أم الدنيا بين الفتن والإفساد).

١٩- جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر.

٢٠- جورج كيرك (موجز تاريخ الشرق الأوسط).

٢١- جيلبرت سينويه (الفرعون الأخير محمد علي).

٢٢- د/ رفعت سيد أحمد (آيات شيطانية ?جدلية الصراع بين الإسلام والغرب).

٢٣- د/ محمد حمدي زقزوق (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري).

٢٤- د/ أبو الوفا التفتازاني، بحث بعنوان (منهج إسلامي في تدريس الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة في الجامعة).

٢٥- د/ أحمد القديري، مقال بعنوان (نحو شروع حضاري للإسلام).

٢٦- د/ أحمد فؤاد باشا (التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارات).

٢٧- د/ إدريس الكتاني، مقال بعنوان (كيف نفهم التطرف الديني؟).

٢٨- د/ جلال أمين (خرافة التقدم والتأخر -العرب والحضارة الغربية في القرن الواحد والعشرين).

٢٩- د/ حامد ربيع (قراءة في فكر علماء الإستراتيجية).

٣٠- د/ حامد ربيع (قراءة في فكر علماء الإستراتيجية ?كيف تفكر إسرائيل؟).

٣١- د/ حسن مؤنس (الشرق الإسلامي في العصر الحديث).

٣٢- د/ حسين مؤنس (التاريخ والمؤرخون).

٣٣- د/ حسين مؤنس (الحضارة).

٣٤- د/ زغلول النجار (الإسلام والغرب في كتابات الغربيين).

٣٥- د/ زكي نجيب محمود (ثقافتنا في مواجهة العصر).

٣٦- د/ زكي نجيب محمود (قيم من التراث).

٣٧- د/ زينب عبد العزيز (تنصير العالم ؟مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني).

٣٨- د/ سعيد إسماعيل علي (محنة التعليم في مصر).

٣٩- د/ سعيد عبد الفتاح عاشور (حضارة الإسلام).

٤٠- د/ سيد محمد السيد (تاريخ الدولة العثمانية (النشأة - الازدهار).

٤١- د/ صفاء أحمد (المرشد الأمين لتعليم البنات والبنين في القرن الحادي والعشرين).

٤٢- د/ عائشة عبد الرحمن (مقال في الإنسان -دراسة قرآنية).

٤٣- د/ عائشة عبد الرحمن، مقال بعنوان (تراثنا بين شرق وغرب).

٤٤- د/ عبد الحليم محمود (مقدمة كتاب: صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام).

٤٥- د/ عبد الرحمن بدوي (فلسفة الحضارة).

٤٦- د/ عبد العزيز الشناوي (الدولة العثمانية- دولة إسلامية مفترى عليها).

٤٧- د/ عبد العزيز حمودة (المرايا المحدّبة ؟من البنيوية إلى التفكيك).

٤٨- د/ عبد العزيز حمودة (المرايا المقعرة).

٤٩- د/ عبد الغني عبود (الحضارة الإسلامية والحضارة المعارضة).

٥٠- د/ عبد الله الخاطر (الهزيمة النفسية عند المسلمين).

٥١- د/ عبد الله عزام (آيات الرحمن في جهاد الأفغان).

٥٢- د/ عبد الوارث عثمان، مقال بعنوان (مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي).

٥٣- د/ عبد الوهاب المسيري (العالم من منظور غربي).

٥٤- د/ عبد الوهاب المسيري (دراسات معرفية في الحداثة الغربية).

٥٥- د/ عفاف صبرة(المستشرقون ومشكلات الحضارة).

٥٦- د/ علي القريشي (التغير الاجتماعي عند مالك بن نبي).

٥٧- د/ علي سامي النشار (مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي).

٥٨- د/ علي سلطاني العاتري، مقال بعنوان (نظرات في الأسلمة والتأصيل).

٥٩- د/ عماد الدين خليل (في التأصيل الإسلامي للتاريخ).

٦٠- د/ عماد الدين خليل (قراءة في الفكر الغربي: الإسلاموالمستقبل).

٦١- د/ عمر سليمان الأشقر (كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها من جديد؟).

٦٢- د/ عمر ممدوح مصطفى (أصول تاريخ القانون ?تكوين الشرائع وتاريخ القانون المصري).

٦٣- د/ فاطمة محجوب (الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية).

٦٤- د/ فهمي الشناوي (مصرع الخلافة العثمانية).

٦٥- د/ كمال العبد حبيب (الدين والدولة في تركيا?صراع الإسلام والعلمانية).

٦٦- د/ ليلى عنان (الحملة الفرنسية-تنوير أم تزوير؟).

٦٧- د/ محمد أحمد الغمراوي (الإسلام في عصر العلم).

٦٨- د/ محمد بلتاجي (بحوث إسلامية في التفسير والحديث وأصول التشريع).

٦٩- د/ محمد حسين (حصوننا مهددة من داخلها).

٧٠- د/ محمد حسين هيكل (في منزل الوحي).

٧١- د/ محمد رجب البيومي (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين).

٧٢- د/ محمد علي أبو ريان (أسلمة المعرفة-العلوم الإنسانية ومناهجها من وجهة نظر إسلامية).

٧٣- د/ محمد علي أبو ريان (الإسلام السياسي في الميزان).

٧٤- د/ محمد عمارة (الإسلام والسياسة-الرد على شبهات العلمانيين).

٧٥- د/ محمد عمارة (من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام).

٧٦- د/ محمد محمد عاشور (السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم -أصول وضوابط).

٧٧- د/ محمد يحيى، مقال بعنوان (البعد الديني: في الحملة الأمريكية على أفغانستان).

٧٨- د/ مراد هوفمان (الإسلام في الألفية الثالثة -ديانة في صعود).

٧٩- د/ مراد هوفمان (الإسلام كبديل).

٨٠- د/ مراد هوفمان (يوميات ألماني مسلم).

٨١- د/ مصطفى محمود (رحلتي من الشك إلى الإيمان).

٨٢- د/ منير محمد طاهر الشواف (تهافت الدراسات المعاصرة في الدولة والمجتمع).

٨٣- دونالد مالكوم ريد. (دور جامعة القاهرة في بناء مصر الحديثة) ترجمة إكرام يوسف.

٨٤- رشيد رضا (مختصر كتاب الوحي المحمدي).

٨٥- رضا هلال (تفكيك أمريكا).

٨٦- روجيه جارودي (الولايات المتحدة طليعة الانحطاط).

٨٧- رينيه جينو (أزمة العالم المعاصر).

٨٨- زيجريد هونكه (الله، ليس كذلك).

٨٩- زيغريد هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب-أثر الحضارة العربية على الأوروبية).

٩٠- السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان).

٩١- سيرج لاتوش (تغريب العالم) تعريب خليل كلفت.

٩٢- شريف دلاور (حتى لا يُسرق المستقبل).

٩٣- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (عيون البصائر).

٩٤- محمود شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا).

٩٥- الشيخ محمد مصطفى المراغي(التعريف بكتاب حياة محمد ﷺ).

٩٦- عبد الحليم الجندي (الإمام محمد عبده).

٩٧- عبد الحليم خفاجي (حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون).

٩٨- عبد الصمد شرف الدين، مقدمة كتاب (الرد على المنطقيين).

٩٩- زينب عبد العزيز (تنصير العالم).

١٠٠- عبد العزيز خطاب (تربية الشباب في القرآن الكريم).

١٠١- عبد الفتاح عبد المقصود (صليبية إلى الأبد).

١٠٢- عبد المجيد الشوادفي (الهزيمة ومعالم الإفلاس).

١٠٣- عبد المنعم شميس، مقال (السيرة النبوية الشريفة بأقلامالمعاصرين).

١٠٤- عجيل النشمي (الانفصام بين النظرية والتطبيق ودور الفكر العربي).

١٠٥- علي بيجوفيتش (الإسلام بين الشرق والغرب).

١٠٦- عماد الدين خليل (في التأصيل الإسلامي للتاريخ).

١٠٧- عمر ممدوح مصطفى (أصول تاريخ القانون ?تكوين الشرائع وتاريخ القانون (المصري).

١٠٨- فهمي هويدي (خطوط عريضة لمشروع إسلامي).

١٠٩- كارين أرمسترونج (مسيرة الإسلام).

١١٠- كارين أرمسترونج (القدس-مدينة واحدة عقائد ثلاث).

١١١- كارين أرمسترونج (محمد ﷺ).

١١٢- كمال شاتيلا (الديمقراطية الاستعمارية - انهيار الإمبراطورية الأمريكية).

١١٣- لواء أحمد عبد الوهاب (التغريب طوفان من الغرب).

١١٤- محمد أسد (الطريق إلى الإسلام).

١١٥- محمد الغزالي (كفاح دين).

١١٦- محمد الغزالي (مشكلات في طريق العمارة الإسلامية).

١١٧- محمد المجذوب (مشكلات الجيل في ضوء الإسلام).

١١٨- محمد جلال كشك (ودخلت الخيل الأزهر).

١١٩- محمد رشيد رضا (الوحي المحمدي).

١٢٠- محمد زارع (القطعان المستأنسة).

١٢١- محمد عبد العظيم علي (سرّ إسلام روّاد الفكر الحر في أوروبا).

١٢٢- محمد عبد الله السمان (أين نحن من الإسلام؟).

١٢٣- محمد علي أبو ريان (الإسلام في مواجهة تيارات الفكرالغربي المعاصر).

١٢٤- محمد فريد أبو حديد (زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم).

١٢٥- محمد قدوس (الإسـلاميون خارج النخبة. أمة بين ثقافتـينوجمهور يبحث عن جماعة).

١٢٦- محمـود سلطان، مقال بعنوان (الثقافـة والسياسة في معـارك الإسلاميين والعلمانيين في مصر).

١٢٧- محمود شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) كتاب الهلال العدد ٤٨٩ .

١٢٨- مراد هوفمان (الإسلام كبديل).

١٢٩- المهتدية مريم جميلة (الإسلام في النظرية والتطبيق).

١٣٠- مهندس دكـتور ممدوح عبد الحـميد فـهمي: بحث بعنوان (البيـئة الثقافـية للصناعة والتقنية) باختصار.

١٣١- نور الدين فريد المصري (تحمل المسئولية).

١٣٢- وحيد الدين خان (الإسلام يتحدى).

١٣٣- وولتر أرمبرست (الثقافة الجماهيرية، والحداثة في مصر).

الفهرس

الملاحق

